

جُحَا فِي بِلَادِ الْجَنِّ

جُحَا فِي بِلَادِ الْجَنِّ

تأليف
كامل كيلاني



جُحَا فِي بِلَادِ الْجَنِّ

كامل كيلاني

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره،

وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: حنان بغدادي.

الترقيم الدولي: ٨ ٢٥١ ٠ ٢٧٣ ١ ٩٧٨

جميع الحقوق الخاصة بالإخراج الفني للكتاب وبصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي سي آي سي. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Artistic Direction, Cover Artwork and Design Copyright © 2017 Hindawi Foundation C.I.C.

All other rights related to this work are in the public domain.

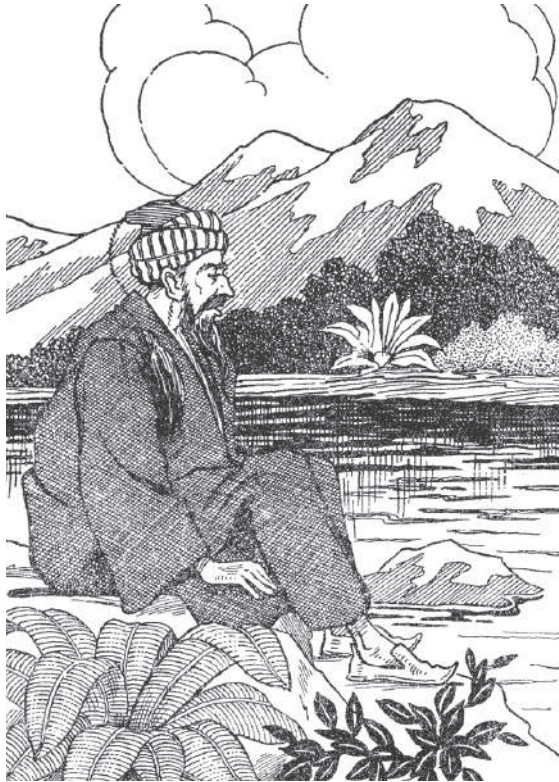
المحتويات

٧	١- الْغَرِيقُ النَّاجِي
١٧	٢- الْخَوَّارُ
٢٩	٣- الْعُكْمُوسُ
٣٧	٤- مِصْبَاحُ الْكَنْزِ
٦٣	٥- بَدْءُ السَّعَادَةِ
٧٥	٦- بَيْنَ يَدَيِ الْقَاضِي
٩١	٧- عَوْدَةُ «الْخَوَّارِ»
١١٣	٨- اسْتِثْنَاءُ السَّفَرِ

الفصل الأول

الْغَرِيقُ النَّاجِي

(١) لَيْلَةٌ لَا تُنْسَى



وَقَعَتْ حَوَادِثُ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْجُحَوِّيَّةِ الشَّائِقَةِ مُنْذُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَتَيْنِ وَآلْفٍ مِنَ السِّنِينَ.
ذَاتَ مَسَاءٍ كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ: عَبْدُ اللَّهِ دُجَيْنُ بْنُ ثَابِتٍ» يَسِيرُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ. كَانَتْ
لَيْلَةٌ لَا تَنْسَى! كَانَتْ حَافِلَةً بِالْمَفَاجِآتِ! كَانَ لَهَا فِي حَيَاةِ «أَبِي الْغُصْنِ» أَكْبَرُ الْأَثَرِ.
مَا أَظْنُهُ نَسِيَهَا طُولَ حَيَاتِهِ. مَا أَظْنُ الْقَارِئَ سَيَنْسَاهَا طُولَ حَيَاتِهِ.
كَانَ الظَّلَامُ يَغْمُرُ الْكَوْنَ. كَادَ الظَّلَامُ يَحْجُبُ الطَّرِيقَ عَنِ الْعُيُونِ، لَوْلَا بَصِيصُ^١
ضَبِيلٍ مِنْ ضِيَاءِ النُّجُومِ، تَرْسُلُهُ السَّمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ، كَمَا يُرْسِلُ الرَّجَاءُ نُورَهُ إِلَى ظُلُمَاتِ
النَّفْسِ؛ فَيَكْشِفُ مِنْ يَأْسِهَا الْحَالِكِ^٢، وَيَفْتَحُ لَهَا طَرِيقًا نَيِّرًا تَسْلُكُهُ فِي ظُلُمَاتِ الْحَيَاةِ!
شَاعَ الصَّمْتُ وَسَادَ السُّكُونُ، لَوْلَا نَقِيقُ الضَّفَادِعِ الْمَرِحَةِ مُنْبِعِثًا مِنْ ضِفَّةِ النَّهْرِ.
جَلَسَ «أَبُو الْغُصْنِ» هَادِي النَّفْسِ مُطْمَئِنًّا، بِرَغَمِ مَا لَقِيَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ كَوَارِثِ
وَأَحْدَاثِ.

لَوْ أَنَّ بَعْضَ مَا حَلَّ بِبَطْلِ قِصَّتِنَا مِنَ الْمَصَائِبِ أَصَابَ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ، لَمَا وَجَدَ
الْعَزَاءُ إِلَى نَفْسِهِ سَبِيلًا، وَلِضَاقَتِ عَلَيْهِ الدُّنْيَا بِمَا رَحِبَتْ، وَدَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ قَائِمًا.

(٢) أَيَّامُ الشَّدَّةِ

تَسْأَلُنِي: مَاذَا لَقِيَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنَ النِّكَبَاتِ؟
اعْلَمْ — حَفِظَكَ اللَّهُ وَرَعَاكَ، وَسَلَّمَكَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَعَافَاكَ — أَنَّ أَحَدَ الْأَشْرَارِ أَحْرَقَ
بَيْتَ «أَبِي الْغُصْنِ».

هَكَذَا عَبَسَ لَهُ وَجْهُ الزَّمَانِ! هَكَذَا تَوَالَتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ:
اسْتَهْدَفَتْ^٣ أَسْرَتَهُ لِلْجُوعِ وَالْمَرَضِ. تَنَكَّرَ لَهُ أَصْحَابُهُ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا مَا حَلَّ بِهِ مِنْ
الْمُلِمَّاتِ. هَجَرَهُ عَارِفُوهُ، وَابْتَعَدَ عَنْهُ خُلَصَاؤُهُ وَمُرِيدُوهُ. أَنْكَرَ صَدَاقَتَهُ مَنْ كَانُوا يَتَوَدَّدُونَ
إِلَيْهِ وَيَلْتَمِسُونَ مَعُونَتَهُ. قَبَضُوا أَيْدِيَهُمْ عَنْهُ بَعْدَ انْبِسَاطِهَا.

^١ بريق أو لمعان.

^٢ الشديد السواد.

^٣ تعرضت.

الْغَرِيقُ النَّاجِي

لَمْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِ — بِالْمَسَاعِدَةِ — يَدُ أَحَدٍ مِنْ أَصْدِقَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ الَّذِينَ كَانَ يَدَّخِرُهُمْ
لِلنَّوَائِبِ، وَيَسْتَبْقِيهِمْ لِلشَّدَائِدِ.
تَمَّتْ لَهُ — بِذَلِكَ — كُلُّ أَسْبَابِ الشَّقَاءِ. لَمْ يَكُنْ يَنْقُصُهُ شَيْءٌ لِيَكُونَ أَتَعَسَ خَلَقَ اللَّهُ
إِنْسَانًا!

(٣) جَارَةٌ مُحْسِنَةٌ

لَمْ يَكُنْ لَهُ مُعِينٌ — فِي نَكَبَتِهِ — غَيْرُ جَارَتِهِ «زُبَيْدَةَ» الْمُحْسِنَةِ.
لَوْلَا عَطْفُ هَذِهِ الْجَارَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَيْهِ، وَعَلَى زَوْجَتِهِ وَوَلَدَيْهِ، لَهَلَكُوا جُوعًا!
لَكِنَّ اللَّهَ لَطَفَ بِهِمْ، فَأَتَاكَهَا لَهُمْ لِتَتَعَهَّدَهُمْ فِي أَيَّامِ الْمِحْنَةِ وَالشَّقَاءِ.

(٤) نَفْسٌ رَاضِيَةٌ

أَتَعْرِفُ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ — كَيْفَ لَقِيَ «أَبُو الْغُصَنِ» تِلْكَ الْأَحْدَاثَ وَالْخُطُوبَ؟
لَقِيَهَا بِاسْمِ الثَّغْرِ وَضَاحِ الْجَبِينِ، عَامَرَ الْقَلْبِ بِنُورِ الْيَقِينِ!
لَعَلَّكَ تَذْهَشُ إِذَا قُلْتَ لَكَ: إِنَّهُ كَانَ يَسْتَقْبِلُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْهَائِلَةَ بِنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ رَاضِيَةٍ.

(٥) عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ

كَانَتْ الضَّفَادِعُ — قَبْلَ حُضُورِهِ — تَمْلَأُ الْجَوَّ بِنَقِيقِهَا. سَكَنَتِ الضَّفَادِعُ حِينَ رَأَتْهُ قَادِمًا
عَلَيْهَا.

اسْتَقَرَّ بِهِ الْجُلُوسُ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ.
عَاوَدَتْهَا الشَّجَاعَةُ. أُنِسَتْ بِهِ. اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ. أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ.
سُرِعَانَ مَا عَاوَدَهَا الْمَرَحُ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا الْبَهْجَةُ.
انْطَلَقَتِ الضَّفَادِعُ تَقْفِزُ فِي الْفَضَاءِ، وَتَرْفَعُ أَصْوَاتَهَا بِمَا تَمْلِكُ مِنْ قَبِيحِ الْغِنَاءِ!

(٦) نَجَاةُ الْغَرِيقِ

أَحَسَّ «أَبُو الْغُصْنِ» صَوْتَ جِسْمٍ يَسْقُطُ فِي الْمَاءِ. سَمِعَ اسْتِغَاثَةً ضَعِيفَةً خَافَتَهُ، تَنَبَّعْتُ فِي إِثْرِ الصَّوْتِ، طَالِبَةً النَّجْدَةَ. خَفَّ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى النَّهْرِ. انْدَفَعَ إِلَى مَصْدَرِ الصَّوْتِ. قَذَفَ بِجِسْمِهِ فِي الْمَاءِ فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلَا وَجَلٍ^٤. ظَلَّ يَسْبَحُ^٥ فِي إِثْرِ الْغَرِيقِ جَاهِدًا. عَثَرَ بِطَرْفِ ثَوْبٍ! أَطْبَقَتْ يَدَاهُ عَلَيْهِ، وَجَذَبَهُ إِلَيْهِ. بَذَلَ قَصَارَى جُهِدِهِ حَتَّى أَنْقَذَ الْغَرِيقَ. حَمَلَهُ إِلَى الشَّاطِئِ، بَعْدَ أَنْ أَشْرَفَ كِلَاهُمَا عَلَى الْغَرَقِ.

(٧) شُكْرُ النَّاجِي

أَقْبَلَ «أَبُو الْغُصْنِ» يَتَأَمَّلُ وَجْهَ النَّاعِسِ الَّذِي أَشْرَفَ عَلَى الْغَرَقِ، بَعْدَ أَنْ كَتَبَ اللَّهُ سَلَامَتَهُ عَلَى يَدَيْهِ. أَبْصَرَ شَيْخًا^٦ زَرِيًّا الْهَيْئَةَ، مُغْمًى عَلَيْهِ. لَمْ يَلْبَثِ الشَّيْخُ أَنْ أَفَاقَ مِنْ عَشِيَّتِهِ. نَظَرَ إِلَى مُنْقِذِهِ بَعَيْنَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ، يُظَلِّلُهُمَا حَاجِبَانِ كَثِيفَانِ^٧. قَالَ لَهُ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ^٨، يَكَادُ يَخْتَنِقُ مِنَ الْبُكَاءِ: «شُكْرًا لَكَ — يَا أَخِي — عَلَى مَا أَسَدَيْتَ إِلَيَّ مِنْ صَنِيعٍ!»^٩

أَبَى لَكَ فَضْلُكَ وَمُرُوءَتُكَ، إِلَّا أَنْ تُخَاطِرَ بِحَيَاتِكَ، لِتُنْقِذَ حَيَاتِي! جَزَاكَ اللَّهُ — بِمَا صَنَعْتَ — خَيْرًا. لَوْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ، لَكَانَ الْهَلَاكُ نَصِيبِي!

^٤ بلا خوف.

^٥ يعووم.

^٦ رجلًا طاعنًا في السن.

^٧ غليظان.

^٨ متقطع في ارتعاش.

^٩ جميل.

(٨) حِوَارُ عَجِيبُ

أَنَا فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِي. لَسْتُ أَدْرِي — عَلَى التَّحْقِيقِ — أَجْمِيلًا صَنَعْتَ مَعِي، أَمْ قَبِيحًا؟! لَسْتُ أَدْرِي — عَلَى التَّحْقِيقِ — أَحْيَا قَدَمْتُ إِلَيَّ، أَمْ شَرًّا؟! قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «مَاذَا تَعْنِي؟ أَكُنْتُ تَقْصِدُ عَامِدًا إِلَى إِغْرَاقِ نَفْسِكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟!» قَالَ الشَّيْخُ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ! ذَلِكَ مَا لَا يَدُورُ بِبَالٍ عَاقِلٍ كَرِيمٍ! مَا كُنْتُ غَبِيًّا فَاسِدَ الرَّأْيِ، وَلَا جَبَانًا ضَعِيفَ الْقَلْبِ، فَأَفْكَرَ فِي التَّخَلُّصِ مِنَ الْحَيَاةِ. إِنَّمَا زَلْتُ قَدَمِي، وَأَنَا أَمْشِي عَلَى الْجِسْرِ. لَمْ أَتَبَيَّنْ أَنْ هَوَيْتُ إِلَى قَاعِ النَّهْرِ. ثُمَّ حَمَلَنِي النَّيَّارُ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ الْحَالِكِ. ١٠ كُنْتُ — لَوْلَا أَنْتَ — مِنَ الْمُعْرِقِينَ.» قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «مَا بِكَ — إِذَنْ — تَتَنَدَّمُ عَلَى نَجَاتِكَ؟ لِمَ لَا تَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى سَلَامَتِكَ؟» قَالَ الشَّيْخُ، فِي أَسْلُوبِ حَزِينٍ، يَفِيضُ مَرَارَةً وَاكْتِنَابًا: ١١ «حَمْدًا لِلَّهِ، عَلَى كُلِّ حَالٍ. كُلُّ مَا يَنَالُنَا — مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ — مَقْدُورٌ عَلَيْنَا، لَا حِيلَةَ لَنَا فِي دَفْعِهِ، وَلَا سُلْطَانَ ١٢ لَنَا عَلَى رَدِّهِ.»

(٩) آلَامُ الشَّيْخِ

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «مَاذَا يَحْزُنُكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؟» قَالَ الشَّيْخُ: «مَثَلٌ لِنَفْسِكَ شَيْخًا فَانِيًا مِثْلِي، مَاتَتْ أَسْرَتُهُ جَمِيعًا: أَوْلَادُهُ وَزَوْجَتُهُ، وَأَخَوَاتُهُ وَعَشِيرَتُهُ، وَأَقَارِبُهُ الْأَدْنَوْنَ وَالْأَبْعَدُونَ. مَاتُوا جَمِيعًا! أَصْبَحَ — فِي شَيْخُوخَتِهِ — يَعْيشُ بِلَا أَهْلٍ وَلَا أَمَلٍ. أَصْبَحَ لَا يَجِدُ — فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ — فُؤَادًا يَهْفُو ١٣ إِلَيْهِ، وَلَا يَظْفَرُ بِمُورِدِ عَيْشٍ يَفْتَاتُ مِنْهُ، بَعْدَ أَنْ حُمِّلَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ،

١٠ الشديد السواد.

١١ غمًا، وسوء حال، وانكسارًا من الحزن.

١٢ ولا قدرة.

١٣ يتحرك ويعطف عليه.

مَنْ أَعْبَاءِ السِّنِينَ. كَيْفَ يَكُونُ شَعُورُ هَذَا الرَّجُلِ الْفَانِي، إِذَا هَيَّأتَ لَهُ الْمُصَادَفَةُ أَنْ يَغْرَقَ،
ثُمَّ كُتِبَتْ لَهُ السَّلَامَةُ مَرَّةً أُخْرَى؟
أَتَرَاهُ يَسْعُدُ بِذَلِكَ أَمْ يَشْقَى؟ أَتَرَاهُ يَبْتَهِجُ بِاسْتِزْدَادِ حَيَاتِهِ، أَمْ يَأْسَفُ لِخَلَاصِهِ وَنَجَاتِهِ؟
إِنْ لِلْفَتَى وَالشَّابِّ — مِنْ أَمْثَالِكَ — أَمَلًا كِبَارًا، يَسْعَيَانِ إِلَى تَحْقِيقِهَا وَالظَّفَرِ بِهَا.
فَإِذَا بَلَغَا مَا بَلَغْتَ مِنَ السِّنِينَ، وَذَرَفَا^{١٤} عَلَى السَّبْعِينَ؛ فَأَيُّ أَمَلٍ يَبْقَى لَهُمَا فِي الْحَيَاةِ؟ أَيُّ
مَطْلَبٍ يَسْعَى لَهُ الشَّيْخُ الْفَانِي وَيَتِمَّنَاهُ؟»

(١٠) بَرَاءَةٌ مِنَ الضَّعْفِ

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» يُنَاجِي نَفْسَهُ، فِي صَوْتٍ خَافِتٍ: «مَا بَالُ هَذَا الرَّجُلِ يَسْتَنْكِرُ الْبَقَاءَ،
وَيَلْعَنُ الْحَيَاةَ؟!»
كَانَ سَمِعَ الشَّيْخَ مُرْهَفًا.^{١٥} لَمْ تُفْلِتْ مِنْهُ تِلْكَ الْهَمْسَةُ.^{١٦} قَالَ لِمُنْقِذِهِ قَوْلَهُ الْمُتَنَبِّتِ
مِمَّا يَقُولُ: «كَلَّا، يَا صَاحِبِي. لَا تُسَيِّ ظَنِّكَ بِي. لَسْتُ كَمَا تَقُولُ. مَا أَنَا بِمُبْغِضٍ لِلْبَقَاءِ،
وَلَا كَارِهِ لِلْحَيَاةِ. كَلَّا، لَمْ أَسْتَنْكِرِ الْحَيَاةَ كَمَا ظَنَنْتَ، وَلَا لَعَنْتُهَا كَمَا تَوَهَّمْتَ. أَنَا أَحْتَقِرُ مَنْ
يَفْعَلُ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِحْتِقَارِ.

(١١) آهَةُ الْمَحْزُونِ

عَشْتُ — طُولَ عُمْرِي — مُؤْمِنًا بِاللَّهِ، مُسْتَسْلِمًا لِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، مُفَوِّضًا أَمْرِي لَهُ،^{١٧} تَجْرِي
عَلَيَّ مَشِيئَتُهُ، وَيَنْتَهِي أَجَلِي مَتَى اقْتَضَتْ إِرَادَتُهُ. لَمْ يَمْنَعْنِي إِيمَانِي بِالْقَدَرِ عَنِ السَّعْيِ فِي
مَنَاجِبِ الْأَرْضِ،^{١٨} فِي طَلَبِ الرِّزْقِ.

^{١٤} زَادَا.

^{١٥} دَقِيقًا حَادًّا.

^{١٦} الصَّوْتِ الْخَفِيِّ.

^{١٧} تَارِكًا إِلَيْهِ الْحُكْمَ فِيهِ.

^{١٨} أَرْجَائِهَا وَنَوَاحِيهَا.

إِيَّاكَ أَنْ تَأْخُذَ عَلَيَّ مَا سَمِعْتَ! إِنَّهَا آهَةٌ مَحْزُونَةٌ. إِنَّهَا كَلِمَةٌ حَمَقَاءُ، سَبَقَتْ إِلَى خَاطِرِي، فَنَطَقَ بِهَا لِسَانِي فِي سَاعَةِ أَلَمٍ عَارِضَةٍ، لَمْ يَتَذَبَّرْ عَقْلِي مَغْزَاهَا، وَلَا تَتَبَّتْ فِكْرِي مِنْ مَعْنَاهَا!«
أَطْرَقَ الشَّيْخُ لَحْظَةً. طَاطَأَ رَأْسَهُ بُرْهَةً.^{١٩} كَأَنَّمَا خَجَلَ مِمَّا فَاهَ بِهِ لِسَانُهُ مِنْ شَكْوَى.

(١٢) أَسْبَابُ السَّعَادَةِ

قَطَعَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى الشَّيْخِ صَمْتَهُ. سَأَلَهُ: «مَنِ الرَّجُلُ؟»
أَجَابَهُ الشَّيْخُ: اسْمِي: «لَعْلَعُ»، كُنْيَتِي: «أَبُو شَعْشَعٍ»، اسْمُ أَبِي: «دَعْدَعُ»، اسْمُ جَدِّي: «هَدْرَشُ».

صَمَتَ الشَّيْخُ قَلِيلًا، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ قَائِلًا: «خَبَّرَنِي أَنْتَ! مَا بِأَلْكَ مُنْفَرِدًا فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ، فِي هَذَا الْمَكَانِ الْمُوحِشِ؟ لِمَذَا أَثَرْتَ^{٢٠} الْعُزْلَةَ، فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ، كَأَنَّمَا تَفِرُّ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكَ؟! إِذَا صَحَّتْ فِرَاسَتِي، وَصَدَقَ ظَنِّي، فَمَا إِخَالُكَ سَعِيدًا فِي حَيَاتِكَ!«
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «كَلَّا، يَا صَاحِبِي. السَّعَادَةُ لَمْ تَفَارِقْنِي طُولَ حَيَاتِي. مَا أَذْكَرُ أَنْنِي شَعَرْتُ بِالتَّعَاسَةِ يَوْمًا وَاحِدًا؛ عَلَى كَثْرَةِ مَا أَصَابَنِي مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْأَلَامِ.
أَلَا تَرَى كَيْفَ تَتَوَالَى الْفُصُولُ الْأَرْبَعَةُ، فِي أَثْنَاءِ السَّنَةِ: صَيْفٌ يَتْلُوهُ خَرِيفٌ، وَشِتَاءٌ يَتْلُوهُ رَبِيعٌ؟!

كَذَلِكَ يَتَعَاقَبُ حُزْنٌ وَفَرْحٌ. انْقِبَاضٌ وَانْبِسَاطٌ، يَأْسٌ وَرَجَاءٌ. شِدَّةٌ وَرَخَاءٌ. عُسْرٌ وَيُسْرٌ. فَقْرٌ وَغِنَى. ظُلْمَةٌ وَنُورٌ. مَرَضٌ وَصِحَّةٌ. لَا يَبْقَى حَالٌ وَلَا يَدُومُ! إِنَّ الْحُزْنَ وَالسُّرُورَ — فِيمَا أَرَى — يَتَعَاقَبَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ، كَمَا يَتَعَاقَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.»
قَالَ الشَّيْخُ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَا سَمِعْتُ — طَوَالَ حَيَاتِي — أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِكَ، وَلَا أَحْكَمَ مِنْ رَأْيِكَ! لَئِنْ صَحَّ ظَنِّي؛ لَيَكُونَنَّ لَكَ شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي حَيَاتِكَ، وَبَعْدَ مَمَاتِكَ.»

^{١٩} زمناً.

^{٢٠} اخترت.

(١٣) مَأْسَاةُ «أَبِي الْغُصْنِ»

أَطْرَقَ الشَّيْخُ لَحْظَةً، اسْتَأْنَفَ بَعْدَهَا قَائِلًا: «تُرَى: مَنْ تَكُونُ، أَيُّهَا السَّيِّدُ الْكَرِيمُ؟»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: اسْمِي: «عَبْدُ اللَّهِ دُجَيْنٌ»، كُنِّيَّتِي: «أَبُو الْغُصْنِ»، اسْمُ أَبِي: «ثَابِتٌ»،
اسْمُ جَدِّي: «جَحْوَانٌ».

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَا صَنَاعَتُكَ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «كُنْتُ — إِلَى يَوْمِ أَمْسٍ — تَاجِرًا غَنِيًّا. لَكِنَّ حَرِيقًا شَبَّ فِي بَيْتِي
وَمَخْرَنِي، التَّهْمَهُمَا الْحَرِيقُ جَمِيعًا. أَتَى الْحَرِيقُ عَلَى كُلِّ مَا أَمْلِكُ مِنْ أَثَاثٍ وَبَضَائِعٍ. لَمْ
يُبْقِ لِي الْحَرِيقُ — مِمَّا مَلَكَتُهُ — كَثِيرًا، وَلَا قَلِيلًا.

حَمْدًا لِلَّهِ، عَلَى كُلِّ حَالٍ. تَذَارَكْنِي اللَّهُ بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ، سَلِمَ كُلُّ مَنْ فِي الدَّارِ ... سَلِمْتُ
زَوْجَتِي، وَوَلَدِي وَابْنَتِي. شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى بَدِيعِ الْطَّافِهِ.

كَدْنَا نَهْلُكُ جُوعًا؛ لَوْلَا جَارَتُنَا الْكَرِيمَةُ «رُبَيْدَةُ». مَا أَطْيَبَ قَلْبَهَا، وَمَا أَكْرَمَ صُنْعَهَا!
شُكْرًا لَهَا. مَدَّتْ إِلَيْنَا يَدَ الْمَعُونَةِ، أَحْوَجَ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهَا. تَكَفَّلَتْ بِإِطْعَامِ زَوْجِي وَوَلَدِي.
تَسْأَلُنِي: مَاذَا لَقِيَ الْجَانِي بَعْدَ أَنْ أَوْقَدَ النَّارَ فِي بَيْتِي وَمَخْرَنِي؟ الْجَانِي فَرَّ. ٢١ لَمْ
يَقِفْ لَهُ أَحَدٌ عَلَى أَثَرٍ!»

قَالَ الشَّيْخُ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَا أَعْجَبَ قِصَّتَكَ! أَنْسَتَنِي مَصَائِبُكَ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — كُلَّ
مَا لَقِيتُ فِي حَيَاتِي مِنْ أَحْدَاثٍ وَالْآمِ».

(١٤) فَضْلُ الصَّبْرِ

عَادَ الشَّيْخُ إِلَى صَمْتِهِ. أَطْرَقَ هُنَيْهَةً. ارْتَعَشَ جِسْمُهُ. ظَلَّ يَصْرِفُ نَابَهُ. ٢٢
اسْتَأْنَفَ الشَّيْخُ يَقُولُ: «كَيْفَ تَكُونُ الدُّنْيَا إِذَا خَلَتْ مِنْ دَوَى الْمَرْوَةِ وَالْفُضْلِ؟ كَيْفَ
تَكُونُ الْحَيَاةُ إِذَا خَلَتْ مِنْ كِرَامِ الْمُحْسِنِينَ؟»

٢١ هرب.

٢٢ يحكُ ضرسه، فيُسمع له صوت.

ظَنَّ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنَّ الشَّيْخَ يُعَانِي مِنْ آلامِ الْبُرْدِ مِثْلَ مَا يُعَانِي. حَسَبَ ضَيْفَهُ يَسْتَجِدِيهِ الْمَعُونَةُ. ٢٣ حَسْبَهُ يَرْتَجِفُ أَلَمًا.

قَالَ لَهُ «أَبُو الْغُصْنِ»: «دَعْنَا مِنْ حَدِيثِ الْأَحْزَانِ. لَيْسَ فِي ذِكْرِيَّاتِ الْمَصَائِبِ فَائِدَةٌ تُرْجَى. سَيَنْقُضِي وَقْتُ الشَّدَّةِ إِذَا صَبَرْنَا لَهَا. سَيَعْقُبُهُ وَقْتُ الرَّخَاءِ. سَوْفَ تُنْسِينَا بِهَجَّتِهِ جَمِيعَ مَا كَابَدْنَاهُ مِنْ مَصَائِبِ الدُّنْيَا وَالْآلَمِهَا.

مَتَى صَبَرَ الْإِنْسَانُ لِجَهْدِ نَارِلَةٍ أَصَابَتْهُ، وَوَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى احْتِمَالِهَا، وَابْتَسَمَ لِلْكَوَارِثِ وَالنَّكَبَاتِ — غَيْرِ هَيَّابٍ وَلَا وَجَلٍ — لَمْ تَلْبِثِ الْغَمَّةُ أَنْ تَنْجَلِي عَنْهُ وَيَنْسَاهَا، كَمَا نَسِيَ غَيْرَهَا مِنْ الْمَصَائِبِ وَالْآلَمِ.

الْعَاقِلُ مَنْ يَرْضَى بِأَحْكَامِ الْقَضَاءِ! هَيْهَاتَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ الْعَاقِلُ لِلضَّعْفِ! إِنَّهُ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنْ لِكُلِّ شِدَّةٍ مُدَّةٌ، ثُمَّ تَنْقُضِي. إِنَّهُ يَعْلَمُ: أَنَّ مَنْ صَبَرَ لِلْمِحْنَةِ غَلَبَهَا، وَانْتَصَرَ عَلَيْهَا!«

(١٥) فِي ضِيَاةِ «أَبِي الْغُصْنِ»

صَمَتَ «أَبُو الْغُصْنِ» قَلِيلًا. اسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قَائِلًا: «هَلُمَّ، يَا «أَبَا شَعْشَعٍ». اتَّبِعْنِي إِلَى الدَّارِ. أَنْتَ وَاجِدٌ فِيهِ — عَلَى ضَيْقِهِ — مَكَانًا تَأْوِي إِلَيْهِ. سَنُحْضِرُ بَعْضَ الْحَشَائِشِ وَالْأَعْشَابِ. سَوْفَ نَوْقِدُهَا، لِنَجْفِفَ ثِيَابَنَا الْمُبْتَلةَ.»

أَطْرَقَ «أَبُو شَعْشَعٍ» لَحْظَةً. اسْتَأْنَفَ يَقُولُ: «قَبِلْتُ ضِيَاةَكَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». شُكْرًا لَكَ! لَعَلَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — يُوفِّقُنِي ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى أَدَاءِ هَذَا الْجَمِيلِ إِلَيْكَ.»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «إِنَّ فِي صُنْعِ الْمَعْرُوفِ لَذَّةً يَتَصَاوَلُ أَمَامَهَا كُلُّ جَزَاءٍ مَهْمًا جَلَّ، وَتَصَغُرُ — بِالْقِيَاسِ إِلَيْهَا — كُلُّ مَكَاةٍ مَهْمًا عَظُمَتْ. حَسْبِي سُرُورٌ وَابْتِهَاجٌ أَنْ يُمَكِّنَنِي اللَّهُ — عَلَى فَقْرِي — مِنَ الْقِيَامِ بِوَاجِبِ الضِّيَاةِ، دُونَ نَظَرٍ إِلَى جَزَاءٍ وَلَا شُكْرِ. فَخَيْرٌ مَا يُكَافَأُ بِهِ الْإِنْسَانُ — يَا سَيِّدِي — شُعُورُهُ بِأَنَّهُ آدَى وَاجِبُهُ، وَفَرَحُهُ بِقُدْرَتِهِ عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبِ! هَلُمَّ، يَا صَاحِبِ، فَاعْتَمِدْ ذِرَاعِي. اتَّكَيْ عَلَيْهَا لِنُسَاعِدَكَ عَلَى السَّيْرِ.»

(١٦) دَعَوَاتُ مُسْتَجَابَةٍ

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَا أَبْعَدَ نَظْرَكَ، وَأَحْكَمَ رَأْيَكَ، وَأَصْدَقَ نَبِيَّتَكَ، وَأَسْلَمَ طَوِيَّتَكَ! أَنَا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ الْفَوْزَ وَالْفَلَاحَ مُقَدَّرَانِ لَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جَمِيعًا!

اللهُ — سُبْحَانَهُ — يَتَوَلَّى حِمَايَتَكَ، وَيُخَلِّدُ — عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ — اسْمَكَ وَسُمْعَتَكَ.

اللهُ — سُبْحَانَهُ — يَسَخِّرُ لَكَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ لِمُعَاوَنَتِكَ وَخِدْمَتِكَ، وَيَجْعَلُهُمْ طَوْعَ مَشِيئَتِكَ، وَرَهْنِ إِشَارَتِكَ.»

مَشَى كِلَاهُمَا فِي ضَوْءِ النُّجُومِ الْمُتَالِقَةِ^{٢٤} فِي السَّمَاءِ يُلْفُهُمَا ظِلَامُ اللَّيْلِ، وَيُؤْنِسُهُمَا نَقِيقُ الصَّفَادِعِ، وَيَحُوطُهُمَا اللهُ بِرِعَايَتِهِ، وَيَكْلُؤُهُمَا^{٢٥} بِعِنَايَتِهِ.

^{٢٤} المتلألئة.

^{٢٥} يحفظهما.

الفصل الثاني

الخوار

(١) الحُجْرَةُ الْبَاقِيَّةُ

كَانَتْ الْحُجْرَةُ الَّتِي أَبْقَاهَا الْحَرِيقُ لِبَطْلٍ قَصَّتَنَا الصَّابِرِ: «أَبِي الْغُصْنِ» وَأُسْرَتِهِ مَخْزَنًا أَعَدَّهُ فِي أَيَّامِ ثَرَائِهِ،^١ بِالْقُرْبِ مِنْ بَيْتِهِ الَّذِي التَّهَمَّهُ النَّارُ. كَانَ يَفْصِلُ بَيْنَ الْمَخْزَنِ وَالْدَّارِ فَنَاءً^٢ فَسِيحٌ. جَمَعَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي هَذَا الْفَنَاءِ كُلَّ مَا اسْتَطَاعَ إِنْقَاذَهُ مِنَ اللَّهَبِ، مِنْ مُحْتَوَيَاتِ دَارِهِ. وَضَعَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» بِغَيْرِ نِظَامٍ. أَقَامَ «أَبُو الْغُصْنِ» وَزَوْجَتَهُ، وَابْنَهُ وَبِنْتَهُ، فِي الْحُجْرَةِ الْبَاقِيَّةِ. اسْتَطَاعَتْ «رَبَابَةُ» زَوْجَتُهُ «أَبِي الْغُصْنِ» — بَعْدَ زَمَنِ قَلِيلٍ — أَنْ تَجْعَلَ مِنَ الْمَسْكَنِ الْحَقِيرِ مَثَلًا حَسَنًا لِلدَّارِ الْمُنَظَّمَةِ الْمُرِيحَةِ. قَسَمَتْهُ أَرْبَعَةً أَقْسَامٍ: قَاعَةً لِلْإِسْتِقْبَالِ، وَقَاعَةً لِلْأَكْلِ، وَقَاعَةً لِلْمَطْبَخِ، وَقَاعَةً لِلنَّوْمِ. لَقِيَتْ «رَبَابَةُ» مُسَاعَدَةً كَرِيمَةً مِنْ جَارَتِهَا «زُبَيْدَةَ».

(٢) الْأُسْرَةُ الْحَزِينَةُ

فَتَحَ «أَبُو الْغُصْنِ» بَابَ دَارِهِ، فَمَاذَا رَأَى؟

^١ غناه.

^٢ الفناء: الساحة أمام البيت.

رَأَى زَوْجَتَهُ «رَبَابَةَ» جَالِسَةً عَلَى مَقْعَدِهَا، مَائِلًا رَأْسَهَا، وَالْدُمُوعُ تَسِيلُ مِنْ عَيْنَيْهَا.
رَأَى جَارَتَهَا «زُبَيْدَةَ» إِلَى جَانِبِهَا — تَعَاوُنَهَا وَتَوْسِيَهَا،^٣ وَتَهْوُنُ عَلَيْهَا حَظَّهَا وَتُسَلِّيَهَا.
رَأَى وَلَدَيْهِ «جَحْوَانَ» وَ«جُحَيَّةَ» يَنْظُرَانِ إِلَيْهَا، بِعُيُونِهِمَا الْأَرْبَعَ الْوَاسِعَةَ، تَتَبَعْتُ مَنْ
نَظَرَاتِهَا الدَّهْشَةَ، ثُمَّ يَسْتَسْلِمَانِ لِلْحُزْنِ. كَأَنَّمَا كَانَا يَسْتَعْطِفَانِ أُمَّهُمَا؛ إِذْ يُحَدِّقَانِ فِي
وَجْهِهَا — بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ — لَعَلَّهَا تَكْفُفُ عَنِ الْبُكَاءِ.
كَانَا يَجْلِسَانِ الْقُرْفُصَاءَ تَحْتَ قَدَمَيْ أُمَّهُمَا.
أَيُّهَا الصَّغِيرُ الْعَزِيزُ: أَتَعْرِفُ مَعْنَى الْقُرْفُصَاءِ؟



إِنْ كُنْتُ لَمْ تَعْرِفْهَا مِنْ قَبْلُ فَاعْرِفْهَا الْآنَ، فَهِيَ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ، لَا تَسْتَعْنِي عَنْهَا فِي
حَدِيثِكَ وَكِتَابَتِكَ، وَسَأَرْسُمُ لَكَ كَيْفَ جَلَسَا الْقُرْفُصَاءِ: جَلَسَ أَحَدُ وَلَدَيْهِ لاصِقًا فَخَذِيهِ

^٣ تُصَبِّرُهَا وَتَعَزِّيْهَا.

بِطْنِهِ، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى سَاقَيْهِ. جَلَسَ الْآخَرُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، مُنْكَبًّا، لَاصِقًا بَطْنَهُ بِفَخْذَيْهِ، جَاعِلًا كَفَّيْهِ تَحْتَ إِبْطَيْهِ.
هَآ أَنْتَ ذَا تَرَى لِلْقُرْفَصَاءِ جِلْسَتَيْنِ: اخْتَارَ «جَحْوَانُ» إِحْدَاهُمَا، وَاخْتَارَتْ «جُحْيَةُ» الْجِلْسَةَ الْآخَرَى مِنْهُمَا.

(٣) الْغَرِيمُ الْقَاسِي

وَقَفَ «أَبُو الْعُصْنِ» عِنْدَ بَابِ الدَّارِ مُتَجَلِّدًا.^٤ كَانَتْ عَلَى تَغْرِهِ ابْتِسَامَتُهُ السَّاخِرَةُ الَّتِي لَمْ تَفَارِقْ شَفَتَيْهِ طُولَ عُمُرِهِ. قَالَ لِزَوْجَتِهِ «رَبَابَةُ» مُتَجَمِّلًا:^٥ «مَاذَا جَدَّ مِنْ الْكَوَارِثِ وَالْمَصَائِبِ، أَتَيْتَهَا الزَّوْجَةَ الْعَزِيزَةَ؟»

أَجَابَتْهُ «رَبَابَةُ»، دُونَ أَنْ تَقَعَ عَيْنَاهَا عَلَى ضَيْفِهِ الَّذِي كَانَ ظِلَامُ اللَّيْلِ يُخْفِيهِ عَنْ نَاطِرِيهَا: «فِي صَبَاحِ هَذَا الْيَوْمِ، جَاءَ غَرِيمُكَ^٦ الشَّيْخُ «الْعُكْمُوسُ»، يُطَالِبُكَ بِمَا عَلَيْكَ مِنْ دَيْنٍ. جَاءَ «الْعُكْمُوسُ» يُطَالِبُكَ بِدَنَانِيرِهِ الْمَائَتَيْنِ الَّتِي أَقْرَضَكَ^٧ إِيَّاهَا. جَاءَ يُذَكِّرُكَ أَنَّ مَوْعِدَ الْوَفَاءِ حَلَّ.

بَذَلْتُ جُهْدِي فِي اسْتِرْضَاءِ الْغَرِيمِ. ضَرَعْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُمَهِّلَنَا قَلِيلًا رَيْثَمَا نُدْبِرَ لَهُ دَيْنَهُ. أَبِي غَرِيمُكَ الْقَاسِي أَنْ يَسْتَجِيبَ لِدُعَائِي! ذَهَبَتْ جُهُودِي عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ! لَمْ يَزِدْهُ رَجَائِي وَضَرَاعَتِي^٨ إِلَّا إِصْرًا وَعِنَادًا.

أَبَى أَنْ يَلِينَ قَلْبُهُ الصَّخْرِيَّ. انْتَزَعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ. أَقْسَمَ «الْعُكْمُوسُ» لِيَبِيعَنَّ كُلُّ مَا بَقِيَ لَنَا مِنْ مَتَاعٍ وَأَثَاثٍ وَمَسْكِنٍ، إِذَا لَمْ نُؤَدِّ إِلَيْهِ دَيْنَهُ غَدًا.

^٤ متظاهراً بالصبر والقوة.

^٥ مخفياً مسكنته وذلك.

^٦ دائنك.

^٧ سلفك.

^٨ تذلي.

(٤) رَجَاءُ الصَّابِرِ

أَتَعْرِفُ كَيْفَ كَانَ جَوَابُ «أَبِي الْغُصْنِ»؟
قَالَ، وَعَلَى فَمِهِ ابْتِسَامَةُ الْوَائِقِ الْمُسْتَيْقِنِ: «لِتَكُنْ مَشِيئَةُ اللَّهِ. لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ. اللَّهُ لَا يَخْذُلُ عَبْدَهُ»^٩ مَا دَامَ يَبْذُلُ جُهِدَهُ، وَلَا يَدَّخِرُ وَسْعَهُ فِي الْعَمَلِ وَالسَّعْيِ فِي مَنَاقِبِ الْأَرْضِ. لَا زَالَ أَمَامَنَا مُنْتَسِعٌ مِنَ الْوَقْتِ. مَنْ يَذَرِي؟ رُبَّمَا جَاءَنَا الْفَرْجُ فِي لَمَحَةٍ عَيْنٍ: فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ رُبَّمَا تَبَدَّلَ عُسْرُنَا يُسْرًا، كَمَا بَدَّلَ الْحَرِيقُ يُسْرُنَا عُسْرًا!!

(٥) ضَلَالُ الْحَاقِدِ

صَمَتَ «أَبُو الْغُصْنِ» لَحِظَةً. اسْتَأْنَفَ بَعْدَهَا قَائِلًا: «مَاذَا يُجِدِيهِ أَثَاثُ الْبَيْتِ؟! لَنْ يَبِيعَهُ بِأَكْثَرِ مِنْ عِشْرِينَ دِينَارًا.
أَنَا أَغْرِفُ أَنَّهُ لَا يَرِيدُ بِهَذَا أَنْ يَسْتَوْفِيَ دَيْنَهُ، وَيَسْتَرِدَّ حَقَّهُ. إِنَّمَا يَقْصِدُ إِلَى إِسَاءَتِي وَأَذِيَّتِي، وَيَنْوَحَى إِلِْحَاقِ الضَّرَرِ بِي، وَتَسْوِيءِ سُمْعَتِي. كَلَّا، لَنْ يُظْفِرَهُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، كَلَّا.»

(٦) وَاجِبُ الضَّيْفِ

تَذَكَّرَ «أَبُو الْغُصْنِ» ضَيْفَهُ. قَالَ لِزَوْجَتِهِ «رَبَابَةَ»: «إِنَّ مَا نَزَلَ بِنَا مِنْ خُطُوبٍ وَأَحْدَاثٍ لَا يُسَوِّغُ^{١٠} إِهْمَالَنَا ضَيْفَنَا الْغَرِيبِ، السَّيِّدِ: «أَبَا شَعْشَعٍ»، بَعْدَ أَنْ تَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِزِيَارَتِهِ! مَا أَجَدَرْنَا أَنْ نُؤَدِّيَ إِلَيْهِ بَعْضَ مَا يَفْرِضُهُ عَلَيْنَا وَاجِبُ الضِّيَافَةِ وَحُقُوقُهَا!
يَجِبُ أَنْ نَكْفَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ. مَاذَا يَعْنِي سَوَانًا مِنْ أُمُورِنَا؟ هُمُومُنَا تَخُصُّنَا وَحَدَّنَا. هُمُومُنَا لَا تَعْنِي سَوَانًا فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ.»
قَالَتْ «رَبَابَةُ»: «صَدَقْتَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»، وَبِالْحَقِّ نَطَقْتَ.»

^٩ لا يترك نصرته وإعانتته.

^{١٠} لا يجيز.

اعْتَصَمْتُ «رَبَابَهُ» بِالصَّبْرِ، كَفُفْتُ دَمْعَهَا. خَفَّتْ لِاسْتِقْبَالِ الضَّيْفِ. رَحَّبْتُ بِهِ أَكْرَمَ تَرْحِيْبٍ. أَنْسَاهَا حُزْنَهَا مَا رَأَتْهُ فِي مَخَالِيهِ^{١١} مِنْ شَبِّهِ شَدِيدٍ بِأَعَزِّ النَّاسِ عِنْدَهَا. حُيِّلَ إِلَيْهَا أَنَّهَا تَرَى فِي مُحْيَاهُ^{١٢} صُورَةَ عَزِيزَةٍ عَلَيْهَا: صُورَةَ أَبِيهَا الشَّيْخِ الَّذِي فَقَدْتَهُ مُنْذُ زَمَنْ طَوِيلٍ. اشْتَدَّتْ حَفَاوَةُ «رَبَابَةِ» بِالضَّيْفِ وَإِنْسَاهَا. ضَاعَفَتْ تَكْرِيمَهَا لَهُ. خَفَّتْ جَارَتْهَا «زُبَيْدَةُ» لِمُسَاعَدَتِهَا. أَعَدَّتْ مَائِدَةً حَافِلَةً بِلَذَائِدِ الْأَطْعِمَةِ، أَحْضَرَتْهَا مِنْ بَيْتِهَا. أَكَلُوا وَشَرَبُوا هَنِيئًا مَرِيئًا.

(٧) حَدِيثُ الْمَائِدَةِ

انْتَهَرَ «أَبُو الْعُصْنِ» تِلْكَ الْمُنَاسَبَةَ. قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّةَ ضَيْفِهِ «أَبِي شَعْشَعٍ»، وَمَا حَدَّثَ لَهُ، وَكَيْفَ كَتَبَ اللَّهُ سَلَامَتَهُ عَلَى يَدَيْهِ. هَنَأَتْهُ «رَبَابَةُ». تَمَنَّتْ لَهُ أَطْيَبَ الْأَمَانِيِّ. شَكَرَ «أَبُو الْعُصْنِ» وَ«رَبَابَةُ» لِحَارَتِهِمَا «زُبَيْدَةُ»؛ كَرَمَهَا. دَعَا اللَّهُ أَنْ يَجْزِيَهَا عَنْهُمَا وَعَنْ ضَيْفِهِمَا خَيْرَ الْجَزَاءِ. قَالَتْ «زُبَيْدَةُ»: «لَوْ عَلِمْتُمَا مِقْدَارَ مَا أَسْلَفْتُمَا إِلَيْنَا فِي أَيَّامِ الشَّدَّةِ مِنْ حَسَنَاتٍ وَمَكْرَمَاتٍ، لَتَضَاعَلَ مَا قَدَّمْتُمَا إِلَيْكُمَا، وَلَظَهَرَ تَقْصِيرِي أَمَامَكُمَا وَاضِحًا جَلِيًّا».

(٨) وَاجِبُ الشُّكْرِ

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «إِنَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — يُجِبُّ الْمُحْسِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ وَالشَّاكِرِينَ. خَيْرٌ مَا يُعْبَرُ بِهِ الْقَادِرُ عَنْ شُكْرِ اللَّهِ أَنْ يُؤْسَى^{١٣} إِخْوَانُهُ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ، وَيُقْبَلَ عَلَيْهِمْ إِذَا مَا تَنَكَّرَ لَهُمُ الزَّمَانُ».

^{١١} ملامحه.

^{١٢} وجهه.

^{١٣} يصبر.

قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «صَدَقْتُ، يَا «أَبَا شَعْشَعٍ». مَا رَأَيْتُ أَبْقَى وَأَدْوَمَ لِلنَّعَمِ، مِنْ شُكْرِ اللَّهِ عَلَيْهَا!»

(٩) قَبْلَ الْحَرِيقِ

تَشَعَّبَ الْحَدِيثُ. انْتَهَى بِالشَّيْخِ «أَبِي شَعْشَعٍ» إِلَى سُؤَالِ «أَبِي الْغُصَنِ» عَمَّا أَثْقَلَهُ مِنْ دِينٍ.

قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «عَشْتُ حَيَاتِي كُلَّهَا — يَا «أَبَا شَعْشَعٍ» — لَمْ أَسْتَدِنْ^{١٤} قَلِيلًا، وَلَا كَثِيرًا. لَكِنَّ لِلتَّجَارَةِ أَحْوَالًا قَاسِيَةً: مُنْذُ زَمَنِ غَيْرِ بَعِيدٍ، اضْطُرَرْتُ أَنْ أَشْتَرِيَ بَضَائِعَ كَثِيرَةً، وَرَدْتُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ. عُرِضْتُ فِي الْأَسْوَاقِ بِثَمَنِ بَخِيسٍ. كَانَتْ — لَوْلَا الْحَرِيقُ — صَفْقَةٌ رَابِعَةً. رَأَيْتُ أَلَّا تُفْلِتَ الصَّفْقَةُ^{١٥} مِنْ يَدَي. دَفَعْتُ ثَمَنَهَا كُلَّهُ. لَمْ يَبْقَ عَلَيَّ إِلَّا مِائَتَا دِينَارٍ فَقَطُّ.

(١٠) الدَّائِنُ الْخَبِيثُ

عَلِمَ الشَّيْخُ «الْعُكْمُوسُ» بِذَلِكَ. أَسْرَعَ إِلَيَّ مُتَوَدِّدًا يَسْأَلُنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْهُ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ النَّفَّة^{١٦} مِنْ الْمَالِ، أُوَدِّيهِ إِلَيْهِ مَتَى شِئْتُ. كُنْتُ عَلَى ثِقَةٍ مِنَ الْوَفَاءِ بِدِينِهِ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ. لَمْ يَطْلُ تَرَدُّدِي فِي قَبُولِ اقْتِرَاحِهِ. دَهَمَنِي الْحَرِيقُ. عَكَسَ آمَالِي. لِلْمَرَّةِ الْأُولَى أُعْجِزُ عَنِ الْوَفَاءِ، فِي حَيَاتِي. هَا أَنْتَ ذَا: سَمِعْتَ قَبْلَ دُخُولِكَ مَا قَالَهُ — فِي غَيْبَتِي — غَرِيمِي الشَّيْخُ «الْعُكْمُوسُ»: ذَلِكَ الدَّائِنُ الْقَاسِي الَّذِي لَا يَرْحَمُ». قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَنْ كَانَ لَهُ مِثْلُ يَقِينِكَ وَإِيمَانِكَ، وَصَرِّكَ وَإِحْسَانِكَ، لَا يَخْذُلُهُ اللَّهُ، وَلَا يَتْرُكُ مَعُونَتَهُ وَلَا يَنْسَاهُ.»

^{١٤} أَقْتَرَضَ.

^{١٥} الْبَيْعَةُ.

^{١٦} الْيَسِيرُ.

(١١) صُورَةُ مُرْعَجَةٍ



فُتِحَ بَابُ الدَّارِ فَجَاءَ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ!

أَطْلَّ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ أَصْلَعُ، بَارِزُ الْوَجْنَتَيْنِ، تَدَدَلَى فَوْقَ عَيْنَيْهِ الْخَضِرَاوَيْنِ أَهْدَابُ شُقُرٍ. يَنْفَرِجُ فُوهُ^{١٧} عَنْ ابْتِسَامَةٍ ثَقِيلَةٍ، مَمْلُوءَةٍ خُبْنًا وَمَكْرًا. فِي أَسْفَلِ وَجْهِهِ تَدَلَّتْ لِحْيَةٌ مَخْرُوطَةٌ دَقِيقَةٌ، كَأَنَّمَا اسْتَعَارَهَا مِنْ مَاعِزٍ. لَهُ سَاقَانِ، كَأَنَّهُمَا — لِطُولِهِمَا وَنَحَافَتِهِمَا — سَاقَا نَعَامَةٍ. لَهُ قَدَمَانِ كَأَنَّهُمَا قَدَمَا بَقَرَةٍ. لَهُ ظَهْرٌ كَأَنَّهُ ظَهْرُ جَمَلٍ!

هَذِهِ صُورَةُ «الْخَوَّارِ» — كَمَا قَرَأْتَهَا فِي مُذَكَّرَاتِ «جَحَا» — أَنْقُلْهَا إِلَيْكَ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ — لِأَرْسَمَ لَكَ صُورَةً وَاضِحَةً الْقِسَمَاتِ لَذَلِكَ الْجَارِ السَّمِيعِ، الَّذِي دَفَعَهُ

^{١٧} فمه.

حَقْدُهُ عَلَى جَارِهِ «أَبِي الْغُصَنِ» إِلَى إِحْرَاقِ بَيْتِهِ دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ، تَارِكًا جَوَارَهُ قَبْلَ أَنْ يُحْرِقَ بَيْتَهُ بِیَوْمٍ وَاحِدٍ.

(١٢) حَدِيثُ «الْخَوَّارِ»

قَالَ «الْخَوَّارُ» بِصَوْتِ أَجَشٍّ، مُتَقَطِّعٍ مُنْكَرٍ: «كَيْفَ أَنْتُمْ، أَيُّهَا الصَّحَابُ؟ مَا شَاءَ اللَّهُ! طَيِّبَ اللَّهُ زَادَكُمْ. لَكِنْ خَبَّرَنِي، يَا «أَبَا الْغُصَنِ»: كَيْفَ عَثَرْتَ عَلَى هَذَا الطَّعَامِ الْفَاحِرِ؟ إِنِّي أَهْنُكَ بِهِ! كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّكَ سَتَمُوتُ جُوعًا أَنْتَ وَأَوْلَاذُكَ وَزَوْجَتُكَ. أَنَا حَزِينٌ عَلَى دَائِنِكَ «الْعُكْمُوسِ». لَهُ اللَّهُ، يَا أَخِي! شَدَّ مَا سَوَّاتَ حَالَهُ، بَعْدَ أَنْ سَلَبْتَهُ مَالَهُ!»

(١٣) خَوْفُ الصَّغِيرَيْنِ

رَأَى الصَّغِيرَانِ «الْخَوَّارَ» أَمَامَهُمَا. بَدَأَ الْخَوْفُ عَلَيْهِمَا. أَخْفَيَا رَأْسَيْهِمَا فِي ثَوْبِ أُمِّهِمَا، هَرْبًا مِنْ صَوْتِهِ الْمُرْجِعِ الْكَرِيهِ.

(١٤) فَرْعُ «الْخَوَّارِ»

حَاوَلَ «الْخَوَّارُ» أَنْ يَتِمَادَى فِي سُخْرِيَّتِهِ. التَّقَتَّ عَيْنَاهُ الْخَضِرَاوَانِ بَعَيْنَيَّ «أَبِي شَعْشَعٍ» الزَّرْقَاوَيْنِ.

كَأَنَّمَا التَّقَتَّ عَيْنًا فَأَرِ بَعَيْنَيَّ قِطًّا! دَبَّ الرُّعْبُ فِي مَفَاصِلِ «الْخَوَّارِ». انْعَقَدَ لِسَانُ الْجَبَانِ مِنَ الْخَوْفِ. انْتَضَمَتِ الرُّعْشَةُ مِنْ فَرْطِ الرُّعْبِ. كَأَنَّمَا كَانَتْ نَظْرَةُ «أَبِي شَعْشَعٍ» تَيَّارًا كَهْرَبِيًّا، انْبَعَثَ مِنْ عَيْنَيْهِ إِلَى عَيْنَيَّ «الْخَوَّارِ»، عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ سَابِقَةٍ بَيْنَهُمَا.

اشْتَدَّ بِهِ الْخَوْفُ. عَقَدَ لِسَانَهُ الدُّعْرُ، أَصَابَتْهُ قُشْعَرِيرَةٌ. لَمْ يَجِدْ — فِي غَيْرِ الْفِرَارِ — خَلَاصًا وَلَا مَهْرَبًا مِنْ ذَلِكَ الْمَازِقِ الَّذِي رَجَّ بِنَفْسِهِ فِيهِ. أَغْلَقَ الْبَابَ. أَسْرَعَ مُوَلِّيًا مَدْعُورًا. حَيَّلَ إِلَى الْحَاضِرِينَ أَنَّ حُمَّى صَرَغَتْهُ، أَوْ أَفْعَى لَدَعَتْهُ.

(١٥) فِرَارُ الْجَبَانِ

جَمَجَمَ^{١٨} «أَبُو شَعْشَعٍ» غَاضِبًا: «يَا لَهُ مِنْ مُعْتَدٍ جَبَانٍ!»
 قَالَ «جَحْوَانُ» لـ «جُحَيْةَ»: «ذَهَبَ الْعِفْرِيُّ الْإِنْسِيُّ. ذَهَبَ إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.»
 أَجَابَتْهُ «جُحَيْةٌ»، وَهِيَ تَخْتَلِسُ النَّظَرَاتِ، لِيَتَحَقَّقَ مِنْ ذَهَابِ «الْخَوَّارِ»: «صَدَقْتَ،
 يَا أَخِي: ذَهَبَ الْعِفْرِيُّ. الْحَمْدُ لِلَّهِ.»

(١٦) حَاكِمُ الْمَدِينَةِ

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَا أَشَدَّ صَفَاقَةَ هَذَا الْجَبَانِ! مَا بِالْكُفِّ لَا تَرْفَعُونَ أَمْرَهُ إِلَى حَاكِمِ
 الْمَدِينَةِ؟»
 لَمْ يَتِمَّالِكْ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنْ أَغْرَقَ فِي الضَّحِكِ.
 أَقْبَلَ عَلَى ضَيْفِهِ يَقُولُ: «لَوْلَا ظُلْمُ الْحَاكِمِ وَمُحَابَاتُهُ، لَمَا امْتَدَّتْ يَدُ «الْخَوَّارِ» بِالْأَذَى
 وَالْإِسَاءَةِ إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ.»

(١٧) كَرَمُ الْفَقِيرِ

اعْتَذَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِضَيْفِهِ «أَبِي شَعْشَعٍ» عَنْ حَقَارَةِ الْبَيْتِ.
 قَاطَعَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ»، قَالَ: «إِنَّ الْقَلِيلَ الَّذِي يَبْذُلُهُ الْفَقِيرُ، خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الَّذِي يَبْذُلُهُ
 الْغَنِيُّ! الْأَوَّلُ يَجُودُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ، عَلَى حِينٍ يَجُودُ الْآخَرُ بِمَا لَا يُحْسُ
 فَقْدَانَهُ، وَلَا يُبَالِي ضَيَاعَهُ.»
 ظَلَّ «أَبُو الْغُصْنِ» وَصَاحِبُهُ يَسْمُرَانِ ...

(١٨) نَوْمٌ هَنِئٌ

بَسَطَ اللَّيْلُ عَلَى الْمَدِينَةِ جَنَاحَيْهِ الْكَبِيرَيْنِ.

^{١٨} نطق ولم يُبَيَّن.

جَا فِي بِلَادِ الْجَنِّ

أَعَدَّتْ «رَبَابَةٌ» حُرْمًا مِنْ قَشِّ الدُّرَّةِ، لِيَنَامَ عَلَيْهَا صَاحِبُ الدَّارِ وَضَيْفُهُ الَّذِي اشْتَعَلَ رَأْسُهُ شَيْبًا، فَأَكْسَبَهُ ذَلِكَ مَهَابَةً وَجَلَالًا.

اسْتَسْلَمَا لِلرَّقَادِ هَانِئَيْنِ. أَنْسَتُهُمَا لَذَّةُ الْكَرَى مَا مَرَّ بِهِمَا مِنْ أَحْدَاثِ الزَّمَنِ وَمَصَائِبِهِ، وَمُدْهِشَاتِ الدَّهْرِ وَعَجَائِبِهِ!

أَقَامَتْ «رَبَابَةٌ» لَوْلَدَيْهَا؟ «جَحْوَان» وَ«جُحَيَّة» أَرْجُوحَةً جِيءَ بِهَا مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ، كَانَا يَصْطَحِبَانِهَا فِي أَسْفَارِهِمَا وَرِحْلَاتِهِمَا. أَسْرَعَ الطِّفْلَانِ إِلَيْهَا لِيَنَامَا فِيهَا. لَوْ رَأَيْتُهُمَا؛ لَخِيلَ إِلَيْكَ — لَوْفَرَةٍ نَشَاطِهِمَا، وَصَغَرِ جِسْمَيْهِمَا — أَنَّكَ تَرَى قَرْدَيْنِ صَغِيرَيْنِ.

اشْتَبَكَتْ أَذْرُعُهُمَا، لِيَنْدِمَجَا فِي الْأَرْجُوحَةِ الصَّغِيرَةِ لِكَيْ تَتَسَّعَ لِنَوْمِهِمَا. جَلَسَتْ «رَبَابَةٌ» عَلَى خَشَبَةٍ صَغِيرَةٍ أَمَامَ الْأَرْجُوحَةِ. طَفِقَتْ تَهْزُهَا فِي رَفْقٍ وَانْتِظَامٍ.

ظَلَّتْ تُغْنِي طِفْلَيْهَا، بِصَوْتٍ يَفِيضُ حَنَانًا وَحُبًّا:

نَامَا — حَبِيبَيَّ — نَامَا	وَاسْتَقْبِلَا الْأَحْلَامَا
نُورًا وَحُسْنًا وَرَوْضًا	مُعْطَرًّا بِسَامَا
تَخَايَلِ الْوَرْدُ عُجْبًا	وَفَتَحَ الْأَكْمَامَا
وَالطَّيْرُ أَنْشَدَ لَحْنًا	فَأَبْدَعَ الْأَنْغَامَا

* * *

نَامَا — حَبِيبَيَّ — نَامَا	وَاسْتَقْبِلَا الْأَحْلَامَا
نَامَا هَنِئًا، وَقَوْمَا	مَعِي، إِذَا الطَّيْرُ قَامَا
عِيشًا بِأَسْعَدِ عَيْشٍ	رَغَادَةً وَسَلَامَا
سِنِينَ عَشْرًا، وَزِيدَا	عَامًا، وَتِسْعِينَ عَامَا
وَنِصْفَ عَامٍ، وَشَهْرًا	وَنِصْفَ شَهْرٍ تَمَامَا
وَبَعْدَهُ أُسْبُوعًا	نَزِيدُهُ أَيَّامَا
وَسَاعَةً مِنْ نَهَارٍ	تَمَتُّعًا وَاغْتِنَامَا
تَتَلَوْ دَقَائِقَ عَشْرًا	هَنَاءَةً وَابْتِسَامَا
زَادَتْ ثَوَانِي خَمْسًا	تَسْرُّ قَوْمًا كِرَامَا

وَأَتْبَعَاهَا ثَلَاثًا ثَوَالِثًا، ثُمَّ نَامَا

عَلَى هَذِهِ الْأُغْنِيَةِ الْمُبْدَعَةِ الْجَمِيلَةِ نَامَ الطُّفْلَانِ.
نَامَتِ «رَبَابَةٌ» عَلَى أَثَرِهِمَا، وَنَامَ كُلُّ مَنْ فِي الدَّارِ.

الفصل الثالث

العُكْمُوسُ

(١) دَقَّاتُ عَنِيفَةٍ

انْجَلَى اللَّيْلُ. بَدَتْ تَبَاشِيرُ الصَّبَاحِ.
تَوَالَتْ — عَلَى الْبَابِ — دَقَّاتُ عَنِيفَةٍ، أُيْقِظَتْ كُلُّ مَنْ فِي الْبَيْتِ. عَرَفَ «أَبُو الْغُصْنِ»
زَائِرَهُ مِنْ أَسْلُوبِ تِلْكَ الطَّرَقَاتِ.

(٢) الزَّائِرُ الْكَرِيمُ

نَهَضَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِاسْتِقْبَالِ زَائِرِهِ. فَتَحَ الْبَابَ.
مَا أَبْشَعُهُ مَنْظَرًا! سَحْنَةٌ مُفْرَعَةٌ. الزَّائِرُ الَّذِي تَوَقَّعَ حُضُورَهُ، هُوَ بِعَيْنِهِ. لَا أَحَدَ
سِوَاهُ.
شَيْخٌ هَرِمٌ، طَاعِنٌ فِي السَّنِّ. أَسْرَفَتْ أَدْنَاهُ فِي الطُّولِ. تَجَاوَزَتْ كُلَّ حَدِّ مَالُوفٍ. كَانَتْ
تَهْطِطَانُ وَتَرْتَفِعَانِ.
تَبَا لَهُ مِنْ زَائِرٍ بَغِيضٍ! لَهُ الْوَيْلُ! إِنَّهُ «الْعُكْمُوسُ»!

(٣) صَوْتُ نَاهِقٍ

لَوْ رَأَيْتَهُ، وَهُوَ وَقِفٌ بِجَنْبِ عِضَادَةِ^١ الْبَابِ! لَوْ سَمِعْتَهُ، وَهُوَ يُحْيِي «أَبَا الْغُصْنِ» تَحِيَّةَ
الصَّبَاحِ!

^١ العضادة: جانب العتبة.

جُحَا فِي بِلَادِ الْجِنِّ

إِذْنُ خَوْفِكَ وَفَزَعِكَ، وَرَعْبِكَ وَرَوْعِكَ. إِذْنُ خَيْلٍ إِلَيْكَ أَنَّكَ تَسْمَعُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِنَهْيِ
الْجِمَارِ، مِنْهُ بِصَوْتِ الْإِنْسَانِ!

كَانَ مِنْ غَرَائِبِ الْإِتِّفَاقِ أَنْ يَنْطَبِقَ لَقَبُ «الْعُكْمُوسِ» عَلَى صَاحِبِهِ، وَيَصْدُقَ اسْمُهُ عَلَى
مُسَمَّاهُ!

تَسْأَلُنِي: مَاذَا أَغْنِي؟ إِلَيْكَ بَيَّانَ مَا غَمَضَ: أَهْلُ الْيَمَنِ يُطْلِقُونَ عَلَى الْجِمَارِ:
«الْعُكْمُوسَ». أَرَأَيْتَ كَيْفَ جَاءَ اللَّقَبُ مُعَبَّرًا عَنْ صَاحِبِهِ؟
لَوْ سَمِعْتَ «الْعُكْمُوسَ»، وَهُوَ يُطَالِبُ «أَبَا الْغُصْنِ» بِمَا أَقْرَضَهُ مِنْ دَيْنٍ! إِذْنُ
أَزْعَجَكَ صَوْتُهُ وَمَرَّاهُ.

مَثَلٌ لِنَفْسِكَ جِمَارًا أَتَاكَ لَهُ مُعْجَزَةٌ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ أَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ. مَثَلٌ لِنَفْسِكَ هَذَا
الْجِمَارَ، وَهُوَ يُؤَدِّي عِبَارَاتِهِ بِلَهْجَةِ جِمَارِيَّةٍ نَاهِقَةٍ!
مَثَلٌ لِنَفْسِكَ أَنَّكَ تَسْمَعُهُ، وَهُوَ يَنْطِقُ بِالْجُمْلَةِ الْآتِيَةِ: «هَانَ. هَانَ...! أَيْنَ الْمَائَتَانِ؟
دَنَانِيرِي الْمَائَتَانِ؟»
الْيَسَ مَنْظَرًا يَدْعُو إِلَى الضَّحِكِ، كَمَا قُلْتَ لَكَ؟!

هَكَذَا صَنَعَ «الْعُكْمُوسُ». رَفَعَ أَذُنَيْهِ الطَّوِيلَتَيْنِ، أَدَارَهُمَا صَوْبَ «أَبِي الْغُصْنِ».
كَانَتْ أَذُنُ «الْعُكْمُوسِ» تُخَيِّلُ لِمَنْ يَرَاهَا أَنَّهَا قَمْعٌ، أَوْ شَيْءٌ شَدِيدُ الشَّبهِ بِالْقَمْعِ!
رَفَعَ «الْعُكْمُوسُ» أَذُنَيْهِ؛ كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَلَّا تَفُوتَهُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، مِمَّا يَقُولُهُ غَرِيمُهُ «أَبُو
الْغُصْنِ»، رَدًّا عَلَيْهِ.

(٤) دَائِنٌ لَا يَزَحِمُ

أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ، كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» — كَمَا حَدَّثْتُكَ — يُعَانِي أَرْمَةً شَدِيدَةً. لَمْ يَبْقَ
لَهُ الْحَرِيْقُ مَالًا وَلَا مَتَاعًا. كَانَ إِعْسَارُهُ حَائِلًا دُونَ أَدَاءِ مَا عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ، فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ
السُّودِ.

لَعَلَّكَ تَخَيَّلْتَ جَوَابَ «أَبِي الْغُصْنِ».
لَسْتُ أَشْكُ فِي أَنَّ ذَكَاءَكَ هَذَاكَ إِلَى ذَلِكَ!

كَانَ مُضْطَرًّا إِلَى رَجَاءٍ دَائِنِهِ أَنْ يُوجَلَ سَدَادَ دِينِهِ، رَيْثَمَا تَزُولُ الْغُمَّةُ، وَتَنْفَرِحُ الْأَرْمَةُ.
كَانَ غَرِيمُهُ عَنِيدًا قَاسِيًا. قَلْبُهُ يَفِيضُ حَقْدًا عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ»؛ لَا يَعْزِيهِ أَنْ
يَحْصُلَ عَلَى دِينِهِ، قَدَرَ مَا يَعْزِيهِ أَنْ يَتَشَقَّى بِتَعْذِيبِ غَرِيمِهِ. لَا عَجَبَ إِذَا رَفَضَ رَجَاءَ
«أَبِي الْغُصْنِ»، وَأَبَى أَنْ يُؤَخَّرَ الدَّيْنَ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ.



لَا عَجَبَ إِذَا انْبَعَثَتْ مِنْ حَنْجَرَتِهِ صَيْحَةٌ مُنْكَرَةٌ نَاهِقَةٌ: «هَانُ. هَانُ! لَا تُمَاطِلْ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — فِي أَدَاءِ الدِّينِ!»

(٥) مَذْدُوبُ الْقَاضِي

كَانَ «الْعُكْمُوسُ» — كَمَا رَأَيْتَ — مُتَحَفِّزًا لِلإِنْتِقَامِ. لَمْ يَفُتْهُ أَنْ يَصْطَحِبَ مَذْدُوبَ الْقَاضِي إِلَى دَارِ «أَبِي الْغُصْنِ».

قَالَ لِلْمَذْدُوبِ نَاهِقًا: «هَلُمَّ، أَيُّهَا السَّيِّدُ الْحَازِمُ. حَذَارِ أَنْ تَتَرَدَّدَ فِي أَدَاءِ وَاجِبِكَ. نَفَّذَ حُكْمَ الْقَاضِي، فِي غَيْرِ تَرَاحٍ وَلَا تَهَاوُنٍ.»

شَرَعَ الْمَذْدُوبُ فِي أَدَاءِ مُهِمِّهِ: أَحْصَى مَا سَلِمَ مِنَ الْحَرِيقِ، مِنْ مَتَاعِ الدَّارِ. كَتَبَ مَا أَحْصَاهُ فِي سِجِلٍّ.^٢ أَمَرَ بِنَقْلِهِ، تَمْهِيْدًا لِبَيْعِهِ.

أَدْرَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنَّ الرَّحْمَةَ لَنْ تَجِدَ إِلَى قَلْبِ دَانِنِهِ سَبِيلًا.

مَاذَا يَصْنَعُ؟

أَسْلَمَ أَمْرَهُ لِخَالِقِهِ. لَمْ تُفَارِقْهُ شَجَاعَتُهُ وَابْتِسَامَتُهُ، وَثِقَتُهُ بِالْفَوْزِ عَلَى كُلِّ حَالٍ. لَمْ يَفُتْهُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ. جَلَسَ صَامِتًا عَلَى مَقْعَدِ خَشَبِيٍّ صَغِيرٍ، يَنْظُرُ لِمَا يَجْرِي أَمَامَ عَيْنَيْهِ. لَكِنْ رَوَّجَتْهُ «رَبَابَةٌ» لَمْ تَفْقِدِ الْأَمَلَ. بَذَلَتْ جُهِدَهَا فِي اسْتِعْطَافِ «الْعُكْمُوسِ». تَوَسَّلَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَتِمَّهَلَ. تَعَهَّدَتْ لَهُ بِأَدَاءِ الدِّينِ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ.

خَيَّبَ «الْعُكْمُوسُ» ظَنَّنَهَا. أَصَمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ سَمَاعِ رَجَائِهَا. لَمْ يَكُنْ حَظُّهَا مِنْهُ، بِأَسْعَدَ مِنْ حَظِّ رَوَّجِهَا.

لَمْ يَلِنْ قَلْبُهُ الْقَاسِي لِرَجَائِهَا. أَدْلَى أُذُنَيْهِ إِلَى عُقْبِهِ. رَكَزَ انْتِبَاهُهُ فِي مُرَاقَبَةِ مَذْدُوبِ الْقَاضِي، وَمُرَاجَعَةِ مَا يَكْتُبُ.

^٢ دفتره.

(٦) عِنَادُ الْحَاقِدِ

كَانَ «أَبُو شَعْشَعٍ» يَرْقُبُ مَا يَدُورُ فِي يَقْظَةٍ وَانْتِبَاهٍ. اعْتَصَمَ بِالصَّبْرِ. لَمْ يَفْهَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ.

الْتَفَتَ «أَبُو شَعْشَعٍ» إِلَى «الْعُمُوسِ». قَالَ لَهُ مُتَرْفِّقًا: «أَتَأْتُنِي يَا سَيِّدِي — أَنْ أَوْجَّهَ إِلَيْكَ سُؤلاً؟»

قَالَ «الْعُمُوسُ»، فِي زَهْوٍ وَخِيَلَاءٍ: «مَاذَا تُرِيدُ؟»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «هَلِ اسْتَأْذَنْتَ الْقَاضِيَّ فِي بَيْعِ الْأَثَاثِ؟»

أَجَابَهُ «الْعُمُوسُ»: «هَآنُ. هَآنُ! أَمَامَكَ مَدْنُوبُ الْقَاضِي. أَلَا يَكْفِيكَ ذَلِكَ؟ أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ مَدْنُوبَ الْقَاضِي يُغْنِي إِذَا غَابَ الْقَاضِي؟! مَا حَاجَتُنَا إِذَنْ إِلَى اسْتِئْذَانِ الْقَاضِي. مَا دُمْنَا قَدْ ظَفَرْنَا بِمَدْنُوبِهِ؟»

أَرَادَ «أَبُو شَعْشَعٍ» أَنْ يَنْبِي «الْعُمُوسَ» عَنْ رَأْيِهِ. لَمْ يَقْبَلِ «الْعُمُوسُ» أَنْ يَعْدِلَ عَنْ تَنْفِيدِ رَأْيِهِ الْخَاطِئِ. تَمَادَى فِي غِيهِ. أَصَرَ عَلَى عِنَادِهِ.

ظَهَرَ الْغَضَبُ عَلَى وَجْهِ «أَبِي شَعْشَعٍ». أَغْلَظَ الْقَوْلَ لِصَاحِبِهِ، تَوَعَّدَهُ وَتَهَدَّدَهُ، أَنْذَرَهُ بِعَاقِبَةِ وَخِيمَةٍ.

هَذَا «الْعُمُوسُ» بِمَا سَمِعَ. لَمْ يُبَالِ وَعِيدَهُ وَلَمْ يَخْشَ تَهْدِيدَهُ.

(٧) سَرِيرُ الطُّفْلَيْنِ

أَشَارَ «الْعُمُوسُ» إِلَى سَرِيرِ الطُّفْلَيْنِ الصَّغِيرَيْنِ. قَالَ لِمَدْنُوبِ الْقَاضِي: «هَآكَ سَرِيرًا خَشَبِيًّا مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ. لَا تَنْسَ أَنْ تُدْرِجَهُ فِي سَجَلِ الْمِيعَاتِ.»

اغْتَاظَ «جَحْوَانُ» مِمَّا سَمِعَ. كَانَ لَا يَزَالُ رَاقِدًا إِلَى جَانِبِ أُخْتِهِ «جُحَيَّةَ» فِي تِلْكَ الْأَرْجُوحةِ الَّتِي اتَّخَذَهَا سَرِيرًا لِنَوْمِهِمَا.

شَافَ مِغْرَفَةً بِالْقُرْبِ مِنْهُ. تَنَاولَ الْمِغْرَفَةَ بِيَمْنَاهُ. هَوَى بِهَا عَلَى رَأْسِ «الْعُمُوسِ». أَصَابَتْ الْمِغْرَفَةُ أُذُنَهُ الْيُسْرَى.

(٨) غَضَبُ «الْعُكْمُوسِ»

تَمَادَى «الْعُكْمُوسُ» فِي وَعِيدِهِ. تَعَالَى صِيَاخُهُ. اشْتَدَّ غَضَبُهُ. كَانَ صَوْتُهُ أَشْبَهَ بِالْهَيْبِقِ مِنْهُ بِالصُّرَاخِ!
ارْتَسَمَ الْحُزْنُ عَلَى وَجْهِ «أَبِي شَعْشَعٍ». لَمْ يَتِمَّالِكْ أَنْ قَالَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ! وَقَعَ الشَّرُّ الَّذِي كُنَّا نَحْذَرُهُ وَنَحْشَاهُ!»
كَانَ صَوْتُ «الْعُكْمُوسِ» يَتَهَدَّجُ غَضَبًا وَهُوَ يَقُولُ: «الْوَيْلُ لَكُمْ مِمَّا تَفْعَلُونَ. سَتَذْفَعُونَ ثَمَنَ اعْتِدَائِكُمْ عَلَيَّ غَالِيًا. سَتَرَوْنَ مَا يَحِلُّ بِكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَاضِي. هَيَّهَاتَ أَنْ تُفْلِتُوا مِنْ عِقَابِهِ!»

(٩) حَوَارُ صَاخِبُ

كَادَ «أَبُو شَعْشَعٍ» يَخْرُجُ عَنْ هُدُوءِهِ. اشْتَدَّ بِهِ الْغَيْظُ مِمَّا رَأَى وَسَمِعَ. انْتَفَتَ إِلَى «الْعُكْمُوسِ» سَاخِرًا. قَالَ لَهُ فِي تَهَكُّمٍ مَرِيرٍ: «عَلَى رِسْلِكَ، أَيُّهَا النَّاهِقُ الْعَزِيزُ! مَا أَجْدَرَكَ أَنْ تُمَسِّخَ جِمَارًا!»
انْدَفَعَ «الْعُكْمُوسُ» صَاخِبًا مُزْمَجِرًا. خَتَمَ وَعِيدَهُ قَائِلًا: «سَتَرَى كَيْفَ أَنْتَقِمُ مِنْكَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». سَتَرَى كَيْفَ أَبِيعُ كُلَّ مَا فِي بَيْتِكَ. لَنْ أَتْرُكَ لَكَ شَيْئًا؛ حَتَّى هَذَا الْكُرْسِيِّ الَّذِي تَجْلِسُ عَلَيْهِ».

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «لَا تَنْسَ أَنْ تَأْخُذَ مَعَكَ الْمَذُودَ!»^٣

قَالَ «الْعُكْمُوسُ»: «سَتَعْلَمُ صِدْقَ مَا أَقُولُ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»! سَيَكُونُ هَذَا الْيَوْمَ آخِرَ عَهْدِكَ بِالنَّوْمِ عَلَى فِرَاشِكَ الْوَثِيرِ. لَنْ تَنَامَ — أَنْتَ وَأُسْرَتُكَ، بَعْدَ الْيَوْمِ — عَلَى غَيْرِ التُّبْنِ، كَمَا تَنَامُ الْمَاشِيَةُ!»

قَاطَعَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ» سَاخِرًا: «مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَسْتَبْقِيَ التُّبْنَ لِنَفْسِكَ، أَوْ تَبِيعَهُ إِذَا اسْتَعْنَيْتَ عَنْ أَكْلِهِ!»
كَانَتْ نُكْتَةً بَارِعَةً أَصَابَتْ الصِّمِيمَ.

^٣ المذود: ما يكون فيه علف الحيوان.

أُرْتَجَ عَلَى «الْعُمُوسِ». لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ. أَسْرَعَ بِالْخُرُوجِ غَاضِبًا.

(١٠) نَصِيحَةُ «رَبَابَةَ»

ابْتَهَجَ الطِّفْلَانِ لِهَزِيمَةِ «الْعُمُوسِ». حَاوَلَ «جَحْوَانُ» أَنْ يُظْهِرَ شِمَاتَتَهُ بِـ «الْعُمُوسِ»، الَّذِي جَاءَ يَسْلُبُهُ سَرِيرَهُ. أَمَرَتْهُ «رَبَابَةُ» أَنْ يَكْفَ عَنِ الْكَلَامِ. قَالَتْ لَهُ: «الْأَطْفَالُ الْمُؤَدَّبُونَ لَا يَنْطِقُونَ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا يَتَحَدَّثُونَ إِلَّا بِمَعْرُوفٍ!»

(١١) قُدُومُ «رُبَيْدَةَ»

الْتَفَتَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى صَيفِهِ. شَكَرَ لَهُ دِفَاعَهُ وَنُصْرَتَهُ، وَمُرُوءَتَهُ وَنَجْدَتَهُ. كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» يَعْلَمُ أَنَّ انتِقَامَ «الْعُمُوسِ» مِنْهُ سَيَكُونُ بَاطِشًا عَنيفًا. مَاذَا يَصْنَعُ «أَبُو الْغُصْنِ»؟ لَا حِيلَةَ لَهُ فِي ذَلِكَ. سَلَّمَ أَمْرُهُ لِلَّهِ.

قَدِمَتْ «رُبَيْدَةُ». لَمْ تَفْتَحْهَا رُؤْيَا «الْعُمُوسِ»، وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ بَيْتِ «أَبِي الْغُصْنِ». كَانَ مَنظَرًا عَجَبًا! كَانَ يَهْزُ أَدْنِيَهُ الطَّوِيلَتَيْنِ. كَانَ الذُّهُولُ وَالْحَيْرَةُ يَرْتَسِمَانِ عَلَى سِيمَاهُ.^٤ عَجِبَتْ «رُبَيْدَةُ» مِمَّا رَأَتْ. سَأَلَتْ «رَبَابَةَ» عَنْ جَلِيَّةِ الْأَمْرِ. أَخْبَرَتْهَا «رَبَابَةُ» بِمَا حَدَثَ.

(١٢) رَجَاءُ صَادِقُ

الْتَفَتَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى «رُبَيْدَةَ» قَائِلًا: «مَا دُمْتُ رَجَعْتُ إِلَيْنَا، آيَتْهَا الْجَارَةُ الْكَرِيمَةُ، فَإِنِّي أَرْجُو مِنْكَ أَنْ تَبْقَى — مُتَفَضِّلَةً — مَعَ زَوْجَتِي وَوَلَدَيَّ، لِتَهَوِّنِي عَلَيْهِمْ بَعْضَ مَا لَقُوا مِنَ الْأَلَامِ وَالْمَحَنِ، رَيْثَمَا أَعُودُ. إِنَّ قَلْبِي لَيَحْدُثُنِي: أَنَّ فَرَجَ اللَّهِ قَرِيبٌ.

^٤ ملامحه.

جُحَا فِي بِلَادِ الْجِنِّ

سَأْمُشِي فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ ° — كَمَا أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ — سَعْيًا لِالْتِمَاسِ الرِّزْقِ. لَعَلَّ اللَّهَ
يَهْدِينِي إِلَى فِكْرَةٍ نَاجِحَةٍ تُبَدِّلُ مِنْ عُسْرِي يُسْرًا. لَنْ يُخَيِّبَ اللَّهُ مُخْلَصًا — فِي سَعْيِهِ —
أَبَدًا.»

قَالَ لَهُ الْجَمِيعُ: «صَحَبَتَكَ عِنَايَةُ اللَّهِ وَتَوْفِيقُهُ.»

(١٣) خَارِجَ الْمَدِينَةِ

خَرَجَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي صُحْبَةِ ضَيْفِهِ «أَبِي شَعْشَعٍ». وَاصَلَ السَّيْرَ حَتَّى جَاوَزَا الْمَدِينَةَ،
ثُمَّ أَسْلَمَهُمَا السَّيْرُ إِلَى الْخَلَاءِ!

° أَرْجَائُهَا وَنَوَاحِيهَا.

الفصل الرابع

مِصْبَاحُ الْكَنْزِ

(١) الْمِفْتَاحُ الذَّهَبِيُّ

غَمَرَتِ الشَّمْسُ بِنُورِهَا السُّهُولَ الْمُنْبَسِطَةَ وَالرَّوَابِيَّ^١.
ظَلَّ الصَّدِيقَانِ يَتَحَدَّثَانِ حَتَّى بَلَغَا سَفْحَ الْجَبَلِ. التَّفَتَّ «أَبُو شَعْشَعٍ» إِلَى «أَبِي
الْغُصْنِ» مُتَظَاهِرًا بِالذَّهْشَةِ. قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «أَيُّ شَيْءٍ مَا أَرَى؟»
نَظَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» تَحْتَ قَدَمَيْهِ، رَأَى مِفْتَاحًا مِنَ الذَّهَبِ!
قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «لَعَلَّهُ مِفْتَاحُ كَنْزٍ، سَاقَهُ إِلَيْكَ حَظُّكَ السَّعِيدُ!»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لَدَيَّ كَنْزٌ مِنَ الْقَنَاعَةِ لَا يَفْنَى! حَسْبِي أَنْ أَبِيعَ هَذَا الْمِفْتَاحَ،
لَأُدْفَعَ بِثَمَنِهِ بَعْضَ مَا رَكِبَنِي مِنْ دَيْنٍ.»
قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «كَلَّا، لَا تُفَرِّطْ فِيهِ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». إِيَّاكَ أَنْ تَبِيعَهُ. مَنْ يَدْرِي!
لَعَلَّهُ مِفْتَاحُ ثَرَايِكَ.»^٢

(٢) بَابُ الْمَعَارَةِ

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» وَصَاحِبُهُ يَسِيرَانِ فِي طَرِيقِهِمَا صَوْبَ^٣ الْجَبَلِ.

^١ المرتفعات.

^٢ غناك.

^٣ نحو.

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «أَلَا تَرَى بَرِيقًا يَنْبُعُ مِنْ سَفْحِ الْجَبَلِ؟ تَرَى: أَيُّ شَيْءٍ هَذَا؟ هَلُمَّ نَذْهَبْ إِلَيْهِ لِنَتَعَرَّفَهُ.»
 دَهَشَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِمَّا رَأَى. مَشَى مَعَ صَاحِبِهِ حَتَّى بَلَغَاهُ. مَا أَعْجَبَ مَا رَأْيَاهُ!
 لَوْحٌ مِنَ الذَّهَبِ، عَلَى بَابٍ كَهْفٍ كَبِيرٍ فِي حِضْنِ الْجَبَلِ. انْعَكَسَتْ أَشْعَةُ الشَّمْسِ عَلَيْهِ.
 أَحَدَثَ انْعِكَاسُ أَشْعَتِهَا مَا رَأْيَاهُ مِنْ بَرِيقٍ.

(٣) خَاطِرُ مُلْهُمُ

عَنْ فِي ذِهْنِ «أَبِي الْغُصْنِ» الذِّكْيِ، خَاطِرٌ سَرِيعٌ. لَمْ يَتَوَانَ فِي تَحْقِيقِهِ. كَانَ ظَنُّهُ صَحِيحًا. أَبْصَرَ ثَقْبًا بِالْبَابِ عَلَى قَدِّ الْمِفْتَاحِ الذَّهَبِيِّ. فَاضَ قَلْبُهُ رَجَاءً وَثِقَةً. أَحَسَّ قُوَّةَ خَارِقَةٍ تَدْفَعُهُ إِلَى فَتْحِ الْبَابِ. وَضَعَ الْمِفْتَاحَ فِي ثَقْبِ الْقُفْلِ. سُرِعَانَ مَا انْفَتَحَ الْبَابُ.

(٤) فِي دَاخِلِ الْكَنْزِ

ابْتَسَمَ «أَبُو شَعْشَعٍ» النَّفَتَ إِلَى صَاحِبِهِ قَائِلًا: «شَدَّ مَا تَحَقَّقَ الْحُلْمُ الَّذِي رَأَيْتُهُ لَيْلَةَ أَمْسٍ! لَعَلَّهُ الْكَنْزُ الَّذِي شَهِدْتُهُ فِي الْمَنَامِ! مَا أَصْدَقَ الْأَحْلَامَ! لَا مَجَالَ لِلتَّرَدُّدِ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ» هَلُمَّ فَادْخُلْ عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ.»
 لَمْ يَتَرَدَّدْ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي طَاعَةِ صَاحِبِهِ. أَسْرَعَ بِالدُّخُولِ. أَغْلَقَ بَابَ الْكَنْزِ، دُونَ أَنْ يُغْلِقَهُ أَحَدٌ.

(٥) حَيْرَةُ «أَبِي الْغُصْنِ»

عَجِبَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِمَّا حَدَثَ. اتَّجَهَ إِلَى صَاحِبِهِ يَسْأَلُهُ عَمَّنْ أَغْلَقَ الْبَابَ. لَمْ يَسْمَعْ جَوَابَ سُؤَالِهِ. تَلَفَّتْ يَبْحَثُ عَنْ صَاحِبِهِ. لَمْ يَجِدْ لَهُ أَثَرًا. اشْتَدَّ عَجْبُهُ. تَذَكَّرَ أَنَّهُ نَسِيَ مِفْتَاحَ الْكَنْزِ فِي قُفْلِ الْبَابِ، مِنَ الْخَارِجِ.

مِصْبَاحُ الْكُنْزِ

سَاوَرَتْهُ الْحَيْرَةُ. اشْتَدَّ بِهِ الْحَرَجُ. كَيْفَ الْخَلَاصُ؟ كَيْفَ يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْمَأْزِقِ؟ لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ. أَصْبَحَ الْكُنْزُ لَهُ سِجْنًا؟ ظَلَامٌ حَالِكٌ يَغْمُرُ الْكُنْزَ! تَرَى مَاذَا يَصْنَعُ؟

(٦) حَارِسُ الْكُنْزِ

مَشَى «أَبُو الْغُصْنِ» بِضَعِ خُطَوَاتِ.



شَبَحُ^٥ قَادِمٌ عَلَيْهِ. عِمْلَاقُ طَوَّالٌ. حَيَّةٌ هَائِلَةٌ تَلْتَفُّ حَوْلَ الْعِمْلَاقِ. أَيُّ شَبَحٍ مُرْجِحٍ هَذَا؟!

«أَبُو الْغُصْنِ» — كَمَا تَعْلَمُ — شَجَاعٌ. وَاثِقٌ بِاللَّهِ، مُطْمَئِنٌّ إِلَى قَضَائِهِ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ. لَمْ يَجِدِ الْخَوْفَ إِلَى قَلْبِهِ سَبِيلًا. لَمْ تَذْهَبْهُ الْمَفَاجَأَةُ. لَمْ يَفْقَدْ شَيْئًا مِنْ شَجَاعَتِهِ. لَمْ تَتَفَكَّكْ أَوْصَالُهُ^٦. لَمْ يَطِرْ قَلْبُهُ مِنَ الرُّعْبِ شَعَاعًا^٧. غَيْرُ «أَبِي الْغُصْنِ» يَتَمَلَّكُهُ الْفَزَعُ، وَيَسْتَبِدُّ بِهِ الْجَزَعُ.

(٧) عَوْدَةُ الْمِفْتَاحِ

جَرَى «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى مَالُوفٍ عَادَتِهِ فِي مُجَابَهَةِ الْخُطُوبِ. لَمْ يَفَارِقْهُ تَبَاتُهُ وَرَبَاطَتُهُ جَأْشُهُ. ابْتَدَرَ الْعِمْلَاقُ بِالنَّحِيَّةِ، بِاسْمِ الثَّغْرِ.

دَهَشَ الْعِمْلَاقُ مِمَّا رَأَى. لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ يُعْجَبَ بِشَجَاعَةِ «أَبِي الْغُصْنِ»، وَصَدَّقَ إِيمَانَهُ. هَشَّ لَهُ وَبَشَّ. رَدَّ تَحِيَّتَهُ بِأَحْسَنَ مِنْهَا. رَحَّبَ بِقُدُومِهِ أَيَّمَا تَرْحِيْبٍ. قَالَ الْعِمْلَاقُ: «أَلَا تَذْكُرُ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»، أَنَّكَ نَسِيتَ مِفْتَاحَ الْكَنْزِ فِي الْقِفْلِ!»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لَمْ أَنْسَهُ، يَا سَيِّدِي لَكِنَّ الْبَابَ أَغْلَقَ دُونَ أَنْ يُغْلِقَهُ أَحَدٌ. لَمْ يَكُنْ لِي يَدٌ فِي إِغْلَاقِهِ..»

قَالَ الْعِمْلَاقُ: «لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى الْخُرُوجِ، بَعْدَ فَقْدَانِ الْمِفْتَاحِ. كَادَ الْكُفْهُفُ يُصْبِحُ سَجْنًا لَكَ! إِنَّ أَسْتَازِي «أَبَا شَعْشَعٍ» لَمْ يَفْتَهُ ذَلِكَ. أَذْرَكَ حَرَجَ مَوْقِفِكَ بَعْدَ فَقْدَانِ الْمِفْتَاحِ. أَشْفَقَ عَلَيْكَ. لَمْ يَشَأْ أَنْ تَطُولَ حَيْرَتُكَ. أَمَرَنِي أَنْ أُعِيدَ الْمِفْتَاحَ الذَّهَبِيَّ إِلَيْكَ.

^٥ شخص.

^٦ أعضاؤه.

^٧ أجزاء متفرقة.

(٨) حَيَّةُ الْكَنْزِ

كَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّكَ أَنَّ حَيَّةَ الْكَنْزِ عَثَرَتْ عَلَيْهِ. مَا إِنْ عَثَرَتِ الْحَيَّةُ عَلَيْهِ، حَتَّى أَسْلَمَتْهُ إِلَى أَسْتَاذِنَا «أَبِي شَعْشَعٍ». مَا إِنْ تَسَلَّمَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ»، حَتَّى أَمَرَنَا بِتَسْلِيمِ الْمِفْتَاحِ إِلَيْكَ. هَا هِيَ ذِي حَيَّةِ الْكَنْزِ تُحْيِيكَ، وَتُلْقِي إِلَيْكَ بِمِفْتَاحِ الْكَنْزِ. نَحْنُ جَمِيعًا لِأَمْرِ أَسْتَاذِنَا «أَبِي شَعْشَعٍ» سَمِيعُونَ، وَلِإِشَارَتِهِ مُطِيعُونَ. أَتَمَّ الْمَارِدُ كَلَامَهُ. قَذَفَتْ حَيَّةُ الْكَنْزِ بِالْمِفْتَاحِ مِنْ فِيهَا. لِقَفَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» شَاكِرًا مَسْرُورًا. اسْتَحَفَّتِ الْحَيَّةُ وَالْمَارِدُ عَنْ نَظَرِيهِ فِي الْحَالِ.

(٩) عَاقِبَةُ الصَّبْرِ

أَحَسَّ «أَبُو الْغُصْنِ» إِحْسَاسًا خَفِيًّا أَنَّهُ قَادِمٌ عَلَى سَعَادَةٍ عَظِيمَةٍ ... سَعَادَةٍ لَمْ يَكُنْ لِيَحْلُمَ بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلُ. كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى ثِقَةٍ مِنَ الْيُسْرِ بَعْدَ الْعُسْرِ. كَانَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِ — عَلَى صَبْرِهِ — الْجَزَاءَ الْأَوْفَى، بَعْدَ أَنْ تَنَكَّرَ لَهُ الزَّمَانُ، وَهَرَبَ مِنْهُ الْأَصْحَابُ وَالْخِلَآنُ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ — مِنْ مَصَائِبِ الْحَرِيقِ وَالْدِّينِ وَالْفَاقَةِ — صُنُوفٌ وَأَلْوَانٌ. كَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّهِ أَنَّهُ شَجَاعٌ. لَا يَسْتَسْلِمُ لِلْيَأْسِ. كَانَ مِنْ أَسْبَابِ سَعَادَتِهِ أَنَّهُ يَلْقَى أَحْدَاثَ الدَّهْرِ بِصَدْرِ رَحِيْبٍ، وَيَتَحَمَّلُهَا بِصَبْرِ عَجِيبٍ وَأَمَلٍ لَا يَخِيبُ. كَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَإِذَا صَبَرْتَ لِجَهْدِ نَازِلَةٍ فَكَأَنَّهُ مَا مَسَكَ الْجُهْدُ!

كَانَ عَلَى حَقٍّ. لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ بِهِ خَيْرًا، لَمَا أَلْهَمَهُ الصَّبْرَ عَلَى الْمَكَارِهِ. طَالَمَا سَمِعَ: أَنَّ الصَّبْرَ مِفْتَاحُ الْفَرَجِ. هَا هِيَ الْحِكْمَةُ الصَّادِقَةُ تَتَحَقَّقُ. هَا هُوَ ذَا يَعْتُرُّ عَلَى الْمِفْتَاحِ الذَّهَبِيِّ فِي أَشَدِّ سَاعَاتِهِ حَرَجًا. كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» يُؤْمِنُ بِالصَّبْرِ إِيْمَانًا عَجِيبًا. كَانَ يَرَى فِيهِ جُمَاعَ الْفَضَائِلِ.

طَالَمَا قَالَ لِنَفْسِهِ: «إِنَّ الْعَقْلَ هُوَ أَكْبَرُ مَا مَيَّرَ اللَّهُ بِهِ الْإِنْسَانَ عَلَى الْحَيَوَانِ. وَأَعْظَمُ مَا شَرَّفَهُ عَلَى جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ. مَا أَجْدَرَ الْعَقْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِالْمُبْدِعِ الْعَجِيبِ، وَيَصْنَعَ الْمُعْجَزَ الْغَرِيبَ! لَكِنَّ الْعَقْلَ — مَعَ جَلَالِ خَطَرِهِ — رُبَّمَا وَقَفَ حَائِزًا أَمَامَ مُشْكَلَةٍ مِنَ الْمَشَاكِلِ، وَتَحَيَّرَ إِزَاءَ كَارِثَةٍ لَا يُجْدِي فِيهَا إِلَّا الْإِسْتِسْلَامُ لِقَضَاءِ اللَّهِ وَالرَّضَى بِمَا قَدَّرَهُ. هُنَا يَتَوَاضَى بِالصَّبْرِ. سُرْعَانَ مَا يَتَجَلَّى فَضْلُ الصَّبْرِ مُعِينًا وَهَادِيًا: يَغْمُرُ النَّفْسَ. يُبَدِّدُ الْيَأْسَ، يُذْهِبُ الْحَيْرَةَ وَالْقَلَقَ، وَيُجَلِّ مَكَانَهُمَا السَّكِينَةَ، وَالْأَمْنَ وَالطَّمَأْنِينَةَ. بَعْدَ حِينٍ، تَنْجَلِي الْأَزْمَةَ، وَتَنْكَشِفُ الْغَمَّةُ. تَمُرُّ الْعَاصِفَةُ الْعَاتِيَةُ، وَتَنْتَصِرُ النَّفْسُ الرَّاضِيَةُ!»

(١٠) بَصِيصٌ مِنَ النُّورِ

أَفَاقَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ تَأْمُلِهِ. أَلْفَتْ عَيْنَاهُ ظِلَامَ الْكُهْفِ، كَمَا أَلَفَ قَلْبُهُ — مِنْ قَبْلُ — ظِلَامَ الْمَصَائِبِ وَالْخُطُوبِ. أَذْرَكَ أَنَّهُ وَقَفَ فِي قَاعَةٍ فَسِيحَةٍ، تَنْتَهِي إِلَى رُوقٍ، يَنْبُعُثُ مِنْ أَحَدِ أَرْكَانِهِ بَصِيصٌ مِنَ نُورٍ.

تَوَجَّهَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى الرُّوْقِ أَدْهَشَهُ اتِّسَاعُ جَنَابَتِهِ، وَانْفَسَاحُ بَاحَاتِهِ.^٨ حَيَّلَ إِلَيْهِ — لِرَحَابَتِهِ — أَنَّهُ يَمْتَلِئُ أَمَلُهُ فِي الْحَيَاةِ وَرَجَاءُهُ. أَرَادَ أَنْ يَتَعَرَّفَ نِهَايَةَ الرُّوْقِ. وَاصَلَ السَّيْرَ دُونَ أَنْ يَظْفَرَ بِبُعْيَتِهِ. تَلَفَّتَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً. أَبْصَرَ رُوقًا ثَانِيًا. دَخَلَ الرُّوْقَ الثَّانِي. انْتَهَى بِهِ الرُّوْقُ الثَّانِي إِلَى ثَلَاثِ حُجَرَاتٍ فَسِيحَةٍ.

دَخَلَ أُولَاهَا: وَجَدَهَا مُخَمَّسَةَ الرُّوَايَا.

دَخَلَ الثَّانِيَةَ: وَجَدَهَا مُسَدَّسَةَ الرُّوَايَا.

(١١) مَصْدَرُ الضُّوءِ

دَخَلَ الثَّالِثَةَ: رَأَاهَا مُسَبَّعَةَ الرُّوَايَا.

رَأَى فِيهَا نُورًا سَاطِعًا تَشَعُّ أَضْوَاؤُهُ عَلَى سَائِرِ الْحُجَرَاتِ الْمَمْلُوءَةِ بِنَفَائِسِ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَاللَّائِلِي الْيَتِيمَةِ.

^٨ ساحاته.

الآن اهْتَدَى إِلَى مَصْدَرِ النُّورِ الَّذِي يُرْسِلُ أَضْوَاءَهُ إِلَى أَبْهَاءِ الْكَنْزِ وَحُجَرَاتِهِ؛ كَمَا يُرْسِلُ الرَّجَاءُ أَضْوَاءَهُ إِلَى النَّفْسِ، فَيُنِيرُ جَنَابَاتَهَا، وَيُبَدِّدُ ظُلُمَاتَهَا، وَيَعْمُرُ الْقَلْبَ، فَيَبْدُدُ الشَّقَاءَ وَالْكَرْبَ.

(١٢) مِصْبَاحُ الْكَنْزِ

سَارَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِيمًا^٩ النُّورِ.

انْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى رَفٍّ عَلَيْهِ مِصْبَاحٌ، مُتَنَاهٍ فِي الصَّغْرِ. إِذَا أَطْبَقْتَ عَلَيْهِ كَفَّكَ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَثَرٌ! كَانَ الْمِصْبَاحُ الصَّغِيرُ لَا يَزِيدُ عَلَى دُرَّةٍ نَفِيسَةٍ مِنَ الْمَاسِ، تَنْبَعُثُ مِنْ جَنَابَاتِهَا أَشْعَةُ بَاهِرَةِ السَّنَا،^{١٠} مُؤْتَلِقَةً الْأَنْوَارِ. كَانَتْ أَضْوَاءُ الْمِصْبَاحِ الصَّغِيرِ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِمَا نَرَاهُ مِنْ أَضْوَاءِ شَتَى فِي قَوْسِ قَرْحٍ.

(١٣) قَوْسُ قَرْحٍ

أَتَذْكُرُ قَوْسَ قَرْحٍ؟

أَلَمْ تَرَهُ، وَهُوَ يَلْمَعُ فِي السَّمَاءِ — بِشَتَى أَلْوَانِهِ — عَقَبَ الْمَطَرِ، ثُمَّ يَحْبُو^{١١} ضَوْؤُهُ فَجْأَةً، فَلَا يَتْرُكُ — مِنَ السَّنَا وَالنُّورِ — إِلَّا مَا يَتْرُكُهُ بَرِيقُ تِلْكَ الدَّرَّةِ الْيَتِيمَةِ؟

(١٤) حَدِيثُ الْمِصْبَاحِ

حُيِّلَ إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ» — مِمَّا شَاهَدَهُ فِي الْمِصْبَاحِ الصَّغِيرِ — أَنَّهُ يَنْبُضُ بِحَيَاةٍ لَا يَعْرِفُ لَهَا مَصْدَرًا، وَلَا يَذَرِي لَهَا كُنْهًا. حَيَاةٌ لَا شَكَّ فِيهَا، وَلَا مِرَاءً. سَمِعَ «أَبُو الْغُصْنِ» هَمْسًا. اقْتَرَبَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنَ الْمِصْبَاحِ. مَا أَعْجَبَ مَا حَدَّثَ! سَمِعَ الْمِصْبَاحُ يَقُولُ: «خُذْنِي، أَيُّهَا السَّعِيدُ أَنْتَ جَدِيرٌ بِي، وَأَنَا جَدِيرٌ بِكَ.»

^٩ قاصدًا.

^{١٠} شديدة اللمعان.

^{١١} ينطفئ.

اسْتَوَلَتْ الدَّهْشَةُ عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ». كَادَتْ تُسْلِمُهُ إِلَى الدُّهُولِ. كَادَ لَا يُصَدِّقُ مَا يَرَاهُ وَيَسْمَعُهُ.

بَعْدَ قَلِيلٍ زَايَلَتْهُ الْحَيْرَةُ. عَاوَدَتْهُ رَبَاطَةُ جَأْشِهِ ١٢ الَّتِي لَمْ تُفَارِقْهُ طُولَ عُمْرِهِ قَطُّ. لَمْ يَتَرَدَّدْ وَلَمْ يَخَفْ. أَرَادَ أَنْ يَحْسِمَ الظَّنَّ. أَمْسَكَ بِتِلْكَ الدَّرَّةِ النَّفِيسَةِ. مَا إِنْ لَمَسَتْهَا يَدُهُ، حَتَّى سَمِعَ صَوْتَ الْمِصْبَاحِ يَقُولُ: «شَدَّ مَا أَحْسَنْتَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»! الْآنَ ظَفِرْتَ بِـ «مِصْبَاحِ الْكَنْزِ». هَنِيئًا لَكَ الظَّفَرُ بِصُحْبَتِي. سَنَظَلُّ — مُنْذُ الْيَوْمِ — صَدِيقَيْنِ مُتَحَابِّينِ، مُتَلَاذِمَيْنِ، عَلَى الْحَيَاةِ مُعَاوَنَيْنِ. سَتَحْمَدُ صُحْبَتِي، كَمَا أَحْمَدُ صُحْبَتَكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.»

(١٥) نُورُ الْمِصْبَاحِ

انْبَعَثَ مِنْ مِصْبَاحِ الْكَنْزِ شُعَاعٌ بَاهِرُ السَّنَا، تَشَعُّ أَضْوَاؤُهُ فِي جَنَابَاتِ الرُّوَاقِ، فَتَجَلَّوْا لِرَائِيهَا مَنَاطِرَ فَاتِنَةٍ بَهِيجَةٍ، لَمْ تَرَ مِثْلَهَا عَيْنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ حُسْنُهَا عَلَى قَلْبٍ!

(١٦) مَفَاتِنُ الْكَنْزِ

تَسْأَلْنِي: مَاذَا رَأَى؟

هِيَئَاتَ لِوَاصِفٍ — مَهْمَا أُوتِيَ مِنْ بَرَاعَةِ الْبَيَانِ — أَنْ يُصَوِّرَ لَكَ مَا رَأَى. كَانَ الْكَنْزُ يَحْيِي مَا لَا يَحْيِي مِنَ الْقَاعَاتِ وَالْأَرْوَاقَةِ. كَانَ الْمِصْبَاحُ الصَّغِيرُ يُضِيئُهَا جَمِيعًا. كَانَ سَنَاهُ الْبَاهِرُ يَكْشِفُ مَحَاسِنَهَا، وَيُظْهِرُ مَفَاتِنَهَا. كَانَ يَجْلُو لِلْعَيْنِ رَوَائِعَ مِنْ نُقُوشٍ حَيَاطَانِهَا، وَبَدَائِعَ مِنْ تَصَاوِيرٍ سُقُوفِهَا. كَانَ سَقْفُهَا يُخَيِّلُ لِمَنْ يَرَاهُ: أَنَّهُ سَمَاءٌ انْتَثَرَتْ فِي قُبَّتِهَا اللَّالِئُ، كَمَا تَنْثَرُ النُّجُومُ فِي قُبَّةِ السَّمَاءِ!

عَبَثًا أَحَاوَلُ أَنْ أَرْسُمَ لَكَ صُورَةً كَامِلَةً مِنْ غَرَائِبِ مَا أَبْصَرَهُ وَمُدْهَشَاتِهِ. هِيَئَاتَ ذَلِكَ هِيَئَاتِ! لَوْ حَاوَلْتُ وَصَفَ بَعْضِهِ، لَمَا بَقِيَ شَيْءٌ مِنَ الصَّفَحَاتِ لِرَوَايَةِ الْقِصَّةِ!

(١٧) حَيَاةُ التَّرَفِ

حَانَتْ مِنْهُ التِّفَافَةُ. رَأَى عَلَى مَقَرِّيَةٍ مِنْهُ أَرَاكَ مِنَ الْإِبْنُوسِ، بَارِعَةَ الصُّنْعِ؛ عَلَيْهَا وَسَائِدُ
مِنَ الْحَرِيرِ، وَرِدِيَّةُ اللَّوْنِ، مُغَطَّاءٌ بِنِفَائِسٍ مِنَ الدِّمَقِيسِ.
رَأَى جَمْهَرَةً مِنَ الشَّبَابِ، تَفِيضُ عَلَى وُجُوهِهِمُ النُّعْمَةُ، فَوْقَ الْوَسَائِدِ. كَانُوا يَبْدُونَ
لِمَنْ يَرَاهُمْ، فِي صُورَةِ الْكُسَالَى الْخَامِلِينَ، الْمُنْعَمِسِينَ فِي الرَّاحَةِ وَالتَّرَفِ. كَانُوا بَيْنَ النَّوْمِ
وَالْيَقَظَةِ يَتَنَاءَبُونَ. كَانُوا سَادِرِينَ فِي أَحْلَامِهِمْ. كَانَتْ ثِيَابُهُمْ مُزْرَكَشَةً بِالْمَاسِ.
حَانَتْ مِنْ «أَبِي الْغُصَنِ» التِّفَافَةُ. رَأَى رَجُلًا صَامِتًا يَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ صِينِيَّةً مِنَ
الْبُلُورِ، عَلَيْهَا أَكْوَابٌ مِنَ الْيَاقُوتِ الْأَزْرَقِ، مَقَابِضُهَا مِنَ الزُّمُرِدِ، مَمْلُوءَةٌ بِلَذَائِدٍ مِنَ
الْأَشْرَبَةِ؛ كَشَرَابِ التُّفَاحِ وَالْكُمُنْزَى وَالتُّرْتَالِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ.
رِيحُ الْمِسْكِ تَنْبَعُثُ فِي أَرْجَاءِ الْقَاعَةِ مِنْ مَبَاخِرِ مَصْنُوعَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ، مَصْفُوفَةٌ فِي
نِظَامٍ عَجِيبٍ، حَوْلَ أَسْرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ الْأَصْفَرِ، مُوشَّاةٍ بِاللُّوْلُؤِ وَأَصْدَافِهِ.

(١٨) هَيْكَلُ الرَّاحَةِ

دَهَشَ «أَبُو الْغُصَنِ» مِمَّا رَأَى. لَمْ يُعْجِبْهُ ذَلِكَ التَّرَفُ الَّذِي يَغْمُرُ أَوْلِيكَ الشَّبَابِ؛ فَيَحْبَبُ
إِلَيْهِمُ الرَّاحَةَ وَالْكَسَلَ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِمْ إِلَى الْفَنَاءِ.
سَأَلَ «أَبُو الْغُصَنِ»، الْمُصْبَاحُ: «أَيُّ شَيْءٍ هَذَا الَّذِي أَرَى؟»
أَدْرَكَ الْمُصْبَاحُ مَا يَدُورُ بِخَلْدِهِ مِنَ الْأَفْكَارِ. قَالَ الْمُصْبَاحُ: «هَذَا هَيْكَلُ الرَّاحَةِ! فِي
هَذِهِ الْقَاعَةِ يَتَعَذَّبُ الْمُتَرَفُّونَ الْمُتَبَطِّلُونَ. الرَّاحَةُ تُضْجِرُهُمْ، وَالْبَطَالَةُ تُمْرِضُهُمْ، هَؤُلَاءِ
يُعَذَّبُونَ بِالنَّعِيمِ، وَيَشْقَوْنَ بِالرَّاحَةِ، كَمَا يُعَذَّبُ غَيْرُهُمْ بِالشَّقَاءِ!»
حَانَتْ مِنْ «أَبِي الْغُصَنِ» التِّفَافَةُ. رَأَى أَمَامَهُ تِمْنَالًا مِنَ الْمَرَمَرِ يُمِثِّلُ الْحَظَّ. كَانَ
عَلَى صُورَةِ فَتَاةٍ مَلَائِكِيَّةٍ، جَالِسَةٍ عَلَى سَرِيرٍ مِنَ الذَّهَبِ، مُحَلًى بِأَثْمَنِ الْفُصُوصِ، وَهِيَ
جَمِيلَةٌ الْقَسَمَاتِ، صَافِيَةُ اللَّوْنِ لَيْسَ فِي جَبِينِهَا النَّقْيُ أَثَرٌ لِلتَّجْعُدِ. عَيْنَاهَا الْجَمِيلَتَانِ،
لَيْسَ فِيهِمَا شَعَاعٌ مِنَ التَّفَكِيرِ وَالْفَهْمِ، بَلْ تَدْلَانِ عَلَى بِلَاهَةٍ وَفَرَاغٍ بَالٍ. لَمْ تُؤْثِرِ السَّنُونَ
وَالْأَيَّامُ فِي جِسْمِهَا أَقْلَ تَأْثِيرٍ.



اِقْتَرَبَ مِنْهَا «أَبُو الْغُصْنِ». نَهَضَتْ إِلَيْهِ الْفَتَاةُ مُتَبَاطِئَةً. أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ مُبْتَسِمَةً.
شَخَصَتْ إِلَيْهِ بِبَصَرِهَا، كَأَنَّمَا تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ جَلِيَّةَ أَمْرِهِ. انْفَرَجَتْ شَفَتَاهَا عَنْ صَوْتٍ
رَائِعِ الْغِنَاءِ، بَارِعِ الْأَدَاءِ. رَتَّلَ تَمَثُّالُ السَّعَادَةِ الْأَنْشُودَةَ التَّالِيَةَ، أَبْدَعَ تَرْتِيلًا:

أَنَا جَلَّابُ الرَّخَاءِ	أَنَا يَنْبُوعُ الصَّفَاءِ
اسْمِي الْجَدُّ وَعِنْدِي	كُلُّ أَلْوَانِ الْهَنَاءِ
نَافِذٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ	نَاصِرٌ لِلضُّعْفَاءِ
كَمْ صَغِيرٍ، بِي أَضْحَى	هَازِنًا بِالْأَقْوِيَاءِ
وَفَقِيرٍ، عَادَ - بَعْدَ الْ	فَقْرٍ - مَوْفُورِ الثَّرَاءِ
إِنَّ لِي شَأْنًا عَجِيبًا	فِي تَصَارِيفِ الْقَضَاءِ
لَا أَبَالِي، حِينَ أَخْطُو	بِاعْوَجَاجٍ وَالتَّوَاءِ!

مِصْبَاحُ الْكُنْزِ

تَلَفَّتَ «أَبُو الْغُصْنِ» حَوْلَهُ. رَأَى تَمَائِيلَ مُبْدَعَةً مِنَ الْمَرَمْرِ، تُمَثِّلُ الشَّجَاعَةَ وَالْعَمَلَ
وَالرَّجَاءَ. كَانَتْ تُرْتِّلُ أَنَاشِيدَ رَائِعَةً. اسْتَمَعَ إِلَيْهَا وَهِيَ تُنْشِدُ:

الشَّجَاعَةُ:

أَنَا لَا أَحْفِلُ بَالًا	لَمْ شَأْنُ الْأَقْوِيَاءِ
إِنَّمَا تَصْرُخُ بِالشُّكِّ	وَيُفُوسُ الضُّعْفَاءِ
يَكْدُرُ الدَّهْرُ وَيَصْفُو	لَمْ يَنْلُ مِنْ كِبَرِيَائِي
لَا يَقُلُ الْخَطْبُ عَزْمِي	وَنَفَازِي وَقَضَائِي

الْعَمَلُ:

أَنَا لِلْخُلْدِ شِعَارٌ	أَنَا رَمْزٌ لِلْبَقَاءِ
أُلْهَبُ النَّاسَ بَعْزِمٍ	وَجِهَادٍ وَمَضَاءِ

الرَّجَاءُ:

لَيْسَ لِي أَيُّْ ابْتِدَاءٍ	لَيْسَ لِي أَيُّْ انْتِهَاءٍ
أَغْلِبُ الْيَأْسَ فَأَمْحُو	ظُلُمَاتِ بِضِيَاءِ

كَانَ أَفَاقُ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ رُقَادٍ عَمِيقٍ. كَانَمَا انْتَهَى مِنْ حُلْمٍ طَوِيلٍ. خَرَجَ «أَبُو
الْغُصْنِ» مِنَ الْقَاعَةِ. قَالَ: «كَلَّا. لَا أُحِبُّ التَّرَفَ، وَلَا أُطِيقُ الرَّاحَةَ. التَّرَفُ وَالرَّاحَةُ —
فِيمَا أَرَى — مَجْلَبَةٌ لِلشَّقَاءِ. وَدَاعِيَةٌ إِلَى الْفَنَاءِ.»

(١٩) حَدِيقَةُ الْحَيَاةِ

التَفَّتَ «أَبُو الْغُصْنِ» حَوْلَهُ. رَأَى نَفْسَهُ فِي الْحُجْرَةِ ذَاتِ الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا.
قَالَ الْمِصْبَاحُ: «سَمِعْتُكَ تَهْتَفُ بِالْحَيَاةِ. انْظُرْ أَمَامَكَ لَعَلَّكَ وَاجِدُ فِي هَذِهِ الْحَدِيقَةِ
طَلِبَتَكَ، وَبَالِغَ فَيْدِهَا أُمْنِيَّتَكَ!»

أَلْقَى الْمُضْبَاحُ نُورَهُ عَلَى الْحُجْرَةِ سَاطِعًا وَهَاجًا، يَكَادُ لَوْهَجِهِ يُذِيبُ الْجُدْرَانَ، وَيَخْتَرِقُ الْحَيْطَانَ. تَجَلَّتْ أَمَامَ «أَبِي الْغُصْنِ» فُنُونٌ مِنَ الطُّرْفِ، وَأَلْوَانٌ مِنَ الْعَجَائِبِ، لَا يُحِيطُ بِهَا الْوُصْفُ. تَبَدَّتْ أَمَامَهُ حَدِيقَةُ الْحَيَاةِ فِي أَبْهَى رُوءٍ. لَمْ يَفْتِنَهُ مَا رَأَى فِي أَرْجَائِهَا مِنْ كُنُوزِ الذَّهَبِ وَالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ. إِنَّمَا فَتَنَهُ وَسَحَرَ لُبَّهُ مَا رَأَى فِي الْحَدِيقَةِ مِنْ أَعْشَابٍ وَأَزْهَارٍ، وَأَشْجَارٍ وَأَثْمَارٍ، وَبَلَابِلٍ وَأَطْيَارٍ.

امْتَلَأَ الْمَكَانُ بِأَذْكَى الرِّوَائِحِ الْعَطِرَةِ. افْتَتَتْ الطُّيُورُ فِي تَغْرِيدِهَا عَلَى أَغْصَانِ الشَّجَرِ. امْتَزَجَ بَغْنَائُهَا خَرِيرُ الْمِيَاهِ وَهَدِيرُهَا، بَيْنَ حَشَائِشِ الْحَدِيقَةِ وَأَعْشَابِهَا. غَمَرَتِ السَّعَادَةُ نَفْسَ «أَبِي الْغُصْنِ». ذَكَرَتْهُ بِوَلَدِيهِ وَزَوْجَتِهِ. تَمَنَّى لَوْ صَحِبُوهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْفَاتِنِ الْبَهِيحِ!

(٢٠) رُؤُوسٌ وَتَمَائِيلُ

أَنْعَمَ النَّظَرُ فِي تِلْكَ الثَّمَارِ النَّاضِجَةِ ... حُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ التُّفَاحَةَ تُمَثِّلُ الْعِلْمَ. وَأَنَّ الْكُمَّثْرَى تَرْمُزُ إِلَى الصَّنَاعَةِ. وَالْكَرِيْزُ تَتَمَثَّلُ فِيهِ صُورَةُ اللُّطْفِ وَالْوَدَاعَةِ. وَعِنَبَ الثَّغْلَبِ تَتَبَعْتُ مِنْهُ ضِحْكَةَ السُّرُورِ وَالْمَرَحِ.

تَحَلَّلَ الشَّجَاعَةُ تَحْتَ قَشْرَةِ التَّيْنِ. وَالطَّيْبَةُ تَحْتَ قَشْرَةِ الْمِشْمِشِ. وَالْإِقْتِصَادُ فِي اللَّيْمُونِ الْخُلُو. وَالْإِحْسَانُ فِي الْبُرْتُقَالِ. وَجَمَالَ الْفَنِّ فِي هَيْئَةِ الْخَوْخِ. وَرَمَزَ الصَّبْرِ فِي الْبُرْقُوقَةِ. وَمَصْدَرُ الْفَصَاحَةِ فِي الْعِنَبِ. وَهَكَذَا ...!

اِحْتَوَتْ الْحَدِيقَةُ جَمِيعَ مَا تُخْرِجُهُ بِلَادُ الدُّنْيَا مِنْ أَلْوَانِ الثَّمَرِ، وَفُنُونِ الشَّجَرِ وَالزَّهَرِ، فِي جَمِيعِ الْفُصُولِ.

عَجِبَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِمَّا رَأَى. بَحَثَ عَنْ مَصْدَرِ الْأَشْجَةِ الَّتِي أَنْصَجَتْ الْأَشْجَارَ، وَفَتَحَتْ الْأَزْهَارَ، وَأَنْطَقَتْ الْأَطْيَارَ!

عَجَبَ أَيُّ عَجَبٍ! نُورٌ يَمْلَأُ الْأَرْجَاءَ. مِنْ أَيْنَ جَاءَ؟! لَا شَمْسٌ — فِي الْكَهْفِ — وَلَا سَمَاءُ!

«أَبُو الْغُصْنِ» يُسَائِلُ نَفْسَهُ مَذْهُوشًا: «تَرَى مِنْ أَيِّ كَوْكَبٍ تَنْبَعُثُ الْحَيَاةُ فِي هَذَا الْكَهْفِ الْمُقْفَلِ؟ تَرَى أَيَّ قُوَّةٍ أَنْشَأَتْ فُنُونَ هَذِهِ التَّحَفِ وَالْبَدَائِعِ، وَنَسَقَتْ أَشْثَاتَ مَا أَرَى مِنَ الطَّرَفِ وَالرَّوَائِعِ؟»

(٢١) صَوْتُ هَامِسٍ

صَوْتُ خَافِتٍ يَهْمِسُ. إِنَّهُ صَوْتُ الْمُصْبَاحِ يَقُولُ: «الْعَمَلُ. إِنَّهُ الْعَمَلُ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»! إِنَّهُ الْعَمَلُ وَحْدَهُ، لَا شَيْءَ غَيْرَهُ! لَوْلَا الْعَمَلُ لَتَعَطَّلَ كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ! لَوْلَا لَتَوَقَّفَ الْكَوْنُ عَنِ الْحَرَكَةِ، وَكَفَّ الْفَلَكَ عَنِ الدَّوَرَانِ!»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «صَدَقْتَ، يَا سَيِّدِي! إِنَّهُ الْعَمَلُ. لَا شَيْءَ غَيْرِ الْعَمَلِ. هُوَ — كَمَا تَقُولُ — مَصْدَرُ الْحَرَكَةِ. وَالْحَرَكَةُ بَرَكَةٌ، كَمَا تَقُولُ الْأَمْثَالُ الصَّادِقَةُ. لَكِنَّ التَّجَرِبَةَ عَلَّمَتْنَا أَنَّ الْعَمَلَ لَا يُجِدِي وَلَا يُؤْتِي ثَمَارَهُ، إِذَا لَمْ تُمِدَّهُ الشَّمْسُ بِحَرَارَتِهَا وَضَوْئِهَا. بِغَيْرِ الشَّمْسِ لَا تَنُمُو حَيَاةٌ وَلَا يَنْضِجُ ثَمَرٌ!»

قَالَ الْمُصْبَاحُ: «كَلَامُكَ حَقٌّ، حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا مَرَاءَ. لَمْ تَعُدْ الصَّوَابَ فِيمَا تَقُولُ. لَوْلَا الشَّمْسُ مَا كَانَ نَبَاتٌ، وَلَا عَاشَ حَيٌّ مِنَ الْكَائِنَاتِ. هَذَا، فِي عَالَمِكُمُ الْأَرْضِيِّ. أَمَّا فِي عَالَمِنَا الْعُلُويِّ — حَيْثُ نَعِيشُ — فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِنُورِ الشَّمْسِ وَلَا حَرَارَتِهَا. الْأَمْرُ عِنْدَنَا جَدُّ مُخْتَلَفٍ. شَتَّانَ بَيْنَ حَيَاتَيْنَا.

لَوْ كَانَ هَذَا الْكَهْفُ مُتَّصِلًا بِعَالَمِكُمُ الْإِنْسِيِّ، لَكَانَ كَمَا تَقُولُ. لَكِنَّهُ مُنْفَصِلٌ عَنِ عَالَمِكُمُ الْأَرْضِيِّ، مُتَّصِلٌ بِعَالَمِنَا الْعُلُويِّ؛ لِذَلِكَ يَغْمُرُهُ النُّورُ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى الشَّمْسِ.

(٢٢) فَضْلُ الْعَمَلِ

شَيْءٌ وَاحِدٌ يَجْمَعُ بَيْنَنَا، وَلَا يَسْتَعْنِي عَنْهُ أَحَدٌ. لَا تَقُومُ لَكُمْ قَائِمَةٌ — بِدُونِهِ — وَلَا لَنَا. تَشْتَرِكُ فِيهِ الْكَائِنَاتُ، وَلَا تَسْتَعْنِي عَنْهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا، وَقَوَاهَا وَأَحْجَامِهَا. تَحْتَاجُ إِلَيْنَا النَّمْلَةُ الْمُتَنَاهِيَةُ فِي الضَّالَّةِ وَالصَّغَرُ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْفِيلُ الْمُتَنَاهِي فِي الضَّخَامَةِ وَالْكَبَرِ، يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسِيُّ الْخَائِرُ الضَّعِيفُ، وَالْجِنِّي الْمَارِدُ الْعَنِيفُ. إِنَّهُ الْعَمَلُ. حَيٌّ عَلَى الْعَمَلِ. حَيٌّ عَلَى الْعَمَلِ.»

لَاذَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِالصَّمْتِ. غَرِقَ فِي بَحْرِ مَنِ التَّأْمُلِ. لَمْ يَلْبَثْ أَنْ صَحَا مِنْ تَفْكِيرِهِ الْعَمِيقِ. انْتَفَتَ إِلَى الْمُصْبَاحِ قَائِلًا: «صَدَقْتَ. صَدَقْتَ. مَا خَلَقْنَا إِلَّا لِلْعَمَلِ. لَا حَيَاةَ — لِكُلِّ مَنْ فِي الْوُجُودِ — بِغَيْرِ عَمَلٍ. حَيَّ عَلَى الْعَمَلِ. حَيَّ عَلَى الْعَمَلِ».

(٢٣) شَجَرَةُ الْفَاكِهَةِ

بَعْدَ قَلِيلٍ حَلَّ بِهِ التَّعَبُ: ظَمَأٌ^{١٣} شَدِيدٌ وَسَغَبٌ^{١٤} عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنْهُ شَجَرَةٌ دَانِيَةُ الْقُطُوفِ، مُحَمَّلَةٌ بِلَذَائِذِ الثَّمَرِ، طَعَامٌ سَائِغٌ، وَشَرَابٌ هَنِيئٌ. فِيهِمَا شَبَعٌ وَرِيٌّ. ثَمَرٌ يُغْرِيه وَيُرَاوِدُهُ. اُمْتَدَّتْ لِقُطْفِهِ يَدُهُ. مَا بَالُهُ يَقْبِضُ يَدَهُ بَعْدَ أَنْ بَسَطَهَا! مَا بَالُهُ يَتَرَجَّعُ خَائِفًا مَدْعُورًا؛ كَأَنَّمَا لَدَغَتْهُ أَفْعَى، أَوْ لَسَبَتْهُ^{١٥} عَقْرَبٌ!

كَأَدِ يَتَنَكَّبُ سَبِيلَ الْأَمَانَةِ وَالطُّهْرِ، وَيَتَرَدَّى فِي مَهَاوِي الضَّلَالَةِ وَالشَّرِّ. خَاطِرُ كَرِيمٍ طَافَ بِرَأْسِهِ، أَشَاعَ الْحِكْمَةَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ. سُرْعَانَ مَا تَيَقَّقَ ضَمِيرَهُ الْحَيُّ. أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُعَاتِبُهَا. يُسَائِلُهَا وَيُحَاسِبُهَا: كَيْفُ يَجْرُو عَلَى الطَّمَعِ فِيمَا لَيْسَ لَهُ؟

كَيْفُ يَسْتَجِلُّ لِنَفْسِهِ أَنْ يَلْمُسَ فَاكِهَةً لَمْ يَأْذَنْ لَهُ صَاحِبُهَا فِيهَا؟ أَسْرَعَ بِالْفِرَارِ وَالْهَرَبِ. حَمَدَ اللَّهَ عَلَى أَنْ يَسَّرَ لَهُ سَبِيلَ الْهُدَايَةِ، وَنَجَّاهُ مِنْ فِتْنَةِ الْغَوَايَةِ.

(٢٤) حَوْضُ الْمَاءِ

حَوْضٌ مِنَ الرُّخَامِ عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنْ «أَبِي الْغُصْنِ»: حَوْضٌ يَنْسَابُ إِلَيْهِ الْمَاءُ مِنْ نَافُورَةٍ عَالِيَةٍ. الْحَوْضُ تَكْتَنِفُهُ الْأَزْهَارُ. مَاؤُهُ الْعَذْبُ النَّمِيرُ يَتَدَفَّقُ أَمَامَ نَاضِرِيهِ. الظَّمَأُ يَكَادُ

^{١٣} عطش.

^{١٤} جوع.

^{١٥} لدغته.

يَقْتُلُهُ. قَالَ فِي نَفْسِهِ: «لِلْفَاكِهَةِ صَاحِبٌ يَمْلِكُهَا. أَمَّا الْمَاءُ فَلَيْسَ وَقَفًا عَلَى صَاحِبِهِ، بَلْ هُوَ حِلٌّ مُبَاحٌ مَبْدُولٌ لِشَارِبِهِ.»

فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، لَمْ يَتَرَدَّدْ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي الْإِذْتِمَاءِ مِنْ مَاءِ الْحَوْضِ. مَا كَانَ أَعَذَبَهُ مَاءً! قَطَرَاتٌ قَلِيلَةٌ مِنْهُ أَرْوَتْهُ. مَا إِنَّ اسْتَقَرَّتْ فِي جَوْفِهِ حَتَّى سَرَتْ فِي عُرْوِقِهِ الصَّحَّةَ، وَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِ الْعَافِيَةَ؛ وَزَايَلَتْ أَعْضَاءَهُ الْفُتُورَ وَالْوَهْنَ.

تَحَرَّكَ جِسْمُهُ الْهَامِدُ بَعْدَ يَبْسٍ. خَفَّ بَعْدَ ثِقَلٍ رَشَقٌ بَعْدَ كَلَالٍ. نَشِطَ بَعْدَ كَسَلٍ. صَحَّ بَعْدَ سَقَمٍ. قَوِيَ بَعْدَ ضَعْفٍ. خِيلَ إِلَيْهِ أَنَّ دَمًا قَوِيًّا يَدُبُّ فِي جِسْمِهِ وَيَسْرِي فِي عُرْوِقِهِ. أَحَسَّ قُوَّةَ لَا عَهْدَ لَهُ بِمِثْلِهَا فِي طُفُولَتِهِ وَصِبَاهُ.

(٢٥) قَطَرَاتُ الْعَافِيَةِ



مَا أَسْعَدَهُ بِهَذِهِ النَّتِيجَةِ!

إِنَّ كُنُوزَ الْعَالَمِ كُلِّهَا لَا تُسَاوِي مَا أَظْفَرْتَهُ بِهِ الْقَطَرَاتُ الْعَذْبَةُ مِنْ صِحَّةٍ وَنَشَاطٍ،
وَمَا سَكَبَتْهُ فِي عُرُوقِهِ مِنْ قُوَّةٍ وَعَافِيَةٍ.
عَمَرَتِ الْبُهْجَةُ قَلْبَهُ، صَيَّحَ قَائِلًا: «مَا أَسْعَدَ الْإِنْسَانَ يَعْيشُ حَيَاتَهُ سَلِيمَ الْجِسْمِ
مُعَافَى قُوَّيًّا!»
أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُسَآئِلُهَا: «تُرَى مِنْ أَيْنَ سَرَتْ إِلَيَّ هَذِهِ الْقُوَّةُ الْمُفَاجِئَةُ؟ أَكَانَ
فِي قَطَرَاتِ الْمَاءِ الْقَلِيلَةِ سِرٌّ هَذَا التَّغْيِيرِ الشَّامِلِ الطَّارِئِ، وَمَبْعَثُ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْعَارِمَةِ
الْمُفَاجِئَةِ؟!»

(٢٦) صَوْتُ الْمُصْبَاحِ

رَنَّ فِي أُذُنِهِ صَوْتُ الْمُصْبَاحِ. اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «صَدَقْتَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»!
مَا عَدَوْتَ الصَّوَابَ. مِنْ خَصَائِصِ هَذَا الْمَاءِ أَنَّهُ يَمْنَحُ^{١٦} شَارِبَهُ أَثْمَنَ مَا يَرْجُوهُ —
فِي الْحَيَاةِ — مِنْ أَمَانِيٍّ. مِنْ عَجِيبِ مَزَايَاهُ: أَنَّهُ يُدِيمُ لِشَارِبِهِ الصِّحَّةَ وَالشَّبَابَ. مِنْ
حَسَنَاتِهِ أَنَّهُ يَقِيهِ شَرَّ الْأَمْرَاضِ وَالْعَاهَاتِ، وَيَجَنِّبُهُ شُرُورَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ. هَيْهَاتَ أَنْ
تَدْبَ الشَّيْخُوخَةُ إِلَى جِسْمِ شَارِبِهِ. تِلْكَ بَعْضُ خَصَائِصِ هَذَا الْمَاءِ الْعَجِيبِ، وَهَذِهِ بَعْضُ
مَزَايَاهُ.
بَقِيَ شَيْءٌ وَاحِدٌ أُرِيدُ أَنْ أُنبِّهَكَ إِلَيْهِ ...»

(٢٧) مُقَاطَعَةُ غَيْرِ مَقْصُودَةٍ

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» غَارِقًا فِيمَا ظَفَرَ بِهِ مِنَ السَّعَادَةِ، الَّتِي أَظْفَرَهُ بِهَا مَاءُ الْحَوْضِ
الْمَسْحُورِ.
لَهُ الْعُذْرُ إِذَا مَلَكَ عَلَيْهِ الْفَرَحُ كُلُّ نَفْسِهِ، وَأَذْهَلَهُ الْفَوْزُ عَنْ كُلِّ مَا حَوْلَهُ. لَهُ الْعُذْرُ
إِذَا غَفَلَ عَنِ الْمُصْبَاحِ، غَيْرَ عَامِدٍ.

^{١٦} يعطي.

أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ: لَوْ كُنَّا — أَنْتَ أَوْ أَنَا — مَكَانَ «أَبِي الْغُصْنِ»! تَرَى مَاذَا كُنَّا صَانِعِينَ؟ أَمَا كَانَ الْفَرْحُ يَطْغَى عَلَيْنَا — كَمَا طَغَى عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ» — فَيُنْسِينَا الْإِصْغَاءَ إِلَى بَقِيَّةِ الْحَدِيثِ الَّذِي بَدَأَهُ الْمُصْبَاحُ؟

(٢٨) أَمَلٌ وَرَجَاءٌ

أَيُّ فَوْزٍ وَأَيُّ سَعَادَةٍ أَدْرَكَ «أَبَا الْغُصْنِ»؟ مَا أَجْدَرُهُ بِمَا ظَفِرَ!
تَرَى: أَيْتَاحُ لَنَا — أَنْتَ وَأَنَا — أَنْ نَرْوَى مِنْ هَذَا الْمَاءِ الَّذِي شَرِبَ مِنْهُ «أَبُو الْغُصْنِ».

تَرَى: أَيْسْتَطِيعُ الْعِلْمُ أَنْ يَهْتَدِيَ — بَعْدَ زَمَنٍ، قَرِيبًا كَانَ أَمْ بَعِيدًا — إِلَى سِرِّ هَذَا الْمَاءِ النَّاجِعِ الشَّافِي؟

(٢٩) تَحْذِيرٌ هَامِسٌ

اسْتَعَذَبَ «أَبُو الْغُصْنِ» الْمَاءَ. سَاوَرَهُ الطَّمَعُ فِي مَزِيدٍ مِنَ السَّعَادَةِ. حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَغْتَرِفَ مِنَ الْحَوْضِ جُرْعَةً أُخْرَى.

صَوْتُ هَامِسٍ يُحَذِّرُهُ. صَوْتُ الْمُصْبَاحِ يَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ قَائِلًا: «مَا بِأَلْكَ تُصِمُّ أذُنَكَ عَنْ سَمَاعِ نَصِيحَتِي؟ مَا بِأَلْكَ تُقَاطِعُنِي؟ مَاذَا عَلَيْكَ لَوْ سَمِعْتَ بَقِيَّةَ حَدِيثِي؟!»

حَجَلَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِمَّا صَنَعَ. ابْتَدَرَ الْمُصْبَاحُ مُعْتَذِرًا عَنْ خَطِيئِهِ. اسْتَأْنَفَ الْمُصْبَاحُ قَائِلًا: «قُلْتُ لَكَ: إِنَّ شَيْئًا وَاحِدًا يَذْفَعُنِي وَاجِبِي إِلَى تَحْذِيرِكَ مِنْهُ، وَتَنْبِيهِكَ إِلَيْهِ. لَكِنَّكَ غَفَلْتَ عَنِّي. أَنَا أَلْتَمِسُ لَكَ الْعُذْرَ. لَسْتُ أَجْهَلُ أَنَّ فَرْحَكَ — بِمَا ظَفَرْتَ بِهِ — أَذْهَلَكَ عَنْ وَاجِبِ الْإِسْتِمَاعِ إِلَى نَصِيحَتِي. عَفَوْتُ عَنْكَ هَذِهِ الْمَرَّةَ. إِيَّاكَ أَنْ تَعُودَ لِمِثْلِهَا!»
أَدْرَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» خَطَأَهُ. اشْتَدَّ بِهِ الْحَجَلُ. أَسْرَعَ إِلَى الْإِعْتِدَارِ عَمَّا بَدَرَ مِنْهُ مِنْ خَطِئًا غَيْرِ مَقْصُودٍ وَلَا مُتَعَمِّدٍ.

قَالَ الْمُصْبَاحُ: «اعْلَمْ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — أَنَّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هَذَا الْحَوْضِ مَرَّةً وَاحِدَةً، تُكْتَبَ لَهُ الصَّحَّةُ وَالْعَافِيَةُ طُولَ حَيَاتِهِ. فَإِذَا شَرِبَ مِنْهُ مَرَّةً أُخْرَى، عَاجَلَهُ الْمَوْتُ وَطَوَاهُ الْفَنَاءُ!»

(٣٠) الشَّيْخُ الْفَتَى

ارْتَاعَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِمَّا سَمِعَ. رَفَعَ رَأْسَهُ مَذْهُوشًا. أَرَادَ أَنْ يُكْرِّرَ اعْتِدَارَهُ ... يَا
لِلْمُفَاجَأَةِ! مَا أَعْجَبَ مَا حَدَّثَ!
شَابُّ جَمِيلِ الطَّلَعَةِ، بَسَامُ الثَّغْرِ، غَضُّ الْإِهَابِ، مَوْفُورُ الشَّبَابِ، أَنْيْقُ الثِّيَابِ، يُقْبَلُ
عَلَيْهِ وَيُحْيِيهِ. دَهَشَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِمَّا رَأَى!
كَانَ الْقَادِمُ فِي هَيْئَةِ الْفَتَى الْوَسِيمِ. كَانَ فِي قَسِمَاتِ وَجْهِهِ الْمُشْرِقِ شَبَهُ عَجِيبٍ
يَذْكُرُهُ بِضَيْفِهِ؟ «أَبِي شَعْشَعٍ». لَيْسَ بَيْنَهُمَا مِنْ خِلَافٍ، إِلَّا فَرَقٌ مَا بَيْنَ الشَّبَابِ الْفَيَاضِ
بِالنَّشَاطِ وَالْحَرَكَةِ، وَالشَّيْخُوخَةِ الْوَاهِنَةِ الْفَانِيَةِ.
اسْتَدَّتْ حَيْرَةُ «أَبِي الْغُصْنِ». لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَقُولُ.
ابْتَدَرَهُ الْفَتَى قَائِلًا: «أَيُّ شَاغِلٍ أَذْهَلَكَ عَنْ رَدِّ التَّحِيَّةِ؟ مَاذَا يَرِيْبُكَ مِنْ أَمْرِي؟ مَا
بَالُكَ تَدِيمُ النَّظَرِ إِلَيَّ؟»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «عَجَبٌ مَا أَرَى، أَيُّ عَجَبٍ! كَيْفَ لَا تَتَمَلَّكُنِي الدَّهْشَةُ، وَتَسْتَبِدُّ
بِي الْحَيْرَةُ؟!

صُورَةُ فَيَاضَةٍ بِالْفُتُوَّةِ، زَاخِرَةٌ بِالشَّبَابِ وَالْقُوَّةِ، ذَكَرْتَنِي بِشَيْخٍ مَهَبٍ جَلِيلٍ. كَانَ
يَصْحَبُنِي مِنْذُ وَقْتٍ قَلِيلٍ. كَانَ صَاحِبِي الْعَزِيزُ، شَيْخًا طَاعِنًا فِي السَّنِّ، تَحَالَفَتْ عَلَيْهِ
الْأَمْرَاضُ وَالْعِلَلُ. أَعْجَزَتْهُ الشَّيْخُوخَةُ، وَأَضْنَاهُ الْهَرَمُ. كَانَ — فِي الْحَقِّ — أَشْبَهَ إِنْسَانٍ
بِكَ. صُورَتَكَ تُمَثِّلُهُ فِي أَوَّلِ الشَّبَابِ. صُورَتُهُ تُمَثِّلُكَ فِي نِهَايَةِ الشَّيْخُوخَةِ.»

(٣١) حَدِيثُ الْفَتَى

قَالَ الْفَتَى: «مَا أَجْدَرَكِ بِالشُّكْرِ عَلَى كُلِّ حَالٍ. لَمْ تَعُدِ الصَّوَابَ فِيمَا ظَنَنْتِ! هَيْهَاتَ أَنْ
أَنْسَى لَكَ صَنِيعَكَ الْكَرِيمَ. أَنْتَ خَاطَرْتَ بِحَيَاتِكَ لَتُنْقِذَ — مِنَ الْمَوْتِ — شَخْصًا لَا تَعْرِفُهُ.
أَتَحْسَبُ أَنَّ جَمِيلَكَ ذَهَبَ سُدًى؟! أَتَظُنُّ أَنَّ مَعْرُوفَكَ ضَاعَ بِلاَ جَزَاءٍ؟ كَلَّا، يَا صَاحِبِ. إِنَّ
أَجَرَ الْمُحْسِنِ لَا يَضِيعُ أَبَدًا. كَلَّا — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ^{١٧} بَيْنَ اللَّهِ

^{١٧} المعروف.

وَالنَّاسِ! لَا بُدَّ أَنْ يَلْقَى الْمُحْسِنُ جَزَاءَهُ مِنَ اللَّهِ. لَا بُدَّ أَنْ يَكْفَيْتَهُ عَلَى مَا بَدَلَ مِنْ جَمِيلٍ.»
قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «أَيَّ كَلَامٍ أَسْمَعُ؟ أَتَعْنِي أَنَّكَ أَنْتَ...؟»

قَالَ الشَّيْخُ: «نَعَمْ، يَا «أَبَا الْغُصَنِ». مَا عَدَوْتَ الصَّوَابَ فِيمَا ظَنَنْتَ. أَنَا مَنْ حَسِبْتُ.
«أَبُو شَعْشَعٍ»، «لَعَلَّ بَنُ دَعْدَعَ بْنِ هَدْرَشٍ» الَّذِي أَنْقَذْتَ حَيَاتَهُ لَيْلَةَ أُمْسٍ مِنَ الْغَرَقِ.
كُنْتُ أَمْرٌ بِبَلَدِكَ، لِحُسْنِ حَظِّي وَحَظِّكَ. عَرَفْتُ مَأْسَاتَكَ. أَعْجَبَنِي ثَبَاتُكَ — فِي مُوَاجَهَةِ
الْخُطُوبِ — وَشَجَاعَتُكَ. أَرَدْتُ أَنْ أُخَفِّفَ عَنْكَ بَعْضَ مَا تُعَانِي مِنْ أَلَمٍ.

عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَهَيِّئَ لَكَ الْوَسِيلَةَ لِإِدَاءِ مَا عَلَيْكَ مِنْ دَيْنٍ؛ لِتَسْتَأْنِفَ حَيَاةَ كَرِيمَةٍ،
تَسْتَرِدُّ فِيهَا مَا فَقَدْتَ مِنْ ثَرَاءٍ وَغَنَى. تَبَدَّيْتُ لَكَ — أَوَّلَ مَا تَبَدَّيْتُ — فِي صُورَةِ شَيْخٍ
هَرِمٍ، طَاعِنٍ فِي السِّنِّ. لَمْ أَغْفُلْ عَنْكَ — مُنْذُ فَارَقْتُكَ — لَحْظَةً وَاحِدَةً. لَمْ تَغْمُضْ لِي عَيْنٌ
عَنْ جِرَاسَتِكَ. ظَلَلْتُ سَاهِرًا عَلَيْكَ، دُونَ أَنْ تُبْصِرَنِي. حَرَصْتُ عَلَى أَنْ أَسْتَحْفِي عَنْكَ.
عَرَفْتُ مُرُوءَتَكَ وَصِدْقَ أَمَانَتِكَ. كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ لَنْ تَتَعَدَّى شُرْبَ الْمَاءِ لِتَرَوِيَ. ذَلِكَ
حَقٌّ لَا يُنَازَعُ فِيهِ أَحَدٌ. الْمَاءُ مَبْذُولٌ لشارِبِهِ. كُنْتُ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ يَدَكَ لَنْ تَمْتَدَّ إِلَى شَيْءٍ
مِمَّا تُنَوِّءُ بِهِ الشَّجَرَةَ مِنْ جَنِيِّ النَّمْرِ، مَا دُمْتُ لَمْ تَسْتَأْذِنْ صَاحِبَهُ فِي أَخْذِهِ.

كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ نَجَاحِكَ فِي هَذِهِ التَّجَرِبَةِ الْعَسِيرَةِ، بَعْدَ مَا شَاهَدْتُهُ مِنْ كَرِيمِ
شَمَائِكَ، وَنُبْلِ فَضَائِلِكَ. صَحَّ مَا تَوَقَّعْتُ. لَمْ يَحْبُ ظَنِّي. صَدَقَ تَأْمِيلِي فِيكَ.
لَكِنِّي بَرِعْتُ بِثِقَتِي فِي أَمَانَتِكَ، رَأَيْتُ أَنَّ أَحْتَاطَ لِلطَّوَارِيءِ. خَشِيتُ أَنْ تُصْغِيَ إِلَى
وَسْوَاسَةِ الشَّيْطَانِ. تَعَمَّدْتُ أَنْ أَكُونَ عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنْكَ. كُنْتُ مُتَحَفِّرًا لِمَنْعِكَ عَنْ قَطْفِ
الثَّمَارِ، لَوْ أَنَّكَ هَمَمْتَ بِذَلِكَ.

(٣٢) فَضْلُ الْأَمَانَةِ

شَدَّ مَا بَهَجَنِي وَأَسْعَدَنِي أَنْ رَأَيْتُكَ تَكْفُ يَدَكَ — دُونَ أَنْ يَمْنَعَكَ أَحَدٌ — عَنْ لَمْسِ مَا
هَمَمْتَ بِقَطْفِهِ مِنْ ثَمَارِ الشَّجَرَةِ! كَانَتْ ثَمَرَاتُهَا مُيَسَّرَةً لَكَ، دَانِيَةً الْقُطُوفِ. لَكِنَّكَ زَهَدْتَ
فِيهَا، وَعَرَفْتَ عَنْهَا،^{١٨} أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهَا.

^{١٨} انصرفت عنها.

كَانَ مِنْ دَوَاعِي نَجَاحِكَ وَسَلَامَتِكَ، أَنْ تَعَفَّفْتَ عَنْ ثَمَرَاتِهَا وَتَوَرَّعْتَ. هَنِئًا لَكَ مَا صَنَعْتَ. أَسْعَدْتُكَ أَمَانُتُكَ. أَنْقَذْتُكَ مِنْ شَرِّ عَظِيمٍ. إِنَّهَا «شَجَرَةُ الشَّقَاءِ»، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». ثَمَرَاتُهَا تَحْوِي كُلَّ مَا يَفِيضُ بِهِ الْعَالَمُ مِنْ بَلَاءٍ وَشَرٍّ، وَأَذِيَّةٍ وَصَرٍّ. لَمْ يَغْرِسْهَا غَارِسٌ، وَلَمْ يَزْرَعْهَا زَارِعٌ. لَمْ يَتَعَهَّدْهَا بِالسَّقْيِ سَاقٍ وَلَا بِسُتَانِيٍّ. لَمْ يُشْرِفْ عَلَى نَمَائِهَا إِنْسَانٌ. لَمْ يَفِ بِرِعَايَتِهَا كَائِنٌ كَانَ.

شَاءَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ — سُحَّانَهُ — أَنْ تَنْبُتَ وَحْدَهَا فِي عَالَمِ الْحَيَاةِ. سُحْقًا لَهَا. مَا أَتْعَسَهَا شَجَرَةً! مَا أَتْعَسَ جُنَاتُهَا، وَقَاطِفِي ثَمَرَاتِهَا.

كَمْ أَتَعَبَتِ الْمُخْلِصِينَ، وَسَمَّتِ حَيَاةَ الْكَرَامِ الْعَامِلِينَ! كَمْ بَدَلَ الْهُدَاةِ الْمُصْلِحُونَ مِنْ جُهودٍ لِاجْتِنَاتِ أَصْلِهَا؛ وَإِزَالَتِهَا مِنَ الْوُجُودِ! ظَلَّتْ — بِرَغْمِ ذَلِكَ — دَانِيَّةَ الْقُطُوفِ، مَوْصُولَةَ النُّمُو؛ فِي كُلِّ ثَمَرَةٍ مِنْ ثَمَرَاتِهَا سَمٌّ قَاتِلٌ زَعَافٌ، يَتَوَارَى فِي طَيَّانَتِهَا، وَيَكْمُنُ تَحْتَ قَشَرَتِهَا.

هَنِئًا لَكَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». مَا كَانَ أَكْرَمَ نَفْسِكَ، وَأَنْبَلَ سَجِيَّتِكَ! مَا كَانَ أَبْعَدَ نَفْسَكَ الرَّاضِيَةَ الْمَرْضِيَّةَ عَنِ الْأَثَرَةِ وَالْأَنَانِيَّةِ!

عَصَمَكَ اللَّهُ مِنَ السُّوءِ، وَنَجَّاكَ مِنَ الْأَذَى؛ بِفَضْلِ مَا أَسْبَغَ عَلَيْكَ مِنْ كَرِيمِ الْخِصَالِ وَنَبِيلِ الْخِلَالِ. قَنَاعَةً بِمَا قَسَمَ اللَّهُ. أَمَانَةً وَإِيمَانًا. صَبْرًا عَلَى مَكَارِهِ الزَّمَانِ. نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ صَابِرَةٌ، لَا تَشْعُرُ بِحَسْرَةٍ عَلَى مَا فَاتَ، وَلَا بِلَهْفَةٍ عَلَى مَا هُوَ آتٍ.

بِمِثْلِ هَذِهِ السَّجَايَا فُتِنْتُ بِكَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»، وَأَخَذْتُ نَفْسِي بِمَعَاوَنَتِكَ.

(٣٣) قَنَاعَةُ «أَبِي الْغُصْنِ»

إِنَّ ثَمَرَاتِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ — وَحْدَهَا — مُحَرَّمَةٌ عَلَيْكَ. كُلُّ مَا عَدَاَهَا — مِنَ الثَّمَرَاتِ الْأُخْرَى — مُبَاحٌ لَكَ. خُذْ مِنْهُ مَا تَشَاءُ. هُوَ حَلَالٌ لَكَ. اطْعَمْهُ لِزَيْدًا هَنِئًا. كُلُّهُ سَائِغًا مَرِيئًا. وَهَبْتُ لَكَ — مَعَ هَذِهِ الْحَدَائِقِ الْيَانِعَةِ — كُلَّ مَا يَحْتَوِيهِ الْكَهْفُ مِنْ نَفَائِسِ الْكُنُوزِ!

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» — كَمَا عَلِمْتَ — مُتَرْفَعًا، زَاهِدًا فِيمَا لَيْسَ لَهُ. لِذَلِكَ لَمْ يُرْحَبْ بِهَذَا الْعَطَاءِ الْجَزِيلِ.

(٣٤) حَيَّ عَلَى الْعَمَلِ

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «مَا بَالُ السَّيِّدِ الْجَلِيلِ «أَبِي شَعْشَعٍ» يَفْتَنُ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيَّ، وَيَغْلُو فِي مُكَافَأَتِي إِلَى هَذَا الْحَدِّ! مَا حَاجَةٌ مِنِّي إِلَى كُنُوزٍ وَنَفَائِسٍ لَمْ يَنْدُلْ فِيهَا جُهْدًا يُسَوِّغُ لَهُ الظَّفَرَ بِهَا، وَالْحُصُولَ عَلَيْهَا! كَيْفَ يَفْرَحُ بِثَرْوَةٍ لَمْ يَكْسِبْهَا بِكَدِّهِ وَعَرَقِهِ؟ هَيْهَاتَ أَنْ يَشْعُرَ بِالسَّعَادَةِ الْحَقِّ مَنْ يَدْرِكُهَا دُونَ عَنَاءٍ، وَيَمْتَلِكُهَا بِلَا تَمَنٍّ! هَيْهَاتَ ذَلِكَ هَيْهَاتَ! أَنْتَ أَعْرِفَ مِنِّي وَأَخْبِرْ. لَيْسَ فِي الْحَيَاةِ مَتَاعٌ حَقِيقِيٌّ دُونَ سَعْيٍ وَلَا عَمَلٍ. عِبْتُ كُلَّ مَا عَدَا ذَلِكَ وَهَرَاءً. هَبَاءً فِي هَبَاءٍ. رَمَادٌ يَذْرُوهُ الْهَوَاءُ.»

صَمَتَ «أَبُو الْغُصْنِ» شَيْئًا. اسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قَائِلًا: «مَنْ حُسْنِ حَظِّي أَنْ اتَّخَذْتُ الْعَمَلَ — مُنْذُ نَشَأْتُ — دَأْبِي وَعَادَتِي، وَارْتَضَيْتُهُ قَانُونِي وَشَرْعَتِي، رَأَيْتُ فِيهِ — مُنْذُ عَقَلْتُ — ضَالَّتِي وَسَلَوَتِي، وَسُرُورِي وَبَهْجَتِي، وَأُنْسِي وَلَذَّتِي. كَذَلِكَ كَانَ أَبِي مِنْ قَبْلُ. كَذَلِكَ نَشَأَنِي — عَلَى غِرَارِهِ — مُنْذُ طُفُولَتِي. وَكَذَلِكَ أَنْشَأْتُ ابْنِي وَابْنَتِي، وَمَنْ يَتْلُوهُمَا مِنْ ذُرِّيَّتِي.»

(٣٥) مَطْلَبُ يَسِيرٍ

حَسْبِي أَنْ يُعِينَنِي السَّيِّدُ الْجَلِيلُ عَلَى بِنَاءِ دَارِي وَاسْتِتْنَانِي تِجَارَتِي. عَلَيَّ — وَحْدِي — أَنْ أَسْتَرِدَّ مَا فَقَدْتُهُ بِعَوْنِ اللَّهِ وَهَمَّتِي، وَكَدْجِي وَمُتَابَرَتِي.»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «لَكَ مَا تُرِيدُ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». مَا رَأَيْتُ أَصْدَقَ مِنْكَ حُكْمًا، وَأَوْفَرَ مُرُوءَةً وَأَصْدَقَ عَزْمًا! شَأْنُ الرَّجُلِ الْحَقِّ ... يُؤَثِّرُ الْكَدَّ وَالتَّعَبَ عَلَى الرَّاحَةِ وَالتَّنَبُّلِ. يَرَى فِي عَنَاءِ الْعَمَلِ لَدَّةً يَتَضَاعَلُ بِالْقِيَاسِ إِلَيْهَا كُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ لَذَائِدٍ وَمَسَرَّاتٍ، وَمَبَاهِجٍ فَاتِنَاتٍ. يَلْتَمِسُ الْعَوْنَ مِنَ اللَّهِ، وَلَا يَعُولُ عَلَى أَحَدٍ سِوَاهُ. لَا زَالَتِ الْأَيَّامُ تَزِيدُنِي بِكَ ثَقَّةً وَإِعْجَابًا. إِنَّ كُلَّ مَا تَنَالَهُ مِنْ نَجَاحٍ — مَهْمَا عَظُمَ — قَلِيلٌ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا مَيَّزَكَ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَصَالَةٍ رَأْيٍ وَفَطَانَةٍ، وَصَبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَأَمَانَةٍ. لَكَ مَا تُرِيدُ. لَنْ أَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْعَمَلِ. لَنْ أَقْفَ فِي سَبِيلِ رَغْبَتِكَ، وَتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِكَ. خُذْ مِنْ هَذَا الْكَيْسِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَالٍ، لِتُعِيدَ بِنَاءَ بَيْتِكَ. أَمَّا تِجَارَتُكَ؛ فَإِنِّي سَاهِرٌ عَلَيْهَا وَرَاعِيهَا، وَقَانِمٌ بِجِرَاسَتِهَا وَمُتَوَلِّيَهَا.»

(٣٦) شُكْرُ وَتَقْدِيرُ

ابْتَهَجَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِمَا سَمِعَ. لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَشْكُرُ صَاحِبَهُ بَعْدَ مَا أَسَدَاهُ إِلَيْهِ مِنْ فَضْلٍ. لَمْ يَتِمَّاكَ أَنْ قَالَ: «أَنْنَى يُتَاحُ لِي أَنْ أَجِدَ السَّبِيلَ إِلَى شُكْرِكَ، عَلَى مَا بَدَلْتَ لِي مِنْ مَعُونَةٍ وَفَضْلٍ جَزِيلٍ!»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «خَيْرُ مَا تُقَدِّمُهُ إِلَيَّ مِنْ شُكْرٍ: أَنْ يُحَالَفَكَ التَّوْفِيقُ فِي عَمَلِكَ. خَيْرُ مَا يَبْهَجُنِي: أَنْ يَنْجَحَ سَعْيُكَ، وَتَعْمُرَ الْبَهْجَةُ خَاطِرَكَ. فِي سَعَادَةِ أُمْتَالِكَ — مِنَ السَّرَادَةِ الْأُمْنَاءِ، الشَّاكِرِينَ الْأَوْفِيَاءِ — انْتِصَارُ لِلْمَثَلِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْعَالِيَةِ، وَابْتِهَاجُ لِكُلِّ مَنْ يَقْدُرُ كَرِيمَ الْخِلَالِ، وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ.»

(٣٧) وَطَنُ «أَبِي شَعْشَعٍ»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «هَلْ لِي أَنْ أَطْمَعَ فِي رُؤْيَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ الْيَوْمِ؟»
لَاذَ «أَبُو شَعْشَعٍ» بِالصَّمْتِ. لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَالَ لَهُ مُتَمَهِّلًا مُسْتَأْنِيًا: «سَأُبْدِلُ إِمْكَانِي فِي تَحْقِيقِ رَغْبَتِكَ. لَا تَنْسَ أَنْ جَزِيرَةَ «الْوَقَوَاقِ» وَطَنِي. أَشْغَالِي فِيهَا تَسْتَغْرِقُ وَقْتِي كُلَّهُ. أَنَا أُرَوِّرُ هَذَا الْكَهْفَ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ، كُلَّمَا وَجَدْتُ فَسْحَةً تُتَبَّحُ لِي أَنْ أَسْتَرِيحَ قَلِيلًا مِمَّا أَكَابِدُ طَوْلَ الْعَامِ مِنْ عَمَلٍ مُنْقَلٍ مُرْهَقٍ يَسْتَدْعِيهِ وَاجِبِي، لِإِنْجَازِ مَا وَكَّلَهُ اللَّهُ إِلَيَّ مِنْ أَعْبَاءِ الْحُكْمِ فِي جَزِيرَةِ «الْوَقَوَاقِ».

(٣٨) نَائِبُ الْجَنِيِّ

سَجَدُ مَنْ يَقُومُ عَنِّي بِإِنْجَازِ مَطَالِبِكَ، وَتَحْقِيقِ رَغْبَاتِكَ. سَتَجِدُهُ أَمَامَكَ كُلَّمَا احْتَجَبَتْ إِلَيْهِ. سَتَرَى فِيهِ مُرْشِدًا وَمُعِينًا، وَصَاحِبًا وَفِيًّا أَمِينًا. إِنَّهُ «مِصْبَاحُ الْكَنْزِ» الَّذِي قَدَّمَ نَفْسَهُ إِلَيْكَ. وَعَرَضَ خِدْمَتَهُ عَلَيْكَ.»
عَقَّبَ الْمِصْبَاحُ عَلَى قَوْلِ «أَبِي شَعْشَعٍ»، قَائِلًا: «سَتَرَى — فِي قَابِلِ الْأَيَّامِ — مِصْدَاقَ مَا سَمِعْتَ، يَا أَبَا الْغُصْنِ.»

اسْتَأْنَفَ «أَبُو شَعْشَعٍ» قَائِلًا: «وَهَبْتُ لَكَ مِصْبَاحَ الْكَنْزِ؛ لِيَكُونَ عَوْنًا صَادِقًا، وَنَاصِحًا أَمِينًا. سَتَرَاهُ — كُلَّمَا احْتَجَّتْ إِلَيْهِ — طَوَّعَ أَمْرَكَ، وَرَهَنَ إِشَارَتَكَ. حَسْبُكَ أَنْ تَلْمُسَهُ بِيَدِكَ، ثُمَّ تَأْمُرَهُ بِمَا تَشَاءُ. لَنْ يَتَرَدَّدَ لَحْظَةً وَاحِدَةً فِي تَحْقِيقِ كُلِّ مَا تُرِيدُ.

(٣٩) قُوَّةُ الْمِصْبَاحِ

كُنْ عَلَى ثِقَةٍ — يَا «أَبَا الْغُصَنِ» — أَنَّنِي لَمْ أُعْطِكَ هَذَا الْمِصْبَاحَ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَثِقْتُ بِحِكْمَتِكَ، وَأُعْجِبْتُ بِشَجَاعَتِكَ، وَأَيَقَنْتُ بِتَبَصُّرِكَ وَنَزَاهَتِكَ. فِي قُدْرَتِكَ — مِنْذُ الْيَوْمِ — أَنْ تُعَاقِبَ بِهَذَا الْمِصْبَاحِ مَنْ تَشَاءُ، وَتُوَدِّبَ مَنْ تُرِيدُ. لَا تَنْسَ أَنْ كُلَّ مَا يَتِمُّ — عَلَى يَدِ الْمِصْبَاحِ — لَا سَبِيلَ إِلَى اسْتِدْرَاكِهِ إِلَّا فِي جَزِيرَةِ عَبْقَرٍ.

(٤٠) نَصِيحَةُ «أَبِي شَعْشَعٍ»

أَرَادَ «أَبُو الْغُصَنِ» أَنْ يُعَاوِدَ الشُّكْرَ. ابْتَدَرَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ» قَائِلًا: «عُدْ إِلَى بَنِيكَ — يَا «أَبَا الْغُصَنِ» — رَاشِدًا سَالِمًا، كَاسِبًا غَانِمًا. نَصِيحَتِي إِلَيْكَ أَلَّا تُطْلِعَ أَحَدًا عَلَى سِرِّكَ، وَلَا تُفْضِي لِإِنْسَانٍ بِدِخْلَتِكَ. حَذَارِ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ مَصْدَرَ فَلَاحِكَ، وَسِرَّ نَجَاحِكَ. لَا تَنْسَ الْحِكْمَةَ الْمَأْثُورَةَ: «اسْتَعِينُوا عَلَى قِضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِتْمَانِ». بِهَذَا وَحْدَهُ تَأْمَنُ مَكْرَ الْحَاقِدِينَ، وَتَسْلَمُ مِنْ كَيْدِ الْحَاسِدِينَ.

لَا تَنْسَ أَنَّ النَّجَاحَ يُثِيرُ الْعَجْزَةَ: يُوْغِرُ صُدُورَهُمْ. يُلْهِبُ أَحْقَادَهُمْ. يُغْري الْكُسَالَى الْخَائِبِينَ بِمُعَاكَسَةِ الْعَامِلِينَ النَّاجِحِينَ. سُنَّةُ اللَّهِ — فِي خَلْقِهِ — وَشَرْعَتُهُ، جَرَتْ بِهَا مَشِيئَتُهُ، وَاقْتَضَتْهَا حِكْمَتُهُ. لَا رَيْبَ أَنَّ كَيْدَ الْحَسَادِ دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ الْمَحْسُودِ، وَعُلُوُّ مَنْزِلَتِهِ. لَكِنَّ الْعَاقِلَ جَدِيرٌ أَنْ يَنْتَبِهَ إِلَى وَاجِبَيْنِ:

أَوَّلُهُمَا: أَنْ يَعْتَصِمَ بِالصَّبْرِ، فَيَحْزِمَ أَمْرَهُ، وَيَكْتُمَ سِرَّهُ.

الثَّانِي: أَنْ يُوَاصِلَ الْجِدَّ وَيَفْرُغَ لِعَمَلِهِ، دُونَ أَنْ يُلْتَفِتَ إِلَى الْوَرَاءِ؛ حَتَّى لَا يُصِيبَهُ مَا أَصَابَ طُلَّابَ الْكَنْزِ، فَيُمَسِّخَ صَخْرَةً كَمَا مُسَّخُوا.

قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «لَعَلَّكَ تُشِيرُ إِلَى طُلَّابِ الْكَنْزِ الَّذِينَ حَدَّثْتَنَا عَنْهُمْ قِصَّةً؟ عَجَائِبِ الدُّنْيَا الثَّلَاثِ!»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «لَسْتُ أَعْنِي غَيْرَهُمْ. فَكَيْفَ عَرَفْتَ سِرَّهُمْ؟!»

قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «كَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنَّ جَدِّي: «جَحْوَانَ» سَمِعَ هَذِهِ الْأُسْطُورَةَ الرَّائِعَةَ مِنْ صَدِيقِهِ «خُرَافَةَ». اشْتَدَّ بِهَا إِعْجَابُ جَدِّي. كَتَبَهَا بِيَدِهِ. أَهْدَاهَا إِلَى وَلَدِهِ: «ثَابِتٍ». اشْتَدَّ بِهَا إِعْجَابُ أَبِي. كَانَتْ مِنْ أَنْفُسِ مَا خَلَفَهُ لِي. كَانَ لِقِرَاءَتِهَا أَحْمَدُ الْأَثَرِ فِي نَفُوسِنَا جَمِيعًا. أُعْجِبَ بِهَا وَلَدَايَ وَزَوْجَتِي، كَمَا أُعْجِبْتُ بِهَا «زُبَيْدَةُ» جَارَتِي.»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مُنْذُ مِائَةِ عَامٍ، لَقِيتُ «خُرَافَةَ» كَمَا لَقِيتُكَ، وَسَقَيْتُهُ مِنْ مَاءِ الْحَوْضِ كَمَا سَقَيْتُكَ. لَقِيتُ — مِنْ قَبْلِهِ — الْقَاصَّةَ الْمُبْدِعَةَ «شَهْرَزَادَ»، وَسَقَيْتُهَا مِنْ هَذَا الْحَوْضِ الرَّوِيِّ. أَهْدَيْتُ كُلَّيْهِمَا — فِيمَا أَهْدَيْتُ — قِصَّةً: «عَجَائِبِ الدُّنْيَا الثَّلَاثِ»، تَقْدِيرًا لَهُمَا، وَإِعْجَابًا بِفَنِّيهِمَا.»

قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «كَانَ مِنْ نَكَبَاتِ الْحَرِيقِ أَنْ احْتَرَقَتِ الْقِصَّةُ، فِيمَا احْتَرَقَ مِنْ أَثَاثِ الْبَيْتِ.»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»، وَالْبَسْمَةَ لَا تُفَارِقُ شَفَنِيهِ: «لَا عَلَيْكَ، يَا «أَبَا الْغُصَنِ». سَتَرَى — عِنْدَ عَوْدَتِكَ إِلَى بَيْتِكَ — مَخْطُوطًا جَدِيدًا، بَدِيلًا مِنَ الْمَخْطُوطِ الَّذِي أَتَى عَلَيْهِ الْحَرِيقُ.»

قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «خَبِّرْنِي — يَا سَيِّدِي — كَيْفَ أَشْكُرُكَ؟»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «خَيْرُ مَا تُقَدِّمُهُ إِلَيَّ مِنْ شُكْرِ أَنْ تَنْتَفِعَ بِمَا تَحْوِيهِ تِلْكَ الْقِصَّةُ

الْفَرِيدَةُ مِنْ رَوَائِعِ الْكَلِمِ، وَنَفَائِسِ الْحِكَمِ.

لَا تَنْسَ قَوْلَ «الدَّرْوِيَشِ» لِطَالِبِ الْكَنْزِ: «إِنَّ حُسَادَكَ لَنْ يَكْفُوا عَنْ تَعْوِيقِكَ، كُلَّمَا اقْتَرَبْتَ مِنَ الْكَنْزِ تَعَلَّوْا صَبْحَائِهِمْ، مُتَأَجِّجَةً بِالْغَضَبِ صُدُورُهُمْ، تُنَادِيكَ بَيْنَ مُشْجَعٍ وَمُخْذَلٍ، وَمُحْبِذٍ وَمُعْذِلٍ، تُحَذِّرُكَ مِنْ هَوْلٍ مَا أَنْتَ قَادِمٌ عَلَيْهِ، تَارَةً تَتَوَعَّدُكَ، وَتَارَةً تَرْجُوكَ.»

حَذَارِ أَنْ تُفْصِحَ لَهَا عَنْ مَكْنُونِ سِرِّكَ، وَتَشْرَحَ لَهَا مَا خَفِيَ مِنْ أَمْرِكَ. حَذَارِ أَنْ تَعْبَأَ بِهَا، أَوْ تَأْتِبَهُ لَهَا. أَعْمِضْ عَنْهَا الْعَيْنَيْنِ. أَصِمَّ دُونَهَا الْأُذُنَيْنِ. حَذَارِ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَى الْوَرَاءِ، حَتَّى لَا تُمَسِّحَ صَخْرَةً صَمَاءً!

مَصْبَاحُ الْكَنْزِ

لَا تَنْسَ أَنَّ السَّعِيدَ السَّعِيدَ مَنْ يُصِمُّ أُذُنَيْهِ عَنْ سَمَاعِ لَغْوِهِمْ، وَالشَّقِيَّ الشَّقِيَّ مَنْ
يَحْفَلُ بِهَرَاثِهِمْ، أَوْ يَلْتَفِتُ إِلَى عَوَائِهِمْ!«
انْقُلْ حِكْمَةَ الدَّرْوِيْشِ هَذِهِ إِلَى وَلَدَيْكَ، وَإِلَى كُلِّ مَنْ تَلْقَى مِنَ النَّاسِ.»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «شُكْرًا لَكَ. أَلْفُ شُكْرٍ عَلَى مَا أَسَدَيْتَ إِلَيَّ مِنْ فَضْلٍ وَبَرٍّ.»

(٤١) الْوُقْتُ

رَنَّ فِي الْفَضَاءِ صَوْتُ رَائِعِ النَّعَمِ، فَاتِنُ الْأَدَاءِ. أَنْصَتَ إِلَيْهِ «أَبُو الْغُصْنِ» وَهُوَ يَقُولُ:

قَالَتْ الطَّيْرُ: «لَقَدْ حَلَّ الشِّتَاءُ وَاسْتَبَدَّ الْبَرْدُ، وَاشْتَدَّ الصَّقِيعُ
فَوَدَاعًا — أَيُّهَا الْغُصْنُ — وَدَاعًا سَوْفَ أَلْفَاكَ، إِذَا عَادَ الرَّبِيعُ»

* * *

قَالَتْ الْأَوْرَاقُ لِلْغُصْنِ: «وَدَاعًا أَيُّهَا الْغُصْنُ! فَقَدْ حَلَّ الشِّتَاءُ
سَوْفَ أَلْفَاكَ إِذَا مَا الطَّيْرُ عَادَتْ فِي الرَّبِيعِ الطَّلُقِ تَشْدُو بِالْغِنَاءِ»

* * *

ثُمَّ قَالَ الْوُقْتُ لِلنَّاسِ: «وَدَاعًا! إِنِّي أَنْفَسُ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ
تَرْجِعُ الْأَوْرَاقُ وَالطَّيْرُ جَمِيعًا وَأَنَا — مِنْ حَيْثُ أَمْضِي — لَا أَعُودُ!»

(٤٢) خَارِجُ الْكَنْزِ

تَوَارَى «أَبُو شَعْشَعٍ» كَمَا تَوَارَتْ مَعَهُ الْأَزْهَارُ وَالنَّمَارُ، وَحَوْضُ الْمَاءِ وَالْحَدِيقَةُ وَالْأَطْيَارُ،
وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ عَجَائِبِ الْفِرْدَوْسِ الَّذِي رَأَاهُ «أَبُو الْغُصْنِ».
سَادَ الْكَهْفَ ظِلَامٌ دَامِسٌ. عَادَ كَمَا كَانَ أَوَّلَ مَا دَخَلَهُ.

هَمَسَ «مَصْبَاحُ الْكَنْزِ» بِصَوْتٍ خَافِتٍ. قَالَ: «أَلَمْ تُدْرِكْ قِيَمَةَ الْوُقْتِ؟ مَاذَا تَنْتَظِرُ، يَا «أَبَا
الْغُصْنِ»؟ مَا حَاجَتُكَ إِلَى الْبَقَاءِ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْمُوحِشِ؟»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «صَدَقْتَ. فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى الْخُرُوجِ؟»
قَالَ لَهُ الْمَصْبَاحُ: «أَنْسِيَتِ الْمِفْتَاحَ الذَّهَبِيَّ الَّذِي أَلْقَتْ بِهِ الْحَيَّةُ إِلَيْكَ؟»

تَعَجَّبَ «أَبُو الْغُصْنِ». لَمْ يَدْرِ كَيْفَ نَسِيَ الْمِفْتَاحَ، مَعَ قُوَّةِ ذَاكِرَتِهِ. أَسْرَعَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى الْبَابِ فَفَتَحَهُ، ثُمَّ خَرَجَ.

تَذَكَّرَ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنَّهُ نَسِيَ الْمِفْتَاحَ فِي ثَقْبِ الْبَابِ دَاخِلَ الْكَنْزِ قَبْلَ خُرُوجِهِ، كَمَا نَسِيَهُ خَارِجَ الْبَابِ قَبْلَ دُخُولِهِ.

هَمَّ بِالْعُودَةِ إِلَى الْكَنْزِ، لِيَسْتَرِدَّ الْمِفْتَاحَ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ. أَقْفَلَ الْبَابُ — فِي الْحَالِ — بِغَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى مِفْتَاحٍ!

رَأَى «أَبُو الْغُصْنِ» — أَمَامَ بَابِ الْكُهْفِ — بَغْلَةً مُسْرَجَةً، مُلْجَمَةً. أَذْرَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنَّ «مِصْبَاحَ الْكَنْزِ» أَعَدَّهَا لَهُ. لَمْ يَتِمَّاكَ أَنْ يَشْكُرَ لِلْمِصْبَاحِ هَدِيَّتَهُ. رَكِبَ الْبَغْلَةَ إِلَى دَارِهِ. انْقَلَبَ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا.

الفصل الخامس

بَدْءُ السَّعَادَةِ

(١) حَدِيثُ نَفْسٍ

عَزِيزِي الْقَارِيءُ:

مَا أَحْسَبُكَ فِي حَاجَةٍ إِلَى وَصْفِ ابْتِهَاجِ «أَبِي الْغُصَنِ» حِينَ عَادَ إِلَى بَيْتِهِ — آخِرَ النَّهَارِ — مُنْتَصِرًا غَانِمًا، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ فِي صَبَاحِهِ الْبَاكِرِ مَحْزُونًا مُتَأَلِّمًا. كَانَ قَلْبُهُ يَخْفُقُ سُورًا. كَانَتْ بَغْلَتُهُ تَشْرُكُهُ فِي فَرْحِهِ، تَتَبَحَّرُ وَهِيَ تَحْمِلُهُ. تَتَرَاقَصُ فِي مَشْيَتِهَا وَفَوْقَ نَبْضَاتِ قَلْبِهِ، وَاهْتِرَازِ سَاقَيْهِ، وَتَمَائِلِ جَسْمِهِ.

قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ» لِنَفْسِهِ: «مَا أَشَوْقَنِي إِلَى لِقَائِكَ، يَا «عُكْمُوسُ»! مَا أَشَوْقَ أُذْنِي إِلَى سَمَاعِ مَا مَيَّرَكَ اللَّهُ بِهِ مِنْ نَهِيْقِ أَدَمِيٍّ، وَصَوْتِ حِمَارِيٍّ! لَا رَيْبَ أَنَّكَ سَتَسْتَرْسِلُ فِي النَّهْيَقِ، حِينَ تُبْصِرَ مَا أَفَاضَهُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ ثَرَاءٍ عَظِيمٍ، وَخَيْرٍ عَمِيمٍ.

أَيْنَ أَنْتَ، يَا «خَوَارُ» لِمَ تَرَى أَيَّ نِعْمَةٍ أَفَاضَهَا اللَّهُ عَلَيَّ؟ مَا كَانَ أَشَدَّ فَرْحَكَ لِمَا حَلَّ بِي مِنْ مَصَائِبٍ وَآلَامٍ! شَدَّ مَا يُبْرِحُ بِكَ الْحُزْنَ وَالشَّقَاءَ، حِينَ تَرَى مَا أَفَاءَهُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ رَغَادَةٍ وَسَعَادَةٍ!

(٢) شَكْوَى «رَبَابَةَ»

بَعْدَ قَلِيلٍ، اقْتَرَبَ «أَبُو الْغُصَنِ» مِنْ بَيْتِهِ. كَانَتْ بَغْلَتُهُ مِنْ طُرَفَاءِ الْجَنِّ. شَكَرَ لَهَا «أَبُو الْغُصَنِ» صَنِيعَهَا، وَهُوَ يُودِّعُهَا.

اسْتَأْنَفَ «أَبُو الْغُصْنِ» سَيْرَهُ إِلَى بَيْتِهِ. كَانَتْ زَوْجَتُهُ «رَبَابَةُ» تَتَرَقَّبُ عَوْدَتَهُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ. كَانَ قَلْبُهَا يَفِيضُ حُزْنًا وَالْأَمَّا. أَسْرَعَتْ «رَبَابَةُ» إِلَيْهِ، حِينَ لَمَحَتْهُ قَادِمًا عَلَيْهَا. رَأَاهَا تَسْتَقْبِلُهُ مَحْزُونَةً الْقَلْبِ، شَاحِبَةً الْوَجْهِ، بَاكِئَةً الْعَيْنِ. ابْتَدَرَتْهُ مُسَائِلَةً: «مَاذَا أَطَالَ غَيْبَتَكَ، وَأَخَّرَ عَوْدَتَكَ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «كَيْفَ تَقُولِينَ؟ أَتُرِينَنِي تَأَخَّرْتُ؟»
قَالَتْ «رَبَابَةُ»: «أَتَظُنُّ غَيْرَ ذَلِكَ؟ أَلَمْ تَخْرُجْ مَعَ شُرُوقِ الشَّمْسِ؟ هَا أَنْتَ ذَا تَعُودُ مَعَ غُرُوبِهَا!»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «شَدَّ مَا أَسْرَعَتْ شَمْسُ هَذَا النَّهَارِ بِالْغُرُوبِ! كَذَلِكَ تَقْصُرُ أَيَّامُ السَّعَادَةِ، وَتَطُولُ أَيَّامُ الشَّقَاءِ!»
فَرَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» يَدَيْهِ. اسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قَائِلًا: «نَعَمْ. نَعَمْ! إِنَّ فِي الْحَيَاةِ أَيَّامًا تَمُرُّ بِنَا فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ!»

قَالَتْ «رَبَابَةُ» مُتَحَسِّرَةً: تَعْنِي أَيَّامُ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ! أَيْنَ مِنْهَا تِلْكَ الْأَيَّامُ؟ مَا أَظْنُهَا تَعُودُ! لَكِنَّ أَيَّامَنَا — كَمَا تَرَى — مَلِيئَةٌ بِالشَّقَاءِ؛ فَهِيَ تَمُرُّ كَمَا تَمُرُّ الْأَعْوَامُ! أَلَا تَرَى مَا حَلَّ بِنَا مِنْ كَوَارِثٍ وَأَحْدَاثٍ؟ أَلَا تَرَى كَيْفَ أَصْبَحَ بَيْتُنَا خَالِيًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؟ حَتَّى الْأَثَاثُ الْحَقِيرُ الَّذِي سَلِمَ لَنَا بَعْدَ الْحَرِيقِ، كَانَ نَصِيبُهُ أَنْ يُبَاعَ بِالْوُكُوسِ، وَالنَّمْنِ الْبَخْسِ! أَلَا تَرَانَا فَقَدْنَا كُلَّ مَا فِي الدَّارِ؟

فَقَدْنَا الْغَالِيَّ وَالْحَقِيرَ. فَقَدْنَا بَالِيَّ الْحَصِيرِ، بَعْدَ أَنْ فَقَدْنَا نَفَائِسَ الْحَرِيرِ. ضَاقَتْ بِنَا الْحَيَاةُ! كَيْفَ نَنَامُ؟ لَمْ يَبْقَ لَنَا مِنْ فِرَاشٍ غَيْرِ الْأَرْضِ، وَلَا لِحَافٍ غَيْرِ السَّقْفِ. أَخَذَ «الْعُكْمُوسُ» كُلَّ مَا نَمْلِكُ. بَاعَهُ بِدَرَاهِمَ قَلِيلَةٍ!

(٣) مُفَاجَأَةٌ

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» يَسْتَمِعُ إِلَى قَوْلِهَا، بِاسْمِ الثَّغْرِ مُتَهَلِّلًا. شَغَلَهُ فَرَحُهُ بِمَا ظَفَرَ، عَنْ كُلِّ مَا يُحِيطُ بِهِ مِنْ مَظَاهِرِ الْبُؤْسِ وَالشَّقَاءِ. كَانَ مُطْمَئِنِّ النَّفْسِ، بِمَا أَحْرَزَهُ مِنْ فَوْزٍ وَانْتِصَارٍ. كَانَ يَفْرُكُ يَدَيْهِ مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ.

دَهَشَتْ زَوْجَتُهُ مِمَّا يَبْدُو عَلَى أَسَارِيرِ زَوْجِهَا مِنْ فَرَحٍ وَابْتِهَاجٍ. اشْتَدَّ بِهَا الْعَجَبُ، حِينَ فَاجَأَهَا بِقَوْلِهِ: «شَدَّ مَا أَحْسَنَ «الْعُكْمُوسُ» إِلَيْنَا! مَا أَجْدَرُهُ بِالنِّئَاءِ عَلَى مَا أَسَدَى

مَنْ جَمِيلٍ؟ بَلَّغْنَا الْمُنَى، بَلْ فَوْقَ غَايَاتِ الْمُنَى. أَرَاخَنَا مِنْ هَمٍّ مُقِيمٍ، وَخَلَّصَنَا مِنْ أَثَاثٍ بِأَلٍ قَدِيمٍ!

وَقَفَّتْ «رَبَابَةُ» صَامِتَةً. لَمْ تَفْهَمْ مَا يَعْنِيهِ «أَبُو الْغُصْنِ». اسْتَأْنَفَ زَوْجَهَا قَائِلًا: «أَيْنَ الْوُلَدَانِ؟ أَيْنَ «جَحْوَانُ»؟ أَيْنَ «جَحِيَّةُ»؟ أَيْنَ «جَحْوَانُ»؟ مَاذَا صَنَعَ «الْعُكْمُوسُ» بِهِمَا؟ هَلْ جَرُّوْا عَلَى الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِمَا؟»
كَانَتْ الْبُهْجَةُ طَاطِيَةً عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ»، وَهُوَ يَسْتَمِعُ إِلَى شَكَاةِ زَوْجَتِهِ. بُهْتَتْ «رَبَابَةُ» مِنْ اسْتِخْفَافِهِ بِمَا يَغْمُرُهَا مِنْ مَصَائِبٍ مُتَلَاخِجَةٍ!

أَقْبَلَتْ عَلَى نَفْسِهَا تَسَائِلُهَا: «مَاذَا خَبَلَ زَوْجِي؟! مَا بَالُهُ يَسْتَقْبِلُ الْمَاسَاةَ الْخَانِقَةَ بِالْإِغْرَاقِ فِي الضَّحِكِ؟ أَيُّ هَذَيَانِ أَصَابَ الْمُسْكِينَ؟ تَرَى هَلْ أَذْهَلْتَهُ النُّكَبَاتُ الْمُتَلَاخِقَاتُ، فَالْتَأَتِ عَقْلُهُ وَاخْتَلَطَ؟! وَارْحَمَتَاهُ لَهُ!»

لَمْ تَفْهَمْ «رَبَابَةُ» بِشَيْءٍ يَنْمُ عَلَى مَا يُسَاوِرُهَا مِنْ قَلَقٍ وَانْزِعَاجٍ. اعْتَصَمَتْ «رَبَابَةُ» بِالتَّجَلُّدِ وَالصَّبْرِ. لَمْ تَزِدْ عَلَى أَنْ قَالَتْ: «الْوُلَدَانِ فِي بَيْتِ «زُبَيْدَةَ». جَزَاهَا اللَّهُ خَيْرًا بِمَا صَنَعَتْ. أَشْفَقْتُ عَلَيْهِمَا. أَوْتَهُمَا فِي بَيْتِهَا. تَكَفَّلْتُ بِإِطْعَامِهِمَا. وَالْعِنَايَةَ بِأُمْرِهِمَا.»

نَظَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى زَوْجَتِهِ فِي حُنُوٍّ وَإِشْفَاقٍ. شَكَرَ لَهَا صَبْرَهَا وَاحْتِمَالَهَا لِمَا مَرَّ بِهَا مِنْ أَحْدَاثٍ قَاهِرَاتٍ، وَأَزْمَاتٍ عَاصِفَاتٍ. كَادَ دَمْعُ الْفَرَحِ يَجْرِي عَلَى خَدَّيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «انْتَهَى عَهْدُ الْمَصَائِبِ وَالْمَحَنِ، يَا «رَبَابَةُ». لَا بُؤْسَ بَعْدَ الْيَوْمِ وَلَا شَجَنَ. لَا شَقَاءَ — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — وَلَا حَزْنَ. طَرَقَتِ السَّعَادَةُ بَابَنَا، وَاسْتَقَرَّتْ فِي دَارِنَا!»

(٤) فَرَحُهُ «رَبَابَةُ»

نَظَرَتْ «رَبَابَةُ» إِلَى مَا جَلَبَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ مَالٍ وَفَرٍ. شَهِدَتْ مُصْداقَ مَا يَقُولُ. اشْتَدَّ فَرَحُهَا بِمَا رَأَتْ. سَأَلَتْهُ مُتَعَجِّبَةً: «مَنْ ذَا الَّذِي أَدْخَلَ السَّعَادَةَ عَلَيْنَا؟ أَيُّ نَفْسٍ كَرِيمَةٍ سَاقَهَا اللَّهُ إِلَيْنَا؟ مَنْ ذَا الَّذِي أَقْرَضَكَ هَذَا الْمَالَ؟»

(٥) فَضْلُ «أَبِي شَعْشَعٍ»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «الْمَالُ مَالُنَا، لَا يَخْصُ أَحَدًا غَيْرَنَا. لَنْ يُطَالِبَنَا أَحَدٌ بِرَدِّ دِرْهَمٍ وَاحِدٍ مِنْهُ.»

سَأَلَتْهُ «رَبَابَةُ»: «خَبَّرْنِي؟ كَيْفَ حَصَلَتْ عَلَيْهِ؟»

قَالَ: «هُوَ مَنْحَةٌ مِنْ ضَيْفِنَا «أَبِي شَعْشَعٍ» أَسَدَاهَا إِلَيْنَا جَزَاءَ مَا أَسْلَفْتُهُ مِنْ جَمِيلٍ. بَذَلَهَا مُكَافَأَةً لِي عَلَى أَنْ أَنْقَذْتُ حَيَاتَهُ مِنَ الْغَرَقِ، لَيْلَةَ أُمْسٍ.

لَمْ تَقِفْ مُسَاعَدَتُهُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ. أَضَافَ إِلَيْنَا فَضْلًا آخَرَ: مَنَحَنِي قُوَّةَ أُخْرَى. سَتَعْرِفِينَ نَبَأَهَا، مَتَى حَانَ وَقْتُهَا. لَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ الْآنَ. لَوْ تَرَكَ لِي الْأَمْرَ، أَفْضَيْتُ إِلَيْكَ بِكُلِّ شَيْءٍ. أُحِذْتُ عَلَى الْعُھُودِ وَالْمَوَاقِيعِ، أَلَا أَفْشِي — مِمَّا عَلِمْتُ — سِرًّا. حَسْبُكَ — يَا «رَبَابَةُ» — مَا سَمِعْتَ. لَا تَسْأَلْنِي أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتِ. لَا تَنْسِي الْحِكْمَةَ الْقَائِلَةَ: «مَا كُلُّ مَا يُعْرَفُ يَجِبُ أَنْ يُقَالَ، وَلَا كُلُّ مَا يَجِبُ أَنْ يُقَالَ جَاءَ أَوَانُهُ، وَلَا ...» أَكْمَلْتُ «رَبَابَةُ» الْحِكْمَةَ قَائِلَةً: «وَلَا كُلُّ مَا جَاءَ أَوَانُهُ حَضَرَ أَهْلُهُ!»

(٦) اثْنَاتُ جَدِيدٍ

رَأَى أَمَامَ الْبَابِ رَجُلَيْنِ ظَرِيفَيْنِ — فِي مِثْلِ لَوْنِ الْأَبْنُوسِ — فِي يَدِ كُلِّ مِنْهُمَا صُنْدُوقٌ صَغِيرٌ مِنْ خَشَبِ الصَّنْدَلِ. تَوَجَّهَ الرَّجُلَانِ إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ» بِالتَّحِيَّةِ. رَدَّ عَلَيْهِمَا «أَبُو الْغُصْنِ» أَحْسَنَ رَدٍّ. وَضَعَ الرَّجُلَانِ الصُّنْدُوقَيْنِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْبَابِ. قَالَ أَحَدُهُمَا: «مَرَحَى. مَرَحَى. هَا هُوَ ذَا الْأَثَاثُ. مَا أَبْدَعُهُ!»

قَالَ الْآخَرُ: «بَخ. بَخ. إِلَيْكُمَا الْبُضَائِعُ، مَا أَجْمَلُهَا!»

قَبْلَ أَنْ يَفْقُوهَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، ابْتَدَرَهُ الرَّجُلَانِ يَقُولَانِ: «حَذَارِ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». لَا نُرِيدُ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا. خَيْرٌ مَا تُسَدِّيهِ إِلَيْنَا مِنْ جَمِيلٍ: أَنْ تَقَرَّرَ عَيْنًا، وَتَنْعَمَ بَالًا. عِمَ ظَلَامًا، يَا «أَبَا الْغُصْنِ».»

تَوَارَى الرَّجُلَانِ فِي الْحَالِ.

فَرَكْتُ «رَبَابَةَ» عَيْنَيْهَا مُتَعَجِّبَةً. فَعَرْتُ^١ فَاهَا^٢ مَدْهُوشَةً. لَمْ تُدْرِكْ — مِمَّا تَرَى — شَيْئًا. لَمْ تَفْهَمْ لَهُ مَعْنَى. عَرَفَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِذِكَائِهِ مَاذَا يَعْنِي الرَّجُلَانِ. عَرَفَ — لِطُولِ اخْتِبَارِهِ — أَنَّ «أَبَا شَعْشَعٍ» صَادِقٌ فِيمَا يَقُولُ دَائِمًا. أَدْرَكَ أَنَّ صَاحِبَهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَهْزَأَ بِهِ، أَوْ يَسْخَرَ مِنْهُ. قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِزَوْجَتِهِ «رَبَابَةُ»: «سَتَرَيْنِ بَعْدَ حِينٍ، جَوَابَ مَا تَسْأَلِينَ.»

(٧) فَرَحَةُ «زُبَيْدَةَ»

قَدِمَتْ «زُبَيْدَةُ» وَمَعَهَا «جَحْوَانُ» وَ«جُحَيْثَةُ». قَالَتْ لَهُمَا «زُبَيْدَةُ» مَسْرُورَةً: «أَعَدَدْتُ الْمَائِدَةَ. هَلُمَّا إِلَى دَارِي. هِيَ لَكُمَا دَارٌ وَمَقَرٌّ، لَنْ تَبْرَحَاهَا أَوْ يَبْتَسِمَ لَكُمَا الزَّمَانُ، وَيَرْجِعَ لَكُمَا الْغِنَى كَمَا كَانَ.»

اشْتَدَّ إِعْجَابُ «أَبِي الْغُصْنِ» بِصَفَاءِ قَلْبِهَا، وَنَقَاءِ سَرِيرَتِهَا. قَالَ لَهَا: «شُكْرًا لَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ وَتَصْنَعِينَ. يَسُرُّنِي أَنْ أَقُولَ لَكَ: إِنَّ عَهْدَ السَّعَادَةِ مِنَّا قَرِيبٌ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.»

أَخْرَجَ «أَبُو الْغُصْنِ» كَيْسًا مَمْلُوءًا دَنَانِيرَ. أَفْرَعٌ فِي إِحْدَى يَدَيْ جَارَتِهِ نِصْفَ مَا فِي الْكَيْسِ، وَهُوَ يَقُولُ: «أَتَعْرِفِينَ «أَبَا شَعْشَعٍ» الَّذِي نَزَلَ ضَيْفًا عَلَيْنَا أُمْسٍ؟ شُكْرًا لَهُ. وَهَبَ لِي مِلءَ هَذَا الْكَيْسِ ذَهَبًا، لِأُعِيدَ بِنَاءَ بَيْتِي. عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ أَقْبَلُ ضَيْفَاتِكَ!»

قَالَتْ «زُبَيْدَةُ»: «مَا أَعْجَبَ أَمْرَ هَذَا الشَّيْخِ! أَهُوَ عَلَى مِثْلِ مَا وَصَفْتَ مِنَ الثَّرَاءِ؟»^٣

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَغْنَى مِنَ الْخَلِيفَةِ: رَأْسُ الْأَغْنِيَاءِ. أَكْرَمَ مِنْ «حَاتِمٍ»: رَمَزِ الْكُرَمَاءِ. أَدْنَى مِنْ «إِيَّاسٍ»: قُدُورَةُ الْأَذْكِيَاءِ. أَفْصَحُ مِنْ «سَحْبَانَ»: إِمَامُ الْفُصَحَاءِ.»

(٨) فَرَحَةُ الْوَلَدَيْنِ

رَأَى وَلَدُهُ «جَحْوَانُ» الصُّنْدُوقَيْنِ اللَّذَيْنِ أَحْضَرَهُمَا الرَّجُلَانِ.

^١ فتحت.

^٢ فمها.

^٣ الغنى.

صَاحَ «جَحْوَانُ» مُبْتَهَجًا: «يَا لَهُمَا مِنْ صُنْدُوقَيْنِ بَدِيعَيْنِ؟ هَلْ أَعْطَاكُمَا الضَّيْفُ؟»
 قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «نَعَمْ. أَرْسَلَهُمَا إِلَيْنَا هَدِيَّةً.»
 قَالَتْ «جُحَيَّةٌ»: «لِمَاذَا لَا تَفْتَحُهُمَا، يَا أَبَتَاهُ؟»
 قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لِكُلِّ شَيْءٍ زَمَنٌ وَمِيقَاتٌ. لَا تَتَعَجَّلِي الْأَشْيَاءَ قَبْلَ أَوَانِهَا. لَا تَنْسِي الْحِكْمَةَ الْقَائِلَةَ: «مَنْ تَعَجَّلَ شَيْئًا قَبْلَ أَوَانِهِ، عُوقِبَ بِحَرَمَانِهِ.»
 حَسَبْنَا الْيَوْمَ أَنْ نُمَتِّعَ أَنْفُسَنَا بِمَا هِيَأَهُ اللَّهُ لَنَا مِنْ مَبَاهِجٍ وَمَسَرَّاتٍ. جَارَتُنَا الْكَرِيمَةُ
 اخْتَارَتْنَا لَهَا ضَيْوُفًا. شُكْرًا لَهَا، شُكْرًا لَهَا. مَا أَجْدَرُنَا بِتَلْبِيَةِ دَعْوَتِهَا، وَقَبُولِ ضِيَافَتِهَا؟»

(٩) دِينَارٌ ذَهَبِيٌّ

أَعَادَ «أَبُو الْغُصْنِ» دَنَانِيرَهُ إِلَى الْكِيسِ. سَقَطَ مِنْهَا دِينَارٌ عَلَى الْأَرْضِ. انْقَضَ عَلَيْهِ
 «جَحْوَانُ»: «كَمَا يَنْقَضُ قِطٌّ عَلَى فَارٍ! ظَلَّ يَدُورُهُ أَسْرَعَ تَدْوِيرِ أَمَامَ عَيْنِي أُخْتِي: «جُحَيَّةٌ».
 لَهُ الْعُذْرُ فِي فَرَجِهِ: مَرَّتْ عَلَيْهِمَا الْأَيَّامُ السَّابِقَةُ لَمْ يَشْهَدْ فِيهَا قِطْعَةً وَاحِدَةً مِنَ
 الذَّهَبِ.

(١٠) نَوْمٌ هَنِيٌّ

ظَلَّ مُصْبَاحُ الْكَنْزِ فِي مَكَانِهِ مِنْ جَيْبِ «أَبِي الْغُصْنِ» صَامِتًا سَاكِئًا. مَا كَانَ الْمُصْبَاحُ
 لِيَتَدَخَلَ إِلَّا إِذَا جَدَّ الْجِدُّ وَاحْتَأَجَّ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى مُعَاوَنَتِهِ.
 بَعْدَ قَلِيلٍ أَحَسَّ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنَّهُ فِي حَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى الرَّاحَةِ بَعْدَ مَا لَقِيَهُ فِي يَوْمِهِ
 مِنَ التَّعَبِ. اسْتَلْقَى عَلَى الْحَصِيرِ الَّذِي أَعَدَّتْهُ «رَبَابَةُ» لِنَوْمِهِ. قَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَارْتَاحَ بِأَلْهُ.
 أَسْلَمَ عَيْنَيْهِ لِلْكَرَى مَسْرُورًا.

(١١) حَدِيثُ الْمِصْبَاحِ

الصُّبْحُ طَلَعَ. أَرْسَلَتْ شَمْسُ الصَّبَاحِ أَوَّلَ أَشْعَتِهَا الذَّهِيَّةَ عَلَى الْكُونِ. نَفَذَتْ شُعَاعَةً مِنْ ثَنَائِهَا النَّافِذَةِ. سَمِعَ «أَبُو الْغُصْنِ» صَوْتًا خَافِتًا يَهْمُسُ فِي أُذُنِهِ: «انْهَضْ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». طَلَعَ النَّهَارُ. حَسْبُكَ نَوْمًا، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». لَا تَعُوذُ نَفْسُكَ الْكَسَلَ. لَا تَسْتَسْلِمَ لِلنَّوْمِ وَالرَّاحَةِ. إِنَّهُمَا — كَمَا تَعْلَمُ — آفَةُ النَّجَاحِ، وَبَاعِثُ الْإِخْفَاقِ. انْهَضْ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — إِنْ كُنْتَ لَا تَزَالُ عَازِمًا عَلَى بِنَاءِ بَيْتِكَ وَتَنْظِيمِهِ.»

(١٢) عِتَابُ رَقِيقٍ

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» مُسْتَعْرِقًا فِي لَذِيذِ أَحْلَامِهِ. أَقْبَضَهُ هَمْسُ الْمِصْبَاحِ. تَلَفَّتَ لِيَرَى مَصْدَرَ الصَّوْتِ الَّذِي يُعَاتِبُهُ وَيُخَفِّرُهُ لِلْعَمَلِ. لَمْ يَجِدْ أَحَدًا. أَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ الرَّاحَةَ، وَيَسْتَسْلِمَ إِلَى النَّوْمِ.

عَاوَدَهُ هَمْسُ الْمِصْبَاحِ. كَانَ — عَلَى خُفْوَتِهِ — يُشْعِرُ سَامِعَهُ أَنَّهُ وَاجِبُ الطَّاعَةِ، لَا سَبِيلَ إِلَى مُخَالَفَتِهِ.

أُنْصَتَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «كَيْفَ لَا تَعْرِفُنِي، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». مَا أَسْرَعَ مَا نَسِيتَنِي. أَنَا «مِصْبَاحُ الْكَنْزِ» صَاحِبُكَ الْأَمِينُ، وَمُرْشِدُكَ الَّذِي لَا يَخُونُ. حَيَّ عَلَى الْعَمَلِ. انْهَضْ مِنْ فِرَاشِكَ. حَسْبُكَ نَوْمًا يَا «أَبَا الْغُصْنِ».»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِنَفْسِهِ: «وَيْ! إِنِّي لَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ «أَبُو شَعْشَعٍ» أَهْدَى إِلَيَّ سَبِيلًا مُطَاعًا، لَا خَادِمًا مُطِيعًا. لَكِنَّهُ — عَلَى كُلِّ حَالٍ — نَاصِحٌ أَمِينٌ، لَا يَتَوَخَّى غَيْرَ نَفْعِي وَهَدَايَتِي. لَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَاعَتِهِ، وَتَلْبِيَةِ نُصْحِهِ وَمَشُورَتِهِ.»

(١٣) بَعْدَ أَسَابِيعَ

نَهَضَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ نَوْمِهِ. بَدَأَ يَوْمَهُ بِالصَّلَاةِ وَالشُّكْرِ لِخَالِقِهِ، عَلَى مَا مَنَحَهُ مِنْ سَعَادَةٍ وَتَوْفِيقٍ. انْصَرَفَ إِلَى إِعْدَادِ الْعُمَالِ وَالصَّنَاعِ لِبِنَاءِ الْبَيْتِ عَلَى أَحْسَنِ طَرَازٍ.

بَعْدَ سِتَّةِ أَسَابِيعَ تَمَّ نِصْفُ الْبَيْتِ؛ بَرغمَ مَا بَدَلَهُ مِنْ جُهودٍ مُضْنِيَةٍ. ضَاقَ صَدْرُ «أَبِي الْغُصْنِ». كَانَ مُنَحْفَظًا لِاسْتِثْنَائِ تِجَارَتِهِ. نَدَّتْ مِنْهُ أَنَّهُ مَحْزُونٌ.
قَالَ هَامِسًا: «مَنْ لِي بِمَنْ يُرشدُنِي إِلَى وَسِيلَةٍ لِتَنْشِيطِ هَؤُلَاءِ الْعُمَالِ؛ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ مِنْ إِتْمَامِ الْبِنَاءِ؟»

(١٤) بِنَاءُ الدَّارِ

عَاوَدَهُ الصَّوْتُ الْهَامِسُ يَقُولُ: «كَيْفَ هَذَا؟ أَنْسَيْتَ «مُصْبَاحَ الْكَنْزِ»؟ لَوْ طَلَبْتَ نَصَحَهُ، لَمَا طَالَتْ حَيْرَتُكَ. لَوْ اسْتَعْنَتْ بِهِ لَأَسْعَفَكَ بِمَا تُرِيدُ.»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»؟ «مَا بِأَنَّكَ لَمْ تُخْبِرْنِي بِذَلِكَ مَا دُمْتَ قَادِرًا عَلَيْهِ؟»
قَالَ الْمُصْبَاحُ: «كَيْفَ، وَأَنْتَ لَمْ تَطْلُبْ مِنِّي شَيْئًا؟»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «هَا أَنَا ذَا أَلْتِمَسُ مِنْكَ أَنْ تَبْذُلَ جُهدَكَ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ بِأَسْرَعِ مَا تَسْتَطِيعُ.»

قَالَ الْمُصْبَاحُ: «لَبَّيْكَ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — لَبَّيْكَ. لَنْ تَرَى مِنِّي إِلَّا مَا يَسُرُّكَ.»
أَرْسَلَ الْمُصْبَاحُ أَشْعَةً نَارِيَّةً أَلْهَبَتْ نَفُوسَ الْعُمَالِ وَالصَّنَاعِ، وَمَلَأَتْهُمْ نَشَاطًا وَقُوَّةً. طَعَتْ عَلَيْهِمْ مَوْجَةً مِنَ الْحَمَاسَةِ وَالتَّقَانِي فِي الْإِخْلَاصِ. انْدَفَعُوا يَتَسَابَقُونَ — فِي الْعَمَلِ — وَيَتَنَافَسُونَ. انْهَمَكَ الْبَنَّاؤُونَ فِي إِقَامَةِ الْبِنَاءِ، وَالنَّجَّارُونَ فِي قَطْعِ الْخَشَبِ وَتَفْصِيلِهِ. أَسْرَعَ الْحَدَّادُونَ وَالنَّقَّاشُونَ وَالْمُنْجِدُونَ — وَمَنْ إِلَيْهِمْ — يُبَارِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا.
لَوْ رَأَيْتَهُمْ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ — حَسِبْتَ أَنَّكَ تَرَى خَلِيَّةَ نَحْلِ دَائِبَةٍ عَلَى الْعَمَلِ فِي نَشَاطٍ يَتَضَاعَلُ بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ كُلُّ نَشَاطٍ.
لَعَلَّكَ تَعْجَبُ — وَحَقٌّ لَكَ أَنْ تَعْجَبَ — إِذَا قُلْتَ لَكَ: إِنَّ الْبِنَاءَ تَمَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. اسْتَطَاعَ الْعُمَالُ أَنْ يُنْجِزُوا فِي سَاعَاتٍ ثَلَاثٍ مَا كَانُوا يُنْجِزُونَهُ فِي سِتَّةِ أَسَابِيعَ.

قَالَ الْمُصْبَاحُ بِصَوْتِهِ الْهَادِئِ اللَّطِيفِ: «كَانَتْ — فِي الْحَقِّ — مُهِمَّةٌ شَاقَّةٌ مُتَعَبَةٌ؛ لَكِنَّهَا تَمَّتْ — وَالْحَمْدُ لِلَّهِ — عَلَى خَيْرٍ مَا يُرَامُ.»

(١٥) فَضْلُ الْمُصْبِحِ

لَا تَسَلْ عَنِ ابْتِهَاجِ «أَبِي الْغُصَنِ» وَ«رَبَابَةِ»، وَلَدَيْهِمَا، حِينَ رَأَوْا بَيْنَهُمْ يَتِمُّ بِنَاؤُهُ بِمِثْلِ هَذِهِ السَّرْعَةِ الْخَارِقَةِ، الَّتِي يَعْجِزُ الْعَقْلُ عَنْ تَصَوُّرِهَا وَتَعْلِيلِهَا.^٥ خَيْلٌ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ حُلْمًا عَابِرًا، لَا حَقِيقَةً مَائِلَةً.

لَهُمُ الْعُذْرُ فِي ذَلِكَ. قُوَّةُ الْمُصْبِحِ بَدَّلَتْ الْمَأْلُوفَ لَدَيْهِمْ! قَرَّبَتْ مَا صَعَبَ عَلَيْهِمْ. ذَلَّلَتْ الْمُحَالَ. أَنَاَلَتْهُمْ مَا لَا يُنَالُ. حَقَّقَتْ لَهُمْ بَعِيدَ الْأَمَالِ.

(١٦) تَأَثُّيْتُ الْبَيْتِ

الآنَ تَحَقَّقَ حُلْمُ «أَبِي الْغُصَنِ». تَمَّ لَهُ بِنَاءُ مَنْزِلِهِ، أَكْمَلَ مَا يَكُونُ الْبِنَاءُ. لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إِلَّا يُعْنَى بِتَأَثُّيْتِهِ. هُنَا وَقَعَ فِي حَيْرَةٍ. مَاذَا يَصْنَعُ بَعْدَ أَنْ نَفَدَ^٦ مَالُهُ أَوْ كَادَ.

جَلَسَ «أَبُو الْغُصَنِ» مُطْرِقًا. فَرَكَ جَبِينَهُ مُسْتَعْرِقًا فِي أَفْكَارِهِ. أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُسَائِلُهَا: «مَاذَا أَنَا صَانِعُ الْآنَ؟»

أَجَابَهُ الْمُصْبِحُ فِي سُخْرِيَةٍ بِاسْمَةٍ، مَمْرُوجَةٍ بِالْدُّعَابَةِ وَالتَّوَدُّدِ: «الْأَثَاثُ عِنْدَكَ، يَا «أَبَا الْغُصَنِ»! أَتُرَاكَ نَسِيَّتَهُ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «أَيُّ أَثَاثٍ تَعْنِي؟»

أَجَابَهُ الْمُصْبِحُ ضَاحِكًا: «الْأَثَاثُ الَّذِي أَهْدَاكَ صَاحِبُكَ «أَبُو شَعْشَعٍ». كَيْفَ نَسِيَّتَهُ،

يَا مُنْكَرَ الْجَمِيلِ؟!»

تَذَكَّرَ «أَبُو الْغُصَنِ» هَدِيَّةَ «أَبِي شَعْشَعٍ». أَسْرَعَ إِلَى الصُّنْدُوقِ. فَتَحَهُ أَمَامَ زَوْجَتِهِ وَجَارَتِهِ وَلَدَيْهِ.

لَا تَسَلْ عَنْ دَهْشَتِهِمْ حِينَ أَبْصَرُوا أَثَاثَ بَيْتِ كَامِلٍ. كَانَ أَثَاثًا عَجِيبًا. كَانَ مُتَنَاهِيًا فِي الصُّغَرِ. كَانَ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِلُعْبِ الْأَطْفَالِ الصَّغِيرَةِ.

^٥ تعرّف أسبابها.

^٦ فرغ.

حَسِبْتُ «رَبَابَةً» أَنَّ زَوْجَهَا يَعْزُضُ لَعْبًا لَوْلَدِيهِ: «جَحْوَان» وَ«جُحِيَّةٌ».
رَأَتْ غَيْرَ مَا حَسِبَتْهُ رَأَتْ زَوْجَهَا يُخْرِجُ مِنَ الصُّنْدُوقِ أَرِيكَةً صَغِيرَةً فِي مِثْلِ طُولِ
الْأُتْمَلَةِ، ثُمَّ يَضَعُهَا — وَمَظَاهِرُ الْجِدِّ مُرْتَسِمَةٌ عَلَى مُحْيَاهُ — فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ حُجْرَةِ
الِاسْتِقْبَالِ!

الْجَمِيعُ يَتَضَاحَكُونَ مِمَّا يَرَوْنَ. سُرْعَانَ مَا انْقَلَبَتْ سُخْرِيَتُهُمْ دَهْشَةً، وَتَبَدَّلَتْ
دُعَابَتُهُمْ حَيْرَةً.

رَأَوْا تِلْكَ الْأَرِيكَةَ الْمُتَنَاهِيَةَ فِي الصَّغَرِ تَكْبُرُ، ثُمَّ تَكْبُرُ ... وَلَا تَزَالُ تَكْبُرُ حَتَّى يَبْلُغَ
حَجْمُهَا مِسَاحَةَ الْمَكَانِ الَّذِي أَعَدَّهُ لَهَا فِي رُكْنِ حُجْرَتِهِ.

هَكَذَا صَنَعَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِجَمِيعِ مَا فِي الصُّنْدُوقِ مِنْ قِطْعِ الْأَثَاثِ رَاكَ نَسِيَتُهُ! «
أَبَا الْغُصْنِ» الْأَثَاثُ عِنْدَكَ، وَأَبْسِطَةَ وَرُفُوفٍ وَأَصُونَةٍ وَمَكَاتِبَ وَوَسَائِدَ وَأَغْطِيَةٍ وَأَكْسِيَةٍ
وَأَنِيَّةٍ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَدَوَاتِ الدَّارِ وَأَثَاثِهَا.

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» يُخْرِجُ الْقِطْعَةَ — مِنَ الصُّنْدُوقِ الصَّغِيرِ — وَيَضَعُهَا فِي الْمَكَانِ
الَّذِي أَعَدَّهُ؛ فَلَا تَلْبَثُ أَنْ تُصْبِحَ فِي الْحَجْمِ الَّذِي أَرَادَهُ لَهَا.

ضَاقَ الْبَيْتُ — عَلَى سَعَتِهِ — بِمَا احْتَوَاهُ الصُّنْدُوقُ مِنْ أَثَاثٍ بَاهِرِ الصَّنْعِ. فَاضَ
الْأَثَاثُ عَنْ حَاجَتِهِ: ضَاقَتْ بِهِ حُجْرَاتُ الْبَيْتِ عَلَى سَعَتِهَا. أَوْدَعَ بَاقِيَهُ فِي سَرَادِيِبِ الْبَيْتِ
وَمَخَازِنِ الْقَمْحِ وَمُسْتَوْدَعِ الْمُهِمَلَاتِ. كَانَتْ أَجْزَاءُ الْأَثَاثِ غَايَةً فِي الْإِبْدَاعِ وَالْفَخَامَةِ: مَادَّةٌ
وَصُنْعًا، مَخْبَرًا وَمَنْظَرًا، نَفَاسَةً وَمَظْهَرًا. كَانَتْ جَدِيرَةً بِمَا ظَفَرَ بِهِ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ
عَيْشِ رَغِيدٍ، وَحَظٍّ مُوَفَّقٍ سَعِيدٍ.

قَالَتْ «جُحِيَّةٌ» مُتَأَلِّمَةً: «أَيْنَ أَرْجُوحَتِي وَأَرْجُوحَةُ أَخِي، يَا أَبَتَاهُ؟ كَيْفَ أَغْفَلَهُمَا
جَالِبُ الْأَثَاثِ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «هَذَا ذَنْبٌ غَيْرُ مُغْتَفَرٍ! كَيْفَ تُنَوِّسِي أَرْجُوحَاتِكُمَا؟»
أَسْرَعَ «جَحْوَانُ» وَ«جُحِيَّةٌ» إِلَى الصُّنْدُوقِ الصَّغِيرِ بَاكِتَيْنِ عَمَّا بَقِيَ فِيهِ. وَجَدَا
سَلَكَيْنِ دَقِيقَيْنِ — مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ — نَسِيَّ أَبُوهُمَا أَنْ يُخْرِجَهُمَا مِنَ الصُّنْدُوقِ.
أَنْعَمَ الْوَلَدَانِ النَّظَرَ فِيهِمَا. وَجَدَاهُمَا عَلَى هَيْئَةٍ أَرْجُوحَتَيْنِ مُتَنَاهِيَتَيْنِ فِي الصَّغَرِ، تَأَنَّقَ
صَانِعُهُمَا فِي إِبْدَاعِهِمَا.

قَرَأَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى إِحْدَاهُمَا: أَرْجُوحَةَ «جَحْوَانَ»، وَعَلَى الْأُخْرَى: أَرْجُوحَةَ «جُحَيَّةَ». نُقِشَتِ الْجُمْلَتَانِ بِحُرُوفٍ دَقِيقَةٍ مِنَ اللَّوْلُو الثَّمِينِ.

أَدْرَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» — بِذَكَائِهِ وَفُطْنَتِهِ، وَتَجَرُّبَتِهِ وَمِرَانَتِهِ — أَنَّهُمَا أَرْجُوحَتَا وَلَدَيْهِ. صَعِدَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى كُرْسِيِّ عَالٍ مِنَ الْخَشَبِ. عَلَّقَ طَرَفِي الْأَرْجُوحَتَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ فِي مَسْمَارَيْنِ مُتَبَتَّيْنِ فِي الْحَائِطِ.

سَأَلَتْ «جُحَيَّةَ» أَبَاهَا: «أَيُّ شَيْءٍ هَذَا، يَا أَبَتَاهُ؟»
أَدْنَاهَا «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ أَنْفِهِ. شَمَّ أَرِيحَهَا.^٧ قَالَ لَهَا بِاسْمًا: «لَعَلَّهَا زَهْرَةُ الْأَمَلِ!»

هَمَسَ «مِصْبَاحُ الْكَنْزِ»: بِصَوْتٍ خَافِتٍ: «مَا أَعْجَبَ ذَكَاءَكَ! صَدَقْتَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». هِيَ — كَمَا تَخَيَّلْتُ — زَهْرَةُ الْأَمَلِ. الْأَمَلُ — كَمَا تَعْلَمُ — نُورٌ إِلَهِيٌّ، يَغْمُرُ النَّفْسَ؛ فَتَرَى فِيهِ عَزَاءَ الْمُتَكَوِّبِينَ، وَرَجَاءَ الْمُغْلُوبِينَ، وَسُلُوةَ الْبَائِسِينَ، وَبَلَسَمَ الْمَجْرُوحِينَ!»

رَفَعَهَا «أَبُو الْغُصْنِ» نَحْوَ السَّمَاءِ. نَادَى زَوْجَتَهُ «رَبَابَةَ»، وَوَلَدَهُ «جَحْوَانَ»، وَابْنَتَهُ «جُحَيَّةَ». جَلَسُوا حَوْلَهُ يُشَاطِرُونَهُ مَا فَاضَ عَلَى قَلْبِهِ مِنَ الْفَرَحِ، وَيُرَدِّدُونَ دَعْوَاتِهِ الَّتِي ابْتَهَلَ بِهَا إِلَى اللَّهِ، فِي الْأَغْنِيَةِ التَّالِيَةِ:

ذَلِكَ الطَّائِرُ الْمُفَرَّعُ، يَلْقَى	أَمْنُهُ — كُلَّمَا تَفَرَّعَ — عِنْدَكَ
أَنْتَ قَوِيَّتَ بِالْجَنَاحَيْنِ مِنْهُ	ضَعْفُهُ، فَاَنْبَرَى يُرَدِّدُ حَمْدَكَ
وَلِسَانِي بِالْقَوْلِ يُعْلِنُ شُكْرَكَ	وَفُؤَادِي بِالصَّمْتِ يَحْفَظُ عَهْدَكَ
فِيكَ أَمَانُنَا، وَمِنْكَ هُدَانَا	وَعَلَيْكَ اعْتِمَادُنَا: أَنْتَ وَحْدَكَ
فَاحْبُبْ، يَا خَالِقَ الْبَرِّيَّةِ، رِفْدَكَ	وَاهِدِ — يَا رَبَّنَا — إِلَى الْخَيْرِ عَبْدَكَ!

الفصل السادس

بَيْنَ يَدَيِ الْقَاضِي

(١) اسْتِثْنَاءُ الْعَمَلِ

مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، هَذَا بَالُ «أَبِي الْغُصَنِ». انْتَضَمَتْ أَعْمَالُهُ. ارْتَاخَ خَاطِرُهُ. سَكَنَ بَلْبَالُهُ. حَالَفَهُ النَّجَاحُ مُطَرِّدًا مُتَتَابِعًا.

كَانَ «أَبُو الْغُصَنِ» — كَمَا رَأَيْتَ — عَاقِلًا شَرِيفًا مَشْغُوفًا بِالْعَمَلِ، لَا يُحِبُّ أَنْ يَتَّكِلَ عَلَى غَيْرِهِ، وَلَا يَرْضَى أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى سِوَاهُ. لَمْ يَكُنْ يَرَى نَفْسَهُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِـ «مِصْبَاحِ الْكُنْزِ». ادَّخَرَ الْمِصْبَاحُ لِلنَّوَائِبِ وَالْمَازِقِ الْحَرَجَةَ الَّتِي لَا يُجْدِي فِيهَا غَيْرُهُ. لَمْ يَنْسَ فَضْلَ جَارَتِهِ «رُبَيْدَةَ». كَافَأَهَا — عَلَى مَعُونَتِهَا وَإِخْلَاصِهَا — بِأَنْ عَاهَدَ إِلَيْهَا بِالْإِشْرَافِ عَلَى تِجَارَتِهِ الْوَاسِعَةِ، الَّتِي اسْتَرَدَّتْ شُهْرَتَهَا. لَمْ تَلْبَثْ أَنْ زَادَتْ أَعْمَالُهَا، وَزَادَ عَمَالُهَا، حَتَّى أَصْبَحَتْ أَكْبَرَ مَحَلِّ تِجَارِيٍّ فِي بَلَدِهِ.

هَكَذَا اجْتَمَعَتْ لَهُ وَلِزَوْجَتِهِ وَلِدَيْهِ وَجَارَتِهِ كُلُّ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءَةِ؛ بِفَضْلِ صَبْرِهِ وَأَمَانَتِهِ، وَحَزْمِهِ وَمُتَابَرَتِهِ!

(٢) عَوْدَةُ «الْعُكْمُوسِ»

نَعُودُ الْآنَ إِلَى «الْعُكْمُوسِ»! إِنَّ فِي الْعَوْدَةِ إِلَيْهِ لَتَفْكِهَةً لِلنَّفْسِ، وَتَرْوِيحًا لِلْقَلْبِ. لَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَذْكُرَ «أَبَا الْغُصَنِ» دُونَ أَنْ نَذْكُرَ إِلَى جَانِبِهِ ذَلِكَ «الْعُكْمُوسَ»!

مَرَّتِ الْأَيَّامُ عَلَى «الْعُكْمُوسِ»، وَهُوَ يَتَرَقَّبُ أَنْ يَجِيءَ إِلَيْهِ «أَبُو الْغُصْنِ» مُسْتَعِظًا ضَارِعًا، يَسْأَلُهُ التَّجَاوُزَ عَمَّا بَقِيَ مِنْ دَيْنِهِ، بَعْدَ أَنْ حَجَزَ عَلَى أَثَاثِ بَيْتِهِ، وَهَمَّ بِبَيْعِ مَا بَقِيَ مِنْ دَارِهِ. لَكِنَّ شَدَّ مَا أَدْهَشَ «الْعُكْمُوسَ» أَنْ تَمُرَّ الْأَيَّامُ وَالْأَسَابِيغُ، دُونَ أَنْ يَرَى غَرِيمَهُ^١ «أَبَا الْغُصْنِ».

ذَا صَبَاحٍ، قَالَ «الْعُكْمُوسُ» فِي نَفْسِهِ: «تَرَى مَاذَا آَلَ إِلَيْهِ أَمْرُ «أَبِي الْغُصْنِ» وَقَرِّدِهِ الصَّغِيرِ الَّذِي ضَرَبَ أُنْذُنِي بِمَغْرِفَتِهِ؟ إِنَّ بَيْعَ أَثَاثِهِ الْبَالِي لَمْ يَفْ بِنِصْفِ دَيْنِي. مَاذَا عَلَيَّ إِذَا عَاوَدْتُ الْكَرَّةَ، لَعَلِّي أَظْفَرُ بِجَدِيدٍ عِنْدَهُ فَأَبِيعَهُ، لِيُؤَدِّيَ بَعْضُ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ!»

(٣) حَيْرَةٌ وَحَسْرَةٌ

لَمْ يَتَرَدَّدِ «الْعُكْمُوسُ» فِي إِنْجَازِ فِكْرَتِهِ. قَصَدَ إِلَى بَيْتِ «أَبِي الْغُصْنِ». مَرَّ بِهِ — ذَاهِبًا آتِيًا — دُونَ أَنْ يَعْرِفَهُ أَوْ يَفْطُنَ إِلَيْهِ. أَتَى^٢ لَهُ أَنْ يَهْتَدِيَ، بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَ الْبَيْتُ إِلَى صَرْحٍ مُنِيفٍ؟

أَيْنَ الْبَيْتُ الْمُهْدَمُ الْحَرْبُ؟ لَا سَبِيلَ إِلَى الْعُنُورِ عَلَيْهِ. تَحَوَّلَ إِلَى سُوقٍ تِجَارِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، فِي قَصْرِ فَاحِرٍ؛ لَا مَثِيلَ لَهُ فِي الْمَدِينَةِ. حِيلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَخْطَأَ مَكَانَ الْبَيْتِ.

رَجَعَ «الْعُكْمُوسُ» إِلَى نَفْسِهِ يُسَائِلُهَا: «أَيْنَ بَيْتُ غَرِيمِي؟ كَانَ فِي هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ. وَآعَجَبًا! كَيْفَ امْحَى أَثَرُهُ؟ أَتَرَانِي ضَلَلْتُ الطَّرِيقَ. أَتَرَانِي أَخْطَأْتُ مَوْقِعَهُ؟»

كَانَ عَلَى حَقٍّ فِي حَيْرَتِهِ وَضَلَالِهِ! لَهُ الْعُذْرُ فِي سُؤَالِهِ! مَا كَانَ «الْعُكْمُوسُ» لِيَهْتَدِيَ إِلَى بَيْتِ «أَبِي الْغُصْنِ»، لَوْلَا أَنَّ أَتَاخَتْ لَهُ الْمُصَادَفَةُ أَنْ يَلْتَقِيَهِ خَارِجًا مِنْ بَيْتِهِ — فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ — وَهُوَ وَقَفَ عَلَى سُدَّةٍ^٣ بَابِهِ.

بُهِتَ «الْعُكْمُوسُ» حِينَ رَأَاهُ. فَتَحَ مُتَحِيرًا فَاهًا. جَحَظَتْ عَيْنَاهُ. ارْتَفَعَ — مِنَ الدَّهْشَةِ — حَاجِبَاهُ. تَقَلَّصَتْ شَفَتَاهُ. انْتَصَبَتْ أُنْذَانُهُ؛ كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَتَلَقَّفَ بِهِمَا الْأَخْبَارَ وَيَسْمَعَ الْأَنْبَاءَ؛ لَعَلَّهُ يَعْرِفُ كَيْفَ تَبَدَّلَ حَالُ «أَبِي الْغُصْنِ» مِنَ الْفَقْرِ وَالْمُسْكِنَةِ إِلَى الثَّرَاءِ وَالْعِزِّ.

^١ مَدِينَةٍ.

^٢ كَيْفَ.

^٣ عَتَبَةٍ.

رَأَى مَا اسْتَجَدَّ فِي دُكَانٍ غَرِيمِهِ مِنْ نَفِيسِ الْبَضَائِعِ الْمُكَدَّسَةِ. كَادَ قَلْبُهُ يَنْخَلِعُ.
انْقَلَبَ ارْزَاؤُهُ وَتَنَكَّرَهُ إِجْلَالًا وَإِكْبَارًا.

(٤) تَحِيَّةُ حَاقِدَةٍ

بُدِّلَ مِنْ هَيْئَتِهِ وَسَخْنَتِهِ. حَلَّتْ ابْتِسَامَتُهُ مَكَانَ غُبُوسِهِ وَجَهَامَتِهِ. تَوَجَّهَ إِلَى «أَبِي الْغُصَنِ»
يَسْأَلُهُ مُتَوَدِّدًا: «سُعْدَ يَوْمُكَ. عَزَّ قَوْمُكَ. كَيْفَ حَالُكَ. يَا أَبَا الْغُصَنِ؟»
أَجَابَهُ «أَبُو الْغُصَنِ» سَاحِرًا: «حَالِي كَمَا تَرَى، يَا عُكْمُوسُ!»

(٥) بَقِيَّةُ الدَّيْنِ

قَالَ «الْعُكْمُوسُ» مُتَلَطِّفًا: «هَلْ أَجِدُ مِنْ وَقْتِ سَيِّدِي «أَبِي الْغُصَنِ» مَا يَسْمَحُ لِي بِأَنْ
أَذْكُرَهُ بِمَا بَقِيَ لِي عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ تَفْعِهِ يَسِيرُ؟»
قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ» مُتَبَالِهًا: «أَيَّ دَيْنٍ تَعْنِي، يَا عُكْمُوسُ؟»
قَالَ «الْعُكْمُوسُ»: «بَقِيَّةُ الدَّيْنِ الَّذِي اقْتَرَضْتَهُ مِنِّي.»
قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «أَلَمْ تَحْجِزْ عَلَى أَثَاثِ الدَّارِ؟»
قَالَ «الْعُكْمُوسُ»: «عَفْوًا، يَا سَيِّدِي «أَبَا الْغُصَنِ»، عَفْوًا. الْحِجْزُ لَمْ يَفِ بِدَيْنِكَ، بَلْ
عَلَى الْعَكْسِ...!»

قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «عَلَى الْعَكْسِ مِمَّاذَا؟ لَعَلَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ بَيْعَ الْأَثَاثِ قَدْ
زَادَ فِي دَيْنِي وَلَمْ يَنْقُصْهُ!»

حَسِبَهُ «الْعُكْمُوسُ» جَادًا. لَمْ يَفْطِنِ الْغَيْبِيُّ إِلَى تَهَكُّمِهِ. قَالَ: «عَجَبًا، يَا «أَبَا الْغُصَنِ»!
كَيْفَ يَغِيبُ عَنْ دُكَانِكَ مِثْلُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ؟»

الْأَثَاثُ الْبَالِي لَمْ يَكُنْ لِيَصْلَحَ لِأَدَاءِ الدَّيْنِ، إِذَا بَقِيَ عَلَى حَالِهِ، بِغَيْرِ إِصْلَاحٍ! كَانَ عَلَيَّ
أَنْ أَتَعَهَّدَهُ بِالْإِصْلَاحِ أَوَّلًا؛ حَتَّى أَتِمَّكَنَ مِنْ بَيْعِهِ! أَنْفَقْتُ — فِي سَبِيلِ ذَلِكَ — خَمْسَةَ
وَثَلَاثِينَ دِينَارًا.

تَوَقَّفَ «الْعُكْمُوسُ» عَنِ الْكَلَامِ لَحِظَةً. سَعَلَ مَرَّتَيْنِ. كَادَ يَغْصُ بِرِيقِهِ. اسْتَرَدَّ جُرْأَتَهُ وَصَفَاقَتَهُ. اسْتَأْنَفَ قَائِلًا: «كَلَّفَنِي نَقْلُ الْأَثَاثِ عَشْرَةَ دَنَانِيرًا!» تَقَاضَانِي مَدُوبُ الْقَاضِي عَشْرَةَ دَنَانِيرٍ أُخْرَى، هِيَ رُسُومُ الْقَضِيَّةِ. أَنْتَ تَرَى أَنَّ مَجْمُوعَ مَا أَنْفَقْتَهُ خَمْسَةُ وَخَمْسُونَ دِينَارًا.

أَتَعْلَمُ: بِكُمْ دِينَارًا بَاعَ الدَّلَالُ أَثَاثَكَ؟ بِخَمْسِينَ دِينَارًا فَقَطْ، لَمْ تَزِدْ وَلَمْ تَنْقُصْ. هَا أَنْتَ ذَا تَرَى أَنَّ دِينَكَ زَادَ وَلَمْ يَنْقُصْ! زَادَ خَمْسَةَ دَنَانِيرٍ، تُضَافُ إِلَى مَائَتِي الدِّينَارِ الَّتِي بَقِيَتْ عَلَيْكَ قَبْلَ بَيْعِهِ. أَصْبَحَ الدِّينُ خَمْسَةَ دَنَانِيرٍ وَمَائَتَيْنِ.

اغْنَمْ شُكْرِي وَثَنَائِي. أَوْفِ دِينَكَ؛ بَعْدَ أَنْ يَسَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَفَرَجَ كُرْبَتَكَ. لَا تَنْسَ أَنْبِي تَجَاوَزْتُ عَنْ ثَمَنِ مَا لَحَقَنِي مِنَ الْإِهَانَةِ فِي بَيْتِكَ. أَتَذْكُرُ كَيْفَ أَهْوَى وَلَدَكَ عَلَى رَأْسِي بِالْمَغْرِفَةِ؟ كَادَ الشَّقِيُّ الظَّرِيفُ يَفْتُلْنِي، لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ! لَكِنِّي أُوتِرُهُ أَنْ أُكْرِمَكَ وَأَتَجَاوَزَ لَكَ عَنِ الْكَثِيرِ، مُكْتَفِيًا بِالنَّزْرِ الْيَسِيرِ. أَمْثَالُ الْقَلَائِلِ مِنْ كِرَامِ النَّاسِ، جَدِيرُونَ بِالْإِكْرَامِ وَالتَّجَاوُزِ عَنْ هَنَوَاتِهِمْ.^٦ أَمْثَالُ الْأَخْيَارِ خَلِيقُونَ أَلَّا تَتَشَدَّدَ فِي اقْتِصَائِهِمْ^٧ كُلِّ مَا لَنَا عَلَيْهِمْ مِنْ حُقُوقٍ وَدُيُونٍ.»

غَيْرُ «أَبِي الْغُصَنِ» كَانَ يَتَمَلَّكُهُ الْغَضَبُ مِنْ إِسْرَافِ «الْعُكْمُوسِ» فِي مُغَالَطَتِهِ وَسُوءِ نِيَّتِهِ، وَتَمَادِيهِ فِي تَغْفُلِهِ وَالتَّظَاهُرِ بِصَدَاقَتِهِ. لَكِنَّ «أَبَا الْغُصَنِ» — كَمَا عَرَفَتْ — كَانَ أَرْحَبَ أَفْقًا، وَأَكْبَرَ عَقْلًا، وَأَوْفَرَ جِلْمًا، مِنْ أَنْ يَضِيقَ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الصَّغَايِرِ. أَتَعْرِفُ كَيْفَ أَجَابَ الْمُغَالِطَ الْكَبِيرُ؟

أَجَابَهُ فِي سُخْرِيَّةٍ بِاسْمَةٍ: «كَيْفَ تُرِيدُنِي عَلَى أَنْ أَدْفَعَ الدِّينَ نَاقِصًا؟!» قَالَ «الْعُكْمُوسُ»: «بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، يَا «أَبَا الْغُصَنِ»، مَاذَا تَعْنِي؟» قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «لَا بُدَّ مِنْ أَدَاءِ الدِّينِ كَامِلًا. لَا بُدَّ مِنْ أَدَاءِ ثَمَنِ الْإِهَانَةِ الَّتِي أَلْحَقَهَا وَلَدِي بِكَ. لَا بُدَّ مِنْ مُكَافَأَةِ الدَّلَالِ الَّذِي بَاعَ الْأَثَاثَ.

^٥ أختار.

^٦ هفواتهم.

^٧ مطالبتهم.

يُضَافُ إِلَى هَذَا تَقْدِيرُ مَا أَنْفَقْتَ — مِنَ الْوَقْتِ — فِي الذَّهَابِ وَالْعُودَةِ بَيْنَ بَيْنَيْنَا،
وَالذَّهَابِ وَالْعُودَةِ بَيْنَ بَيْتِكَ وَدَارِ الْقَضَاءِ. أَنْسَيْتَ أَنَّكَ أَلْقَيْتَ عَلَى التَّحِيَّةِ وَتَفَضَّلْتَ
بِالسَّلَامِ؟ أَنْسَيْتَ أَنَّكَ دَعَوْتَ لِي بِالْخَيْرِ؟ كَيْفَ نَسِيتَ هَذِهِ الْمَحَامِدَ؟ إِنَّهَا دُيُونٌ أَسْلَفْتَهَا
إِلَيَّ.

كَيْفَ نَسِيتَ أَنْ تُقَاضِيَنِي عَلَيْهَا أَجْرًا تُضِيفُهُ إِلَى مَا عَلَيَّ مِنْ دَيْنٍ؟ شَدَّ مَا أَسْرَفْتَ
فِي كَرَمِكَ، يَا «عُكْمُوسُ»! بَقِيَ أَمْرٌ خَطِيرٌ، نَسِيتَ أَنْ تُطَالِبَنِي بِهِ. لَسْتُ أَذْري كَيْفَ
تَجَاوَزْتَ عَنِ الْمَطَالَبَةِ بِثَمَنِهِ؟

مَا أَعْجَبَ غَبَاءَ «الْعُكْمُوسِ»! حَيَّلَ إِلَيْهِ طَمَعُهُ أَنَّ غَرِيمَهُ جَادٌ فِيمَا يَقُولُ.
انْدَفَعَ يَسْأَلُهُ: «مَاذَا نَسِيتُ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»؟ بَارَكَ اللَّهُ فِي وَفَائِكَ، وَأَدَامَ عَلَيَّ نِعْمَةً
إِخَائِكَ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَنْتَ جِئْتَ رَأَيْتَ أَثَاثَ بَيْتِي لَا يَصْلُحُ لِأَدَاءِ شَيْءٍ يَسِيرٍ مِنْ دَيْنِكَ،
شَعَرْتُ بِصَدْمَةٍ مُفَاجِئَةٍ كَادَتْ تُودِي بِحَيَاتِكَ. لَا شَكَّ عِنْدِي فِي أَنَّ هَذِهِ الصَّدْمَةَ أَسْلَمْتُكَ
إِلَى الْمَرَضِ. كَمْ دَفَعْتَ ثَمَنًا لِطَبَّائِكَ؟ كَمْ أَنْفَقْتَ ثَمَنًا لِدَوَائِكَ؟ أَلَيْسَتْ هَذِهِ دُيُونًا عَلَيَّ؟
كَيْفَ نَسِيتَ أَنْ تُطَالِبَنِي بِهَا؟»

اشْتَدَّ فَرَحُ «الْعُكْمُوسِ» بِمَا سَمِعَ. اِمْتَلَأَ قَلْبُ الْغُصْنِ لَهْفَةً وَطَمَعًا. نَسِيَ أَنَّ غَرِيمَهُ
يَسْخَرُ مِنْهُ. انْطَلَقَ يَلْهُجُ بِشُكْرِ «أَبِي الْغُصْنِ» وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ. أَسْرَفَ فِي الدُّعَاءِ، مُتَمَادِيًا
فِي الرَّجَاءِ.

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «حَسْبُكَ ثَنَاءٌ وَدُعَاءٌ — يَا «عُكْمُوسُ» — حَتَّى لَا يَزِيدَ الدَّيْنُ
أَكْثَرَ مِمَّا زَادَ!»

أَذْهَلَ «الْعُكْمُوسَ» الطَّمَعُ. أَضْلَعَهُ الْجُرْصُ وَالشَّرُّهُ. صَدَّقَ مَا سَمِعَ. انْدَفَعَ يَقُولُ: «كَلَّا،
يَا «أَبَا الْغُصْنِ». أَنْتَ جَدِيرٌ بِأَكْثَرِ مِمَّا قُلْتُ. لَنْ أَتَقَاضِيَ أَجْرًا عَلَى ثَنَائِي. أَنَا أَتَجَاوَزُ
لَكَ عَنْ ثَمَنِ دَعَوَاتِي الْأَخِيرَةِ. لَكِنْ خَبَّرَنِي، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»: مَتَى تُؤَدِّي إِلَيَّ كُلَّ هَذِهِ
الدُّيُونِ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَعْطَيْكَهُ عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ أَمَامَ الْقَاضِي؟»
قَالَ «الْعُكْمُوسُ»: «مَا حَاجَتُنَا إِلَى الْقَاضِي بَعْدَ أَنْ غَمَرْتَنِي بِكَرَمِكَ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لَا بُدَّ لِي مِنْ أَنْ أُبْرِيَ زِمَّتِي أَمَامَ اللَّهِ، وَأَمَامَ نَفْسِي، وَأَمَامَكَ، وَأَمَامَ الْقَاضِي، وَأَمَامَ النَّاسِ جَمِيعًا!»
انْخَدَعَ «الْعُكْمُوسُ» بِقَوْلِ «أَبِي الْغُصْنِ». اشْتَدَّ فَرْحُهُ بِمَا سَمِعَ. ذَهَبَ مَعَهُ إِلَى دَارِ الْقَضَاءِ.

(٦) حِوَارُ الْقَاضِي

مَثَلَ الْغَرِيمَانِ أَمَامَ الْقَاضِي.
سَأَلَ الْقَاضِي عَنْ حَلِيلَةِ الْخَبَرِ. شَرَحَ «الْعُكْمُوسُ» قَضِيَّتَهُ مَعَ غَرِيمِهِ.
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَرَأَيْتَ كَيْفَ يُقَرَّرُ دَائِنِي أَنْ دَيْنِي لَمْ يَنْقُصْ — بَعْدَ أَنْ بَاعَ أَثَاثِي — بَلْ زَادَ؟»
قَالَ الْقَاضِي: «أَيُّ عَجَبٍ فِي هَذَا؟ أَلَمْ يَقُلْ إِنَّهُ أَصْلَحَ الْأَثَاثُ؟»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لَا تَنْسَ — يَا فَخْرَ الْقَضَاءِ، وَنَبْرَاسَ الْعَدَالَةِ، وَمِرَاةَ الْحَقِّ — أَنَّهُ أَصْلَحَ الْأَثَاثُ لِنَفْسِهِ وَقَائِدَتِهِ، وَلَمْ يُصْلِحْهُ مِنْ أَجْلِ قَائِدَتِي أَنَا.»
قَالَ الْقَاضِي: «هَذَا مَوْضِعُ بَحْثٍ وَنَظَرٍ.»
قَالَ «الْعُكْمُوسُ»: «لَوْ لَمْ يَضْطَرَّنِي إِلَى الْحَجْرِ عَلَى أَثَاثِ بَيْتِهِ وَأَخَذِهِ، لَمَا كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى إِصْلَاحِهِ.»
قَالَ الْقَاضِي: «الْعُكْمُوسُ عَلَى حَقٍّ فِيمَا يَقُولُ.»

طَالَ الْحَوَارُ.
خَتَمَ الْقَاضِي الْجُلُوسَةَ قَائِلًا: «مَاذَا عَلَيْكَ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — لَوْ سَمَحْتَ لِغَرِيمِكَ بِكُلِّ مَا طَلَبَ، مَا دُمْتَ عَلَى مَا وَصَفَكَ بِهِ مِنْ وَفَرَةِ الثَّرَاءِ؟»^٨
ابْتَسَمَ «أَبُو الْغُصْنِ» قَائِلًا: «أَتَرْضَى أَنْ أُعْطِيَهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ؟»

^٨ كثرة الغنى.

(٧) دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ

قَالَ «الْعُكْمُوسُ»: «أَقْسِمُ بِاللَّهِ: إِنَّنِي صَادِقٌ غَيْرُ حَانِثٍ فِي كُلِّ مَا قَرَّرْتُهُ أَمَامَ الْقَاضِي. أَنَا أَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَمْسَحَنِي حِمَارًا إِذَا كُنْتُ كَذِبْتُكُمَا كَلِمَةً وَاحِدَةً، مِمَّا رَوَيْتُهُ لَكُمَا!»

أَمْسَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِ «مَصْبَاحِ الْكَنْزِ»، يَسْتَعِينُهُ عَلَى تَلْبِيَةِ رَغْبَتِهِ.
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «مَا أَحْوجُنِي إِلَى حِمَارٍ لِحَمْلِ بَضَائِعِي وَحَمْلِي! لَعَلَّ اللَّهَ يَمْسَحَكَ حِمَارًا — أَيُّهَا الشَّقِيُّ — مَا دُمْتَ تُقْسِمُ بِهِ كَاذِبًا!»
لَمْ يَتِمَّاكَ الْقَاضِي أَنْ يَضْحَكَ مِنَ الْمُدَاعَبَةِ الْجَوْحِيَّةِ الظَّرِيفَةِ.

لَكِنْ حَدَثَ مَا لَيْسَ فِي الْحِسَابِ: كَفَّ الْقَاضِي عَنِ الضَّحِكِ. انْقَلَبَتِ الدُّعَابَةُ الْحُلُوءُ جِدًّا مَرِيرًا.

أَبْصَرَ الْقَاضِي أُذُنِي «الْعُكْمُوسِ» تَمْتَدَّانِ حَتَّى تُصْبِحَا فِي طُولِ أُذُنِي الْحِمَارِ، وَقَدَمَيْهِ تَكْتَسِيَانِ شَعْرًا، وَتَبْدُوَانِ فِي مِثْلِ سَاقِي الْحِمَارِ! عَجَبٌ عَاجِبٌ! عَجَبٌ عَاجِبٌ!
بَرَزَتِ الْحَوَافِرُ فِي نِهَآيَةِ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ! غُطِّي جِسْمُهُ بِجِلْدِ حِمَارٍ وَشَعْرِ حِمَارٍ! تَبَدَّلَتْ حُلَّتُهُ.^٩ أَصْبَحَتْ ثِيَابُهُ بَرْدَعَةً فَخْمَةً. صَارَ لَهُ حِرَامٌ وَرَسَنٌ.^{١٠} أَصْبَحَ كَمَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

بُدِّلَ مِنْ مِشْيَةٍ بِحُلَّتِهِ مِشْيَتُهُ فِي الْحِرَامِ وَالرَّسَنِ!

دُعِيَ الْقَاضِي، أَقْبَلَ الْقَاضِي عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ» مُتَحَبِّبًا. قَالَ: «لَا رَيْبَ عِنْدِي أَنَّكَ رَجُلٌ شَرِيفٌ صَادِقٌ. لَا شَكَّ فِي أَنَّ غَرِيمَكَ خَادِعٌ كَاذِبٌ. لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَمْسَحْ حِمَارًا. حَسْبُكَ أَنْ أَتَاكَ اللَّهُ لَكَ مَرْكَبًا يَحْمِلُكَ إِلَى بَيْتِكَ. اذْهَبْ إِلَى دَارِكَ رَاشِدًا آمِنًا، فِي حَلِّكَ وَتَرَحُّلِكَ!»

^٩ ثوبه.

^{١٠} حبل على أنفه.

ابْتَسَمَ «أَبُو الْغُصْنِ» مُتَهَكِّمًا. قَالَ: «شُكْرًا لَكَ — أَيُّهَا الْإِمَامُ الْعَادِلُ — عَلَى تَلَطُّفِكَ. لَكِنْ لَا مَنَاصَ لِي مِنْ إِيدَاعِ مَا بَقِيَ عَلَيَّ مِنْ دَيْنِ «الْعُكْمُوسِ». لَا بَدَّ أَنْ تُعْطِيَهُ إِيَّاهُ، مَتَى طَلَبَهُ مِنْكَ. الْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ. هَذَا دَيْنٌ لَهُ عَلَيَّ، لَا مَفَرَّ مِنْ أَدَائِهِ.»
حَاوَلَ «الْعُكْمُوسُ» أَنْ يَتَكَلَّمَ. أَعْجَزَهُ الْكَلَامُ. تَحَوَّلَ كَلَامُهُ نَهِيْقَ حِمَارٍ أَصِيلٍ فِي حِمَارِيَّتِهِ! لَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ مَاذَا قَالَ «الْعُكْمُوسُ».



لَعَلَّ «أَبَا الْغُصْنِ» وَحْدَهُ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُفَسِّرَ لَنَا خَوَاطِرَ ذَلِكَ الْحِمَارِ، لَوْ اسْتَعَانَ بِذَكَائِهِ، أَوْ اسْتَعَانَ بِمُضْبَاجِهِ. لَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ.
قَالَ الْقَاضِي: «كُنْ مُطْمَئِنًّا، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». لَنْ تَخْرُجَ هَذِهِ الدَّنَانِيرُ مِنْ يَدَيَّ إِلَّا إِذَا عَادَ «الْعُكْمُوسُ» إِلَى طَلَبِهَا.»

اسْتَأْذَنَ «أَبُو الْغُصْنِ» الْقَاضِي فِي الْعُودَةِ. أَدِنَ الْقَاضِي لَهُ شَاكِرًا مُتَوَدِّدًا.
أَمْسَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِزِمَامِ حِمَارِهِ الْأَدْمِيِّ الْخَبِيثِ، بَعْدَ أَنْ سَحَرَهُ «مِصْبَاحُ الْكُنْزِ». خَرَجَ بِهِ إِلَى الطَّرِيقِ. أَتَمَّ اللَّهُ نَصْرَهُ عَلَى الشَّرِّيرِ.

(٨) جَزَاءُ الْعِصْيَانِ

اِعْتَلَى ظَهَرَ الْحِمَارِ. هَمَّ بِالْعُودَةِ إِلَى بَيْتِهِ. حَاوَلَ الشَّقِي أَنْ يَتَخَابَثَ. انْطَلَقَ يَقْفِزُ وَيَجْمَحُ وَيَرْفُسُ بِقَدَمَيْهِ، وَيَمْشِي عَامِدًا فِي طَرَائِقَ وَعَرَةِ مُلْتَوِيَةٍ. شَهِدَ الْقَاضِي عِنَادَ الْحِمَارِ وَتَمَرَّدَهُ. أَعْطَى «أَبَا الْغُصْنِ» عَصًا لِيَقُومَ بِهَا اعْوِجَاجَ حِمَارِهِ.
أَدْعَنَ الْحِمَارُ وَاسْتَكَانَ^{١١} حِينَ رَأَى الْعَصَا فِي يَدِ غَرِيمِهِ. سُرَّعَانَ مَا أَرْخَى أُذُنَيْهِ وَأَسْلَسَ قِيَادَهُ. مَشَى مُسْتَسْلِمًا صَاغِرًا إِلَى حَيْثُ أَرَادَ رَاكِبُهُ. اسْتَقَلَّ «أَبُو الْغُصْنِ» حِمَارَهُ عَائِدًا إِلَى بَيْتِهِ. كَانَ أَوَّلُهُمَا مُسْتَعْرِقًا فِي تَأْمُلِهِ وَتَفْكِيرِهِ. كَانَ الْآخَرُ مُبْتَنِّسًا بِآخِرَتِهِ وَمَصِيرِهِ.

(٩) مُنَاجَاةُ «أَبِي الْغُصْنِ»

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» يُحَدِّثُ نَفْسَهُ مُبْتَهَجًا. كَانَ يَقُولُ: «مَا أَعْجَبَ شَأْنَكَ، وَأَغْرَبَ أَمْرَكَ، أَيُّهَا «الْعُكْمُوسُ»! مَا أَعْظَمَ نَفْعَكَ حِمَارًا، وَأَشَدَّ ضَرَرَكَ إِنْسَانًا! الْآنَ اسْتَقَامَتْ مِشْيَتُكَ. اِعْتَدَلْ سَيْرُكَ. حَسَنْتَ سَيْرَتُكَ. لَيْتَكَ وُلِدْتَ حِمَارًا تَنْفَعُ النَّاسَ، وَتُهَوِّنُ عَلَيْهِمْ مَتَاعِبَ الْحَيَاةِ، بِمَا تُسَلِّفُهُ إِلَيْهِمْ مِنْ مَعُونَةٍ صَادِقَةٍ.
مِنْ الْعَجِيبِ أَنَّ أُنْثَىكَ الطَّوِيلَتَيْنِ قَدْ انْجَمَتَا حِينَ حَلَلْتَ فِي الصُّورَةِ الْحِمَارِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ اشْتَدَّ تَنَافُرُهُمَا حِينَ كُنْتَ فِي الصُّورَةِ الْأَدْمِيَّةِ. كُنَّا نَنْفِرُ مِنْ صَوْتِكَ الْحِمَارِيِّ الْمُنْكَرِ، لَشِدُوذِهِ. كُنَّا نَسْتَنْكِرُهُ لِبَشَاعَتِهِ. أَمَّا الْآنَ، فَنَرَاهُ شَيْئًا طَبِيعِيًّا، لَانْسِجَامِهِ وَالْفَتْهِ.»

^{١١} نال وخضع.

(١٠) مُنَاجَاةُ «الْعُكْمُوسِ»

كَانَ لِـ «الْعُكْمُوسِ» حَدِيثٌ آخَرُ. كَانَ يُنَاجِي نَفْسَهُ مَهْمُومًا مَحْزُونًا. كَانَ يَقُولُ: «نُزِي إِلَى أَيْ غَايَةٍ يَنْتَهِي مَصِيرُ أَهْلِي وَبَيْتِي؟ لَا شَكَّ فِي أَنَّهُمْ سَيَسْلُكُونَنِي فِي عِذَادِ الْهَالِكِينَ، وَيَنْتَقِلُ مَالِي إِلَى أَيْدِي الْوَرَثَةِ الْخَاطِفِينَ. لَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ وَلَا مِرَاءَ. لَيْسَ لِي رَوْحٌ وَلَا وَلَدٌ. آه لَوْ كُنْتُ أُدْرِي!»

(١١) حِكْمَةُ غَالِيَّةٍ

فِي تِلْكَ الْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ، جَمَعَ «الْعُكْمُوسُ» حِكْمَةَ الْحَيَاةِ وَعِبْرَتَهَا. جَمَعَهَا فِي قَوْلِهِ: «آه لَوْ كُنْتُ أُدْرِي!»

صَدَقَ «الْعُكْمُوسُ». مَا أَظُنُّهُ حَفَلَ بِالصَّدَقِ قَبْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ.

أَوْدَعَ «الْعُكْمُوسُ» تِلْكَ الْحِكْمَةَ الذَّهَبِيَّةَ الْخَالِدَةَ، أَبَدَعَ مَا فِي الْحَيَاةِ مِنْ مَعَانٍ وَغَايَاتٍ! كَمْ فِي الْحَيَاةِ مِنْ وِيَلَاتٍ وَمَصَائِبَ، كَانَ الْمَرْءُ يَسْتَطِيعُ اجْتِنَابَهَا، لَوْ كَانَ يَدْرِي آخِرَتَهَا، وَيَعْرِفُ مَغَيَّبَتَهَا! كَمْ مِنْ فَوَائِدَ وَمَنَافِعَ كَانَ الْمَرْءُ يَسْتَطِيعُ اجْتِنَاءَهَا وَالظَّفَرُ بِهَا! لَوْ كَانَ يَدْرِي عُقْبَاهَا وَغَايَتَهَا!

الطَّالِبُ الْكَسْلَانُ. لَوْ كَانَ يَدْرِي مَصِيرَهُ، تَمَثَّلَ حَيَاتُهُ الْقَابِلَةَ الْجَافَّةَ، حَافِلَةً بِالشَّقَاءِ، مُفَعَّمَةً بِالْكَوَارِثِ، يَسُودُهَا الدُّلُّ وَالْهَوَانُ، وَيُسَيِّطُرُ عَلَيْهَا الْبُؤْسُ وَالْحِرْزَمَانُ.

الْمُسِيءُ لَوْ كَانَ يَدْرِي مَصِيرَهُ، تَمَثَّلَ لِعَيْنَيْهِ مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنْ جَزَاءٍ، فَكَفَّ عَنْهَا لِيَتَجَنَّبَ الْكَوَارِثَ الَّتِي يُعْرِضُ نَفْسَهُ لَهَا. الْكَاذِبُ لَوْ كَانَ يَدْرِي عَاقِبَةَ كَذِبِهِ. الظَّالِمُ لَوْ كَانَ يَدْرِي عَاقِبَةَ بَغْيِهِ. الشَّرُّ لَوْ كَانَ يَدْرِي عَاقِبَةَ طَمَعِهِ. الْبَخِيلُ لَوْ كَانَ يَدْرِي عَاقِبَةَ حِرْصِهِ ... لَوْ كَانَ هَوْلَاءَ يَذْرُونُ، لَكَفَّ كُلُّ مِنْهُمْ عَنْ رَذِيلَتِهِ، وَاسْتَقَامَ عَلَى فَضِيلَتِهِ.

لَوْ كَانَ الْمُجْتَهِدُ يَدْرِي عَاقِبَةَ اجْتِهَادِهِ. لَوْ كَانَ الصَّابِرُ يَدْرِي عَاقِبَةَ صَبْرِهِ. لَوْ كَانَ الْأَمِينُ يَدْرِي عَاقِبَةَ أَمَانَتِهِ. لَوْ كَانَ الْمُحْسِنُ يَدْرِي عَاقِبَةَ إِحْسَانِهِ. لَوْ كَانَ الصَّادِقُ يَدْرِي عَاقِبَةَ صِدْقِهِ.

لَوْ دَرَى هَوْلَاءُ جَمِيعًا عَاقِبَةَ أَعْمَالِهِمْ، إِذَنْ ضَاعَفُوا جُهُودَهُمْ، وَاسْتَزَادُوا مِنْ فَضَائِلِهِمْ، وَتَخَلَّصُوا مِنْ نَقَائِصِهِمْ، وَاسْتَكْتَرُوا مِنْ مَحَامِدِهِمْ.

(١٢) جَارُ «الْعُكْمُوسِ»

اُقْتَرَبَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ بَيْتِهِ. لَقِيَهُ «أَبُو عَلِيٍّ» فِي طَرِيقِهِ. ابْتَدَرَهُ بِالتَّحِيَّةِ. رَدَّ عَلَيْهِ «أَبُو الْغُصْنِ» تَحِيَّةً بِأَحْسَنِ مِنْهَا.

كَانَ «أَبُو عَلِيٍّ» يَسْكُنُ بِجَوَارِ «الْعُكْمُوسِ». كَانَ إِعْجَابُهُ بِمَحَامِدِ «أَبِي الْغُصْنِ» لَا يَقِلُّ عَنْ سُحْطِهِ عَلَى مَسَاوِي «الْعُكْمُوسِ».

فَرَحَ «الْعُكْمُوسُ» بِلِقَاءِ «أَبِي عَلِيٍّ». رَأَى فِي لِقَائِهِ مُفَاجَأَةً سَارَّةً، تَخَفَّفَ مِنْ كُرْبَتِهِ، وَتَهَوَّنَ مِنْ مُصِيبَتِهِ. ابْتَدَرَ «أَبَا عَلِيٍّ» بِالتَّحِيَّةِ.

يَا لِشَقَائِهِ وَخَيْبَتِهِ، وَاللَّهِ وَحَسْرَتِهِ! أَرَادَهَا تَحِيَّةً نَاطِقَةً، فَإِذَا هِيَ صَيْحَةٌ نَاهِقَةٌ. أَعْجَزَتْهُ عَنِ الْكَلَامِ حِمَارِيَّتُهُ، بَعْدَ أَنْ فَارَقَتْهُ أَدَمِيَّتُهُ.

قَالَ «أَبُو عَلِيٍّ»: «مَا أَعْجَبَ حِمَارَكَ الْجَدِيدَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»؟ وَيَّ وَيَّ! أَغْرَبُ حِمَارُ رَأَيْتَهُ. أَنْكُرُ صَوْتِ سَمْعَتِهِ. صِيَاحُهُ يُذَكِّرُنَا بِنَهْيِ «الْعُكْمُوسِ» كَمَا تُذَكِّرُنَا صُورَتُهُ بِهِ!»

صَمَتَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَنِ الْكَلَامِ. لَمْ يَزِدْ عَلَى ابْتِسَامِ.

اسْتَأْنَفَ «أَبُو عَلِيٍّ» قَائِلًا: «طَالَمَا دَعَوْنَا اللَّهَ أَنْ يُرِيحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ مِنْ شَرِّ هَذَا الشَّرِّهِ الْقَاسِي، الَّذِي يَسْتَغِلُّ فَقْرَ دَائِنِهِ أَشْنَعُ اسْتِغْلَالٍ. فَلَا يَتَوَرَّعُ عَنِ التَّفَنُّنِ فِي سَرِقَةِ مَالِهِ، بِمَا يُضَاعِفُهُ مِنْ رَبًّا فَاحِشٍ. شَدَّ مَا يُدْهَشُنِي أَلَّا تَكْفَ عَنْ مُعَامَلَتِهِ، بَعْدَ مَا لَقِيتَ مِنْ فُنُونِ إِسَاءَتِهِ، وَضُرُوبِ أَذِيَّتِهِ!»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»، فِي تَهَكُّمٍ بِاسِمٍ: «لَعَلَّكَ فَسَوْتَ عَلَيْهِ فِي حُكْمِكَ! عَلَى كُلِّ حَالٍ

أَنَا لَا أَخَالَفُكَ فِي أَنَّهُ سَلَكَ — فِي مُعَامَلَتِي — أَسْوَأَ السُّبُلِ. لَمْ يَتْرُكْ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الْقُسُوةِ وَالْغِشِّ وَالْخِدَاعِ وَالسَّرِيقَةِ؛ إِلَّا سَلَكَهَا، فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلَا حَيَاءٍ.»

اشْتَدَّ غَيْظُ «الْعُكْمُوسِ» مِمَّا سَمِعَ. قَفَزَ بِصَاحِبِهِ قَفْزَةً كَادَتْ — لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ — تَسْقِطُهُ عَلَى الْأَرْضِ.

كَانَ لَا بُدَّ مِنْ عِقَابِهِ عَلَى إِسَاءَتِهِ، حَتَّى لَا يَتِمَادَى فِي حِمَاقَتِهِ. ابْتَدَرَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» بِضَرْبَةٍ مِنْ عَصَاهُ، رَجَعَتْهُ إِلَى هُدَاهُ. سَكَنَتْ ثَائِرَةُ «الْعُكْمُوسِ». أَدَبَتْهُ الْعَصَا بَعْدَ أَنْ

عَجَزَ عَنْ تَأْدِيبِهِ الْحِلْمُ. كَانَ لَهَا مِثْلُ السَّحْرِ فِي تَقْوِيمِ اعْوِجَاجِهِ. وَكَفَّهِ عَنْ تِمَادِيهِ فِي عِنَادِهِ وَلَجَاجِهِ.

اسْتَأْنَفَ «أَبُو الْغُصْنِ» قَائِلًا: «صَدَقْتَ — يَا أَخِي — فِي حُكْمِكَ عَلَى «الْعُكْمُوسِ». مَا أَضْيَعَ الْحِلْمَ وَأَعْجَزَهُ عَنْ تَقْوِيمِ بَعْضِ الْأَشْرَارِ، مِمَّنْ لَا سَبِيلَ إِلَى إِصْلَاحِ حَالِهِ وَإِقَاطِ ضَمِيرِهِ بِغَيْرِ الْعِقَابِ الرَّادِعِ. انْظُرْ إِلَى هَذَا الْحِمَارِ الشَّرِيسِ الْعَنِيدِ: كَيْفَ أَغْرَاهُ الْحِلْمُ وَأَدْبَتَهُ الْعَصَا! هَيْهَاتَ — يَا أَخِي — أَنْ تَسْتَقِيمَ الْحَيَاةَ بِغَيْرِ قِصَاصٍ!»

قَالَ «أَبُو عَلِيٍّ»: «الْحَقُّ مَعَكَ يَا «أَبَا الْغُصْنِ»! لِكُلِّ طَبْعٍ مَا يَلَائِمُهُ.»

بُهِتَ «الْعُكْمُوسُ» حِينَ كَشَفَتْ لَهُ الْعَصَا عَجْزَهُ وَنَقَصَهُ. تَنَقَّظَ ضَمِيرُهُ النَّائِمُ عَلَى صَوْتِهَا، وَاسْتَقَامَ اغْوَجَاجُهُ بِفَضْلِهَا. خَذَلَهُ ضَعْفُهُ، وَأَقْعَدَهُ عَجْزُهُ. لَمْ يَجِدْ فِي غَيْرِ الْإِسْتِسْلَامِ وَالْخُضُوعِ مُنْقِذًا لَهُ مِنَ آلامِ الضَّرْبِ.

افْتَرَقَ الصَّدِيقَانِ. وَاصَلَ كِلَاهُمَا سَبْرَهُ إِلَى غَايَتِهِ.

مَشَى «الْعُكْمُوسُ» — فِي ذِلَّةٍ وَمَهَانَةٍ، وَخُضُوعٍ وَاسْتِكَانَةٍ — حَتَّى بَلَغَ بَيْتَ «أَبِي الْغُصْنِ».

(١٣) الْحِمَارُ الْجَدِيدُ

لَا تَسَلْ عَنْ فَرْحِ «رَبَابَةٍ» وَلَوْلَدِيهَا، حِينَ رَأَوْا الْحِمَارَ الْجَدِيدَ. قَالَتْ «رَبَابَةٌ»: «مَا كَانَ أَحْوَجَنَا إِلَى حِمَارٍ كَهَذَا، يَحْمِلُ ثِيَابَنَا إِلَى الْمَغْسَلِ!»

قَالَتْ «زُبَيْدَةُ»: «وَيَجُرُّ عَرَبَةَ الْبُضَائِعِ الصَّغِيرَةِ.»

قَالَتْ «جُحَيَّةُ»: «وَيَحْمِلُنِي عَلَى ظَهْرِهِ، فِيمَا يَحْمِلُ مِنْ أَثْقَالٍ. إِنَّهُ — كَمَا تَرَوْنَ — حِمَارٌ قَوِيٌّ نَشِيطٌ!»

قَالَ «جَحْوَانُ»، وَهُوَ يُلَوِّحُ بِعَصَاهُ فِي وَجْهِهِ: «أَنَا الَّذِي يَسُوقُهُ بِهَذِهِ الْعَصَا.»

عَرَفَ «الْعُكْمُوسُ» — مِمَّا سَمِعَ — بَرْنَامَجَ الْعَمَلِ اليَوْمِيِّ. الَّذِي لَا مَنَاصَ لَهُ مِنْ اتِّبَاعِهِ وَأَدَائِهِ.

النَّفَتْ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى وَلَدَيْهِ قَائِلًا: «لَا تَنْسُوا أَنَّ الرِّفْقَ بِالْحَيَوَانِ، أَوَّلُ وَاجِبَاتِ الْإِنْسَانِ.»

ابْتَهَجَ «الْعُكْمُوسُ» بِنَبِيحَةِ «أَبِي الْغُصْنِ». شَعَرَ بِالرَّاحَةِ تَسْرِي فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ، حِينَ سَمِعَهُ يَنْصَحُ وَلَدَهُ «جَحْوَانُ» وَبَنَتَهُ «جُحَيَّةُ» بِالتَّلَطُّفِ مَعَ حِمَارِهِ، وَيَنْهَاهُمَا عَنْ

ضَرَبَهُ وَإِيذَائِهِ. اطمأنَّ قَلْبُهُ حِينَ سَمِعَ «أَبَا الْغُصْنِ» يَقُولُ: «إِنَّ الرِّفْقَ بِالْحَيَوَانِ، وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ».

نَصَّ^{١٢} «الْعُكْمُوسُ» أَذُنَيْهِ، مُلْتَفِتًا إِلَى الْبَابِ. كَأَنَّمَا يَتَسَمَّعُ صَوْتًا يَزْتاحُ إِلَيْهِ، وَيَعْتَمِدُ — فِي إِنْقَادِهِ — عَلَيْهِ.

قَالَ «جَحْوَانُ»: «انظُرُوا. انظُرُوا. مَا أَعْجَبَ شَأْنَ هَذَا الْحِمَارِ! أَلَا تَرَوْنَهُ يَنْصُ أَذُنَيْهِ،^{١٣} كَمَا كَانَ يَصْنَعُ الشَّيْخُ «الْعُكْمُوسُ»?! أَذَاكِرُ أَنْتَ — يَا أَبِي — يَوْمَ ضَرَبْتُهُ بِالْمَغْرَفَةِ؟»

اصْطَكَّتْ أَسْنَانُ «الْعُكْمُوسِ» وَاسْتَكَّتْ^{١٤} مَسَامِعُهُ. سَرَتْ فِي جَسَدِهِ رَعَشَةُ الْغَيْظِ وَالْكَمَدِ. كَادَ الشَّرُّ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ. نَظَرَ إِلَى «جَحْوَانِ» نَظْرَةً طَافِحَةً بِالْغَضَبِ وَالْقَسْوَةِ. أَحَسَّ عَجْزَهُ وَضَعْفَهُ عَنِ الْإِنْتِقَامِ. أَذْرَكَهُ الطَّبْعُ الْحِمَارِيُّ الدَّلِيلُ. هَذَا وَاسْتَكَانَ. حَتَّى رَأَسَهُ فِي هُدُوءٍ وَاطْمِئْنَانٍ. أَقْبَلَ عَلَى شَاتِمِهِ يُشَجِّعُهُ عَلَى مُدَاعَبَتِهِ، بَعْدَ أَنْ عَجَزَ عَنْ مَلَامَتِهِ وَمُخَاصَمَتِهِ.

أَمَرَ الصَّغِيرَانِ أَيْدِيَهُمَا عَلَى شَعْرِ «الْعُكْمُوسِ» مُتَحَبِّبِينَ إِلَيْهِ مُتَوَدِّدِينَ. فَاضَ قَلْبُ «الْعُكْمُوسِ» عِزْفَانًا بِجَمِيلِهِمَا. وَابْتِهَاجًا بِصَنِيعِهِمَا. أَوْسَعَاهُ تَرْبِيَةً وَنَقْرًا. أَوْسَعَهُمَا تَنَاءً وَشُكْرًا.

(١٤) نَشِيدُ الْأَحْوَيْنِ

ابْتَهَجَ «الْعُكْمُوسُ» لِحَدِيثِهِمَا. طَرِبَ لِأَغَانِيهِمَا، وَهُمَا يُنْشِدَانِ، وَيَتَغَنِّيَانِ بِأَعْدَبِ الْأَلْحَانِ. «جُحِيَّةٌ» تَقُولُ:

أَنْسَتْ، يَا حِمَارِي حَلَلْتُ حَيْرَ دَارِ

^{١٢} رفع.

^{١٣} يرفعهما ويظهرهما.

^{١٤} أصيب بالصمم.

«جَحْوَانُ» يَقُولُ:

أَحْسَنْتَ إِذْ أَتَيْتَا أَنْعِمَ بِمَا فَعَلْتَا

«جُحَيَّةُ»، وَ«جَحْوَانُ» يُنْشِدَانِ:

حِمَارَنَا الظَّرِيفَا	الْوَادِعَ اللَّطِيفَا
لَسْتَ تُلَاقِي عِنْدَنَا	إِلَّا السَّرُورَ وَالْهَنَا
مُنْذُ حَلَلْتَ بَيْتَنَا	أَصْبَحْتَ فِيهِ ضَيْقَنَا
تَنَامُ فَوْقَ فَرْشٍ	مُنْمَنَمٍ مِنْ قَشٍ
تَطْعَمُ خَيْرَ مَأْكَلٍ	مُنْخَلٍ مُغْرَبِلٍ
نُهِدِي إِلَيْكَ سَكَّرَهُ	مَعَ الشَّعِيرِ وَالذَّرَهُ
مِنْكَ الْقَلِيلُ تَبَذَّلُهُ	لَكَ الْكَثِيرُ تَأْكُلُهُ
لَا تَحْزَنَنَّ، وَلَا تَخَفْ	سَوْفَ نَضَاعِفُ الْعَلْفُ

ابْتَهَجَ الْحِمَارُ، وَابْتَهَجَ مَعَهُ كُلُّ مَنْ فِي الدَّارِ. أَصْبَحَ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — أَهْلًا لِإِعْجَابِ الْجَمِيعِ، لَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ. أَصْبَحَ شَيْئًا آخَرَ. كَانَ مِثَالُ الشَّرَاسَةِ وَالْعُنْفِ، أَصْبَحَ مِثَالُ السَّلَاسَةِ وَاللُّطْفِ. أَصْبَحَ مُتَانِقًا تَرْهُوهُ نِظَافَتُهُ، وَتُمَيِّزُهُ وَدَاعَتُهُ وَدِمَائَتُهُ. كَانَ الْقِصَاصُ شِفَاءً لَهُ مِنْ قَسَوْتِهِ، وَهَدَايَةً لَهُ مِنْ شَقَاوَتِهِ. حَسْبُهُ الْآنَ مَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ حَمِيدِ الصِّفَاتِ.

بَالِغَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي الْعِنَايَةِ بِحِمَارِهِ، أَعَدَّ لَهُ — فِي بَيْتِهِ — مَخْرَنًا مَمْلُوءًا بِالسُّكَّرِ وَالْعَسَلِ. لَمْ يُقْصِرْ فِي مِلَاطَفَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ. لَوْ سَأَلَ «الْعُكْمُوسُ» سَائِلٌ: مَاذَا يَنْقُصُهُ مِنَ السَّعَادَةِ؟ إِذَنْ قَالَ إِنَّ أَسْعَدَ مَا يُسْعِدُ حِمَارًا مِثْلَهُ، لَوْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْسَى أَنَّهُ إِنْسَانُ!

(١٥) قَالَتْ «زُبَيْدَةُ»

أَقْبَلَ «الْعُكْمُوسُ» عَلَى الْحَشَائِشِ يَرْعَاهَا — فِي فَنَاءِ الدَّارِ — فِي هُدُوءٍ وَاطْمِئْنَانٍ. كَانَ عَلَى ظَهْرِهِ غِطَاءً طَوِيلٌ. جَلَسَ عَلَيْهِ «جَحْوَانُ» وَ«جُحَيَّةُ».

بَعْدَ قَلِيلٍ قَدِمْتُ «زُبَيْدَةُ» مِنَ الْخَارِجِ قَائِلَةً: «أَتَعْلَمَانِ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» وَيَا «أُمَّ جَحْوَانَ» — أَنَّ «الْعُكْمُوسَ» مَاتَ!»
رَفَعَ «الْعُكْمُوسُ» رَأْسَهُ حِينَ سَمِعَ النَّبَأَ. نَصَّ أُذُنَيْهِ. أَرْهَفَهُمَا؛ لِيُصْغِيَ إِلَى كُلِّ كَلِمَةٍ تَفُوهُ بِهَا.

اسْتَأْنَفْتُ «زُبَيْدَةُ» قَائِلَةً: «لَا شَكَّ فِي أَنَّ «الْعُكْمُوسَ» مَاتَ. إِذَا لَمْ يَكُنْ مَاتَ، فَهُوَ فِي عِدَادِ الْأَمْوَاتِ! إِنَّهُ — فِيمَا يَقُولُ النَّاسُ — تَغَيَّبَ فَجَاءَ، وَانْقَطَعَتْ أَنْبَاؤُهُ، وَاسْتَسَرَّتْ^{١٥} أَخْبَارُهُ. عَلِمْتُ أَنَّ الْقَاضِيَّ أَذِنَ لَوَرَثَتِهِ فِي أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَى تَرَاتِيهِ^{١٦} مُنْذُ الْيَوْمِ.»
ثَارَ «الْعُكْمُوسُ» حَانِقًا. صَيَّحَ نَاهِقًا. اسْتَوَلَى عَلَى نَفْسِهِ الْيَأْسُ، حِينَ سَمِعَ النَّبَأَ، مَدًّا إِحْدَى سَاقَيْهِ. تَفَرَّعَ وَتَلَوَّى. تَقَلَّصَ وَتَحَوَّى. كَأَنَّمَا كَانَ يُعْلِنُ — بِذَلِكَ — احْتِجَاجَهُ وَسُخْطَهُ عَلَى مَا سَمِعَ. أَخَلَّتِ الْحَرَكَةُ الْمُفَاجِئَةُ بِتَوَازُنِ الْأَخْوَيْنِ. كَادَا يَهْوِيَانِ.
أَمْسَكَ بِأُذُنَيْهِ مُتَشَبِّهَيْنِ بِكُلِّ مَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةٍ.

(١٦) خَوَاطِرُ حِمَارٍ!

أَفَاقَ الْحِمَارُ مِنْ صَدَمَةِ الْمُفَاجِئَةِ. عَاوَدَهُ الْهُدُوءُ وَالطَّمَأْنِينَةُ، بَعْدَ أَنْ اسْتَرَاحَ إِلَى الْيَأْسِ. قَالَ فِي نَفْسِهِ: «وَاحَسَرَتَا عَلَيَّ، لَمْ يَبْقَ لِي مِنْ مَرَايَا الْأُنَاسِيِّ إِلَّا الْقُدْرَةُ عَلَى مُتَابَعَةِ الْكَلَامِ، وَإِدْرَاكِ مَعَانِيهِ، وَفَهْمِ مَرَامِيهِ. لَكِنْ؛ مَاذَا يُجِدِي الْإِدْرَاكُ وَالْفَهْمُ مَعَ الْخَرَسِ وَالْعَجْزِ؟ أَيْيِ انتِفَاعٍ لِي بِمَا يَجُولُ فِي نَفْسِي مِنْ مَعَانٍ وَخَوَاطِرٍ، مَا دُمْتُ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الْإِفْصَاحِ وَالتَّعْبِيرِ؟!»

أَقْبَلَ «الْعُكْمُوسُ» عَلَى نَفْسِهِ يُحَدِّثُهَا. قَالَ: «حِينَ كُنْتُ إِنْسَانًا، كَانَتْ لِي فِي الْحَيَاةِ أَمَالٌ وَمَطَامِعٌ لَا حَدَّ لَهَا. أَلَيْسَ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يَسْتَوَلِيَ الزُّهْدُ عَلَى نَفْسِي — بَعْدَ أَنْ زَايَلْتَنِي أَدَمِيَّتِي — فِي كُلِّ مَبَاهِجِ الْحَيَاةِ وَلَذَائِذِهَا. لَمْ يَبْقَ لِي مَآرَبٌ فِي غَيْرِ الطَّعَامِ. الْآنَ

^{١٥} خفيت واستترت.

^{١٦} ثروته.

جُحَا فِي بِلَادِ الْجَنِّ

عَرَفْتُ: كَيْفَ غَنِيَتِ الْحَمِيرُ بِأَكْلِهَا وَشُرْبِهَا وَنَوْمِهَا، عَنْ كُلِّ مَا تَحْوِيهِ الدُّنْيَا مِنْ أَسْبَابِ
السَّعَادَةِ وَمَبَاهِجِ الْحَيَاةِ، مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ!«
عَادَ الْحِمَارُ إِلَى حَشَائِشِ الْأَرْضِ، يَلْتَهُمُهَا قَرِيرَ الْعَيْنِ مَسْرُورًا. رَاحَ يُحَرِّكُ ذَيْلَهُ
لِيَطْرُدَ بِهِ الذُّبَابَ. التَذُّ طَعَامُهُ وَاسْتَهْنَاهُ. أُعْجِبَ بِهِ وَاسْتَمَرَّاهُ.
مِنْ عَجِيبِ الْمَفَارِقَاتِ، أَنَّهُ لَمْ يَسْتَرِدَّ أَنَاتَهُ وَفِطْنَتَهُ، وَهُدُوءَهُ وَحِكْمَتَهُ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ
فَقَدَ إِرَادَتَهُ، وَسُلِبَ إِنْسَانِيَّتُهُ، وَأَلْفَ حِمَارِيَّتَهُ!

الفصل السابع

عَوْدَةُ «الْخَوَّارِ»

(١) حَادِثٌ لَا يُنْسَى

مَرَّتِ الْأَيَّامُ. ظَهَرَ «الْخَوَّارُ». لَقِيَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي طَرِيقِهِ مُصَادَفَةً.
لَعَلَّكَ لَمْ تَنْسَهُ، أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ. لَعَلَّكَ لَمْ تَنْسَ ذَلِكَ الْمَخْلُوقَ الدِّمِيمَ، ذَا الْعَيْنَيْنِ
الْخَضِرَاوَيْنِ، وَالشَّفَتَيْنِ الْغَلِيطَتَيْنِ.
لَعَلَّكَ لَا تَزَالُ تَذْكُرُ كَيْفَ اسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ، وَالرُّعْبُ وَالْهَلَعُ، حِينَ التَّقَتْ
عَيْنَاهُ الزُّمُرْدِيَّتَانِ بِعَيْنِي «أَبِي شَعْشَعٍ» الزُّرْقَاوَيْنِ الْيَاقُوتِيَّتَيْنِ. لَعَلَّكَ لَمْ تَنْسَ كَيْفَ غَلَبَهُ
الْجُبْنُ، فَلَاذَ بِالْفِرَارِ. كَانَ حَادِثًا لَا يُنْسَى!

(٢) حَوَّارٌ سَاخِرٌ

التَقَى «أَبُو الْغُصْنِ» بِـ «الْخَوَّارِ».
ابْتَدَرَهُ «الْخَوَّارُ» يَسْأَلُهُ مُتَخَابِتًا: «هَا هَا! كَيْفَ أَنْتَ؟ أَيْنَ صَاحِبُكَ؟»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَيُّ صَاحِبٍ تَعْنِي؟»
قَالَ «الْخَوَّارُ»: «مَا عَنَيْتُ غَيْرَ الشَّيْخِ الطَّاعِنِ فِي السَّنِّ، الْمُتَنَاهِي فِي الدَّمَامَةِ وَالْقَصْرِ.
كَانَ يَتَعَسَّى مَعَكَ، حِينَ قَدِمْتُ عَلَيْكَ فِي بَيْتِكَ لِأُعَاتِبَكَ فِي أَمْرِ الْعُكْمُوسِ.»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «الآنَ عَرَفْتُ مَنْ تَعْنِيهِ. مَا أَفْدَحَ خَسَارَتَكَ، حِينَ حُرِمْتَ لِقَاءَهُ.
فَاتَكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ، يَا حَوَّارُ.»
قَالَ «الْخَوَّارُ»: «أَهُوَ مِنْ زُمَلَانِنَا وَأَبْنَاءِ مَهْنَتِنَا؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» مُتَهَكِّمًا: «هُوَ خَبِيرٌ بِالذَّقِيقِ، بَارِعٌ فِي الْغَرْبَلَةِ، يَعْرِفُ كَيْفَ يَفْصِلُ الْحَبَّةَ الْحَيَّةَ مِنَ الْحَبَّةِ الْفَاسِدَةِ! سَافَرَ مُنْذُ حِينٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

اطْمَأَنَّ «الْخَوَّارُ» لِسَفَرِ «أَبِي شَعْشَعٍ». تَطَلَّقَ وَجْهُهُ سُورًا وَبِشْرًا.

قَالَ «الْخَوَّارُ»: «هَآ. هَآ! أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوَفِّقَهُ فِي سَفَرِهِ وَيَرْعَاهُ. كَيْفَ عِلْمُكَ بِ«الْعُكْمُوسِ»؟ هَلْ مِنْ جَدِيدٍ؟ أَصَحِيحٌ أَنَّهُ تَرَدَّى^١ فِي بئرٍ؟»

سَأَلَهُ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَتَقُولُ: تَرَدَّى فِي بئرٍ؟»

أَجَابَهُ «الْخَوَّارُ»: «هَذَا بَعْضُ مَا يُقَالُ. ذَاعَ فِي أَرْجَاءِ الْمَدِينَةِ أَنَّهُ تَرَدَّى فِي بئرٍ. بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْ دَارِ الْحَاكِمِ. فَبَحَّ اللَّهُ «الْعُكْمُوسُ»! مَا أَجْدَرُهُ، لَوْ صَحَّ الْخَبَرُ، بِهِذِهِ الْمِيتَةِ الشَّنْعَاءِ. لَعَلَّ وَرَثَتَهُ نَعَمُوا بِتَرَاتِهِ^٢ بَعْدَ هَلَاكِهِ.

هَآ أَنْتَ ذَا تَرَى — يَا عَزِيزِي — أَنَّهُ لَا يَنْجَحُ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا أَفَاضِلُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ مِنْ أَمْثَالِي وَأَمْثَالِكَ. بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — وَأَعَادَ إِلَيْكَ ثَرَوَتَكَ الْمَفْقُودَةَ كَامِلَةً، بَلْ مُضَاعَفَةً.

شَدَّ مَا أَسْعَدَنِي مَا أَظْفَرَكَ اللَّهُ بِهِ مِنْ رَغَادَةٍ وَهَنَاءَةٍ. خَبَّرَنِي، أَيُّهَا الْأَخُ الْعَزِيزُ: أَلَسْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَالٍ؛ فَأَقْدَمَهُ إِلَيْكَ شَاكِرًا مَسْرُورًا. مِثْلَكَ — يَا أَخِي — بِكُلِّ فَضْلٍ جَدِيرٍ».

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي نَفْسِهِ: «بَخٍ بَخٍ، أَيُّهَا الْمُخَادِعُ الْكَبِيرُ. هَكَذَا يُقْبَلُ النَّاسُ عَلَى مَعُونَتِكَ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — كُلَّمَا ازْدَدَتْ عَنْهُمْ غِنَى. فَإِذَا شَعَرُوا — يَوْمًا — بِحَاجَتِكَ إِلَيْهِمْ وَلَوْ عَنْكَ مُدْبِرِينَ، وَنَفَرُوا مِنْكَ هَارِبِينَ».

(٣) أَقْدَاخٌ مَسْمُومَةٌ

أَلَحَّ «الْخَوَّارُ» عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ» أَنْ يَتَفَضَّلَ بِقَبُولِ دَعْوَتِهِ إِلَى الْغَدَاءِ.

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» وَاثِقًا مِنْ غَدْرِ «الْخَوَّارِ» وَسُوءِ نِيَّتِهِ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي قَبُولِ دَعْوَتِهِ. ضَاعَفَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ حَذَرِهِ وَيَقْطَعَتِهِ، حَتَّى لَا يَأْخُذَهُ عَدُوُّهُ عَلَى غِرَّتِهِ.

^١ سقط.

^٢ ما خلفه لهم.

أَعَدَّ «الْحَوَّارُ» لِصَاحِبِهِ قَدَحًا، مَلَأَهُ بِشَرَابِ التُّفَّاحِ. قَدَّمَهُ إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ»، بَعْدَ أَنْ دَسَّ^٣ فِيهِ قَطْرَاتٍ مِنَ السَّمِّ الزُّعَافِ تَكْفِي لِقَتْلِ أُسْرَةٍ مِنَ الْفِيلَةِ، بَلَّهَ الْأَدَمِيِّينَ! لَمْ يَنْخَدِعْ «أَبُو الْغُصْنِ». أَدْرَكَ مِنْ سِيمَاهُ،^٤ مَا يَقْصِدُ إِلَيْهِ وَيَتَوَخَّاهُ. لَجَأَ إِلَى «مُصْبَاحِ الْكَنْزِ». طَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يُفْرِغَ مَا فِي الْقَدَحِ، دُونَ أَنْ يَفْطِنَ «الْحَوَّارُ» إِلَيْهِ. تَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ، تَظَاهَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِقَبُولِ اقْتِرَاحِهِ. تَظَاهَرَ بِشُرْبِ الْقَدَحِ. لَمْ تَكُنْ فِيهِ قَطْرَةٌ وَاحِدَةٌ.

عَجِبَ «الْحَوَّارُ» مِمَّا رَأَى. قَدَّمَ لَهُ قَدَحًا بَعْدَ قَدَحِ. خَابَ فَأَلَّ «الْحَوَّارِ». كَانَ الْمِصْبَاحُ يُفْرِغُ مَا فِي الْأَقْدَاحِ. نَفَذَتْ^٥ الزُّجَاجَةُ.

اسْتَوْلَتْ الدَّهْشَةُ عَلَى «الْحَوَّارِ». اشْتَدَّ بِهِ الْغَضَبُ. كَادَ قَلْبُهُ يَنْشَقُّ مِنَ الْغَيْظِ. لَمْ يَدْرِ كَيْفَ عَجَزَ السَّمُّ الزُّعَافُ عَنْ قَتْلِ غَرِيمِهِ! سَأَلَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» عَنْ سَبَبِ غَضَبِهِ.

لَمْ يُطِقِ «الْحَوَّارُ» صَبْرًا عَلَى الْمُدَارَاةِ. أَفْضَى إِلَيْهِ «الْحَوَّارُ» بِدِخْلَتِهِ^٦. سَأَلَهُ «أَبُو الْغُصْنِ»: «مَا الَّذِي أَحْفَظَكَ^٧ عَلَيَّ، بِغَيْرِ ذَنْبٍ جَنَيْتُهُ؟» قَالَ «الْحَوَّارُ»: «كَيْفَ تَنْسَى إِسَاءَتَكَ إِلَيَّ؟»

سَأَلَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» مُتَعَجِّبًا: «مَا أَذْكَرُ أَنْنِي أَسْلَفْتُ إِلَيْكَ إِسَاءَةً طُولَ حَيَاتِي!» قَالَ «الْحَوَّارُ»: «لِمَاذَا أَحَبَّكَ النَّاسُ وَأَبْغَضُونِي؟ لِمَاذَا خَصُّوكَ بِالْمَدِيحِ وَشَتَمُونِي؟ لِمَاذَا يُحَالِفُكَ الْفُوزُ وَالنَّجَاحُ، وَيُلَاحِقُنِي الْخِذْلَانُ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ؟ كَيْفَ يَظَلُّ هَذَا دَائِي وَدَائُكَ مُنْذُ طُفُولَتِنَا إِلَى الْيَوْمِ؟! ذَلِكَ سِرٌّ كَرَاهِيَّتِي لَكَ، وَحَفِيظَتِي عَلَيْكَ. هَكَذَا نَشَأُ بُغْضُكَ فِي قَلْبِي، مُنْذُ نَشَأَتْنَا الْأُولَى، إِلَى أَنْ بَلَّغْنَا سِنَّ الْفُتُوَّةِ، وَالشَّبَابِ وَالْقُوَّةِ.

^٣ أخفى.

^٤ عرف من مرآه.

^٥ فرغت.

^٦ أخبره بخافي سره.

^٧ جعلك تحقد.

لَمْ أَجِدْ شِفَاءً لِنَفْسِي — مِنْ حَقْدِهَا عَلَيْكَ — فِي غَيْرِ إِحْرَاقِ دَارِكَ، وَمَخَزَنِ تَجَارَتِكَ.
لَكِنْ حَدَّثَ وَاحْسَرَتَاهُ، عَكْسُ مَا أَتَمَّنَاهُ! كُتِبَتْ لَكَ السَّلَامَةُ، وَنَجَوْتَ مِنَ الْإِفْلَاسِ. صُوعِفْتُ
ثَرَوْتُكَ، وَسَمَّا قَدْرُكَ بَيْنَ النَّاسِ.

كَيْفَ أَقَاوِمُ هَذَا الْبَلَاءِ، وَأَخْلَصُ نَفْسِي مِنْ جَحِيمِ الشَّقَاءِ. أُعِدَدْتُ لَكَ سَمًّا نَاقِعًا،
تَكْفِي قَطْرَةً مِنْهُ لِقَتْلِ فِيلٍ. مَا أَدْرِي كَيْفَ سَلِمْتَ، بَعْدَ مَا تَجَرَّعْتَهُ مِنَ السَّمِّ؟ لَوْ أَنَّ لَكَ
مَعْدَةَ نِعَامَةٍ لَمَا نَجَوْتَ. كَيْفَ، وَأَنْتَ إِنْسَانٌ؟! هَنِيئًا لَكَ النِّجَاةُ مِنْ هَلَكَ مُحَقِّقٍ. لَا رَيْبَ
أَنَّ اللَّهَ يَزْعَاكَ، وَيَحْفَظُكَ بِعَنَائِيَّتِهِ وَيَبُولَاكَ!

(٤) حُلَّةُ الْهَلَاكِ

اسْتَأْنَفَ «الْخَوَّارُ» قَائِلًا: «عُدْ إِلَى بَيْتِكَ سَالِمًا غَانِمًا، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». اغْفِرْ لِي مَا هَمَمْتُ
بِهِ مِنْ إِيْذَانِكَ. عُدْ إِلَى سَابِقِ وُدِّكَ وَصَفَائِكَ. تَقَبَّلْ هَذِهِ الْحُلَّةَ النَّفِيسَةَ؛ عَرَبُونًا لِقَابِلِ
وُدِّنَا، وَصَادِقِ إِحَاثِنَا».

مَشَى «الْخَوَّارُ» إِلَى صَوَانٍ قَرِيبٍ. فَتَحَ الصَّوَانَ. أَخْرَجَ مِنْهُ حُلَّةً فَخْمَةً. تَظَاهَرَ
بِالْإِبْتِسَامِ. كَانَ الْحَقْدُ يَكَادُ يَأْكُلُ قَلْبَهُ.

كَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَنْ تَعُودَ سَالِمًا إِلَى بَيْتِكَ. لَنْ تُخَفِّقَ مُحَاوَلَتِي —
فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — أَبَدًا. الْأَنْ يَلْتَهَبُ جِسْمُكَ بِفَضْلِ هَذِهِ الْحُلَّةِ الْقَاتِلَةِ، كَمَا يَلْتَهَبُ عُوْدُ
الثَّقَابِ! الْأَنْ يَحْتَرِقَ جِسْمُكَ كَمَا احْتَرَقَ بَيْتُكَ!»

لَمْ يَنْخَدِعْ «أَبُو الْغُصْنِ» بِمَا يُبْدِيهِ «الْخَوَّارُ» مِنْ بَشَاشَةٍ زَائِفَةٍ. أَدْرَكَ أَنَّ فِي طَيِّ
الْهَدْيَةِ، مَكِيدَةَ مَسْتُورَةٍ خَفِيَّةٍ.

حَاوَلَ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنْ يَعْتَذِرَ عَنْ رَفْضِهَا. رَأَى «الْخَوَّارُ» يُلِحُّ فِي تَقْدِيمِهَا، وَيَهْمُ
بِالْقَائِئِهَا عَلَيْهِ. رَأَى يَسْتَعِدُّ لِشَعَالِهَا بَعْدَ أَنْ يُلْقَى بِهَا عَلَى جَسَدِهِ. أَدْرَكَ مَقْصِدَهُ الْخَبِيثَ.
اسْتَنْجَدَ بِالْمُصْبَاحِ هَامِسًا: «أَيَّتُهَا الْحُلَّةُ: اسْتَعْلِي فِي يَدَيِ حَامِلِكِ، وَأَحْرِقِي أَنْامِلَهُ.»^٨

^٨ رءوس أصابعه.

سُرْعَانَ مَا اسْتَعَلَّتِ الْحُلَّةُ، وَأَحْرَقَتْ أَنْامِلَ «الْحَوَارِ». تَمَلَّكَ «الْحَوَارِ» الذُّهُولُ. صَرَخَ مُسْتَنْجِدًا. كَانَ صِيَاحُهُ أَشْبَهَ بِحَوَارِ الْبَقَرِ.
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «مَا أَجْدَرَ «الْحَوَارِ» أَنْ يَكُونَ بَقَرَةً. لَعَلَّ ضَرَّهُ يَنْقَلِبُ إِلَى نَفْعٍ، كَمَا حَدَّثَ لِصَاحِبِهِ «الْعُكْمُوسُ».
أَمْسَكَ بِالْمُضْبَاحِ هَامِسًا: «مَا أُحَوِّجُنِي إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الرَّجَاءِ!»

(٥) الْبَقَرَةُ الْجَدِيدَةُ

فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ تَبَدَّلَ «الْحَوَارُ» بَقَرَةً شَقْرَاءَ، غَايَةً فِي الْأَنَاقَةِ وَالْبَهَاءِ، يَزِينُ رَأْسَهَا قَرْنَانِ جَمِيلَانِ، وَيَتَأَلَّقُ^٩ فِي وَجْهَهَا عَيْنَانِ وَاسِعَتَانِ.
أَتَرَكُ لَكَ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ — أَنْ تُمَثِّلَ لِنَفْسِكَ شُعُورَ «الْحَوَارِ» حِينَ وَجَدَ نَفْسُهُ يَتَحَوَّلُ بَقَرَةً تَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، بَعْدَ أَنْ كَانَ إِنْسَانًا يَمْشِي عَلَى قَدَمَيْنِ!

(٦) عُقْدَةُ النَّقْصِ

كَانَ «الْحَوَارُ» — عَلَى حَقَارَةِ نَفْسِهِ — مَعْرُوفًا بَيْنَ أَصْحَابِهِ وَعَارِفِيهِ بِفَرْطِ الصِّلَفِ وَالْخِيَلَاءِ، وَالْإِسْرَافِ فِي الزَّهْوِ وَالْكَرْبِيَاءِ.
لَا تَعْجَبُ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ — مِنْ اجْتِمَاعِ الضُّدَّيْنِ: الْعُجْبِ وَالضُّعَةِ. إِنَّهُمَا — عَلَى تَنَاقُضِهِمَا — قَلَّ أَنْ يَفْتَرِقَا.
تَسْأَلُنِي عَنْ سِرِّ ذَلِكَ. إِلَيْكَ جَوَابٌ مَا سَأَلْتُ: إِذَا كَمَلْتُ مَرَايَا إِنْسَانٍ وَفَضَائِلُهُ، لَمْ يَحْتِجْ إِلَى التَّظَاهُرِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ. إِذَا أَحَسَّ الْإِنْسَانُ نَقْصًا أَوْ اعْوَجَاجًا، اضْطُرَّ إِلَى مُعَالَجَتِهِ وَتَقْوِيمِهِ. إِذَا عَجَزَ عَنْ إِصْلَاحِ عَيْبِهِ، اضْطُرَّ إِلَى مُدَارَاتِهِ وَسَرِّهِ.
مَا أَكْثَرَ مَا يَدْفَعُهُ الشُّعُورُ بِالنَّقْصِ إِلَى التَّحَلِّيِّ بِمَا لَيْسَ فِيهِ، حِينَئِذٍ يُلْجَأُ إِلَى الزَّهْوِ وَالْخِيَلَاءِ، يُضَيِّفُ إِلَى نَقِيصَةِ الضُّعْفِ نَقِيصَةَ الْكَرْبِيَاءِ. كَانَ يُعَانِي نَقْصًا وَاحِدًا: أَصْبَحَ يُعَانِي نَقِيصَتَيْنِ. كَانَ عَيْبُهُ مُنْقَرِدًا، أَصْبَحَ مُزْدَوِجًا.

^٩ يلمع: يبرق.

إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ حِينَ قَالَ: «مَا تَزِيدُ مُتَزِيدٌ إِلَّا لِنَقْصٍ فِيهِ!» يَعْنِي أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَكَلَّفُ الزِّيَادَةَ، وَلَا يَتَطَاهَرُ بِأَكْثَرِ مَنْ حَقِيقَتِهِ، إِلَّا إِذَا شَعَرَ بِنَقْصِهِ وَعَجَزِهِ.

فِي هَذَا الْمَعْنَى، يَقُولُ شَاعِرُنَا الْعَظِيمُ «أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعَرِّي»:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَصْغَرَهُمْ مَا بَانَ مِنْكَ عَلَيْهِمْ كِبَرُ!

(٧) مِقْوَدُ الْبَقَرَةِ

نَعُودُ بِكَ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ — إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ»، وَصَاحِبِهِ «الْخَوَّارِ»؛ لِنَتِمَّ مَا بَدَأْنَاهُ مِنْ حَدِيثٍ.

مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، تَوَارَى «الْخَوَّارُ» مِنَ الْوُجُودِ. حَلَّتْ مَكَانَهُ بَقَرَةٌ شَقْرَاءُ، مُعْجَبٌ لَوْنُهَا، تَسُرُّ النَّاضِرِينَ.

تَحَفَزَ «الْخَوَّارُ» لِلانْتِقَامِ.

أَدْرَكَ «أَبُو الْغُصْنِ» مَا يَدُورُ بِخَاطِرِهِ مِنْ نَوَازِعِ الشَّرِّ. تَلَفَّتْ «أَبُو الْغُصْنِ» حَوْلَهُ. رَأَى حَبَلًا فِي بَعْضِ أَرْكَانِ الدَّارِ. لَعَلَّ «الْخَوَّارَ» أَحْضَرَهُ لِيَكْتِفَهُ بِهِ، إِذَا حَانَتِ الْفُرْصَةُ. فَرَحَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِالْعُثُورِ عَلَى الْحَبْلِ. شَدَّهُ إِلَى عُنُقِ «الْخَوَّارِ»؛ شَدَّهُ فِي عُنُقِ الْبَقَرَةِ الْخَوَّارَةِ، عَلَى الْأَصْحَ! هَمَّ «الْخَوَّارُ» أَنْ يَضْرِبَ «أَبَا الْغُصْنِ»، لِفِرْطِ حَقْدِهِ عَلَيْهِ. خَشِيَ الْعَاقِبَةَ. كَانَ مَا حَلَّ بِهِ مِنْ عِقَابٍ كَافِيًا لِرَجْرِهِ ...

مَا أَعْجَبَ مَا حَدَثَ! مُنْذُ لَحَظَاتٍ، كَانَتِ الْبَقَرَةُ الْخَوَّارَةُ إِنْسَانًا يَجْمَعُ بَيْنَ الْقِسْوَةِ وَعَدَمِ الْمُبَالَاةِ بِالْعَوَاقِبِ. شَدَّ مَا تَغَيَّرَ طَبْعُهَا الْآنَ. بَعْدَ أَنْ انْتَقَلَتْ مِنَ الْأَدَمِيَّةِ إِلَى الْبَقَرِيَّةِ. أَصْبَحَتْ بَقَرَةً وَادِعَةً تَتَدَبَّرُ الْعَوَاقِبَ، وَتَحْسِبُ لِكُلِّ شَيْءٍ حِسَابَهُ.

صَلَحَ «الْخَوَّارُ»؛ كَمَا صَلَحَ — مِنْ قَبْلِهِ — «الْعُكْمُوسُ»، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ كِلَاهُمَا مِنَ الْأَدَمِيَّةِ إِلَى الْحِمَارِيَّةِ وَالْبَقَرِيَّةِ. انْقَلَبَ شَرُّهُمَا خَيْرًا، وَضَرُّهُمَا نَفْعًا!

(٨) فَرْحَةُ الْأُسْرَةِ

لَا تَسَلْ عَنْ فَرْحٍ «رَبَابَةٍ» وَوَلَدَيْهَا وَ«زُبَيْدَةَ» جَارَتِهَا، عِنْدَمَا رَأَوْا الْبَقَرَةَ السَّمِينَةَ الْجَدِيدَةَ. ابْتَدَرُوا «أَبَا الْغُصْنِ» قَائِلِينَ: «شَدَّ مَا أَحْسَنْتَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»، إِذْ أَحْضَرْتَ لَنَا بَقَرَةً نَافِعَةً، تَدُرُّ لَبَنًا كَثِيرًا، وَتَمْلَأُ الْبَيْتَ أَقْطًا»^{١٠} وَقَشْدَةً وَسَمْنًا! شَعَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِاشْمِئْزَازٍ، حِينَ تَمَثَّلَ الْجُبْنُ وَالسَّمْنُ وَالْقَشْدَةُ تُصْنَعُ مِنْ لَبَنِ هَذِهِ الْبَقَرَةِ!

كَتَمَ «أَبُو الْغُصْنِ» اِشْمِئْزَازَهُ وَلَمْ يُعْلِنْهُ. قَالَ لِنَفْسِهِ: «إِنَّهُ شُعُورُ شَخْصِي، لَيْسَ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ أُنْقَلَهُ إِلَيْهِمْ، وَلَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ أَنْ يَشْرِكُونِي فِيهِ. لَوْ تَبَيَّنَ النَّاسُ حِكْمَةَ اللَّهِ — سُبْحَانَهُ — حِينَ حَبَبَ عَنْهُمْ مَصَائِرِهِمْ، إِضَاعَفُوا الشُّكْرَ عَلَى رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ. كَمْ مِنْ أَشْيَاءَ حَبَّبَتْهَا أَسْتَارُ غَيْبِ اللَّهِ عَنْ عِلْمِنَا، رَحْمَةً بِنَا! لَوْ كُشِفَتْ لَنَا مَصَائِرُهَا قَبْلَ أَوَانِهَا، لَأَصْبَحَتْ حَيَاتُنَا جَحِيمًا!»

دَرَّتِ «الْخَوَارَةُ» لَبَنًا كَثِيرًا. مَلَأَتْ بَيْتَهُمْ خَيْرًا عَمِيمًا. كَانَ مَا تُخْرِجُهُ مِنَ اللَّبَنِ، يَزِيدُ عَلَى مَا تُخْرِجُهُ ثَلَاثُ بَقَرَاتٍ، كَمَا وَكِفًا^{١١}. أَقْبَلَتْ «جُحِيَّةُ» عَلَى الْبَقَرَةِ تَتَعَهَّدُهَا بِالْعِنَايَةِ. أَقْبَلَ «جَحْوَانُ» عَلَى الْحِمَارِ يَتَعَهَّدُهُ بِالرَّعَايَةِ. تَعَلَّمَتْ «جُحِيَّةُ» مِنْ «زُبَيْدَةَ» كَيْفَ تُعَدُّ الْعَلْفَ، وَتُنْتَظَفُ الزَّرِيْبَةُ، وَتَجْلُبُ الْحَشَائِشُ الْخَضَرَ إِلَيْهَا.

كَانَ مِنْ دَوَاعِي الْبُهْجَةِ وَالْإِنْشِرَاحِ أَنْ تَنْشُطَ الطِّفْلَةُ الصَّغِيرَةُ — كُلُّ صَبَاحٍ — إِلَى الْعِنَايَةِ بِالدَّابَّةِ الْكَبِيرَةِ، فِي سُرُورٍ وَارْتِيَاحٍ!

كَانَتْ الْبَقَرَةُ لَا تُخْفِي إِعْجَابَهَا بِالطِّفْلَةِ الْكَرِيمَةِ وَشُكْرَهَا. اشْتَدَّ أَنْسُ الْبَقَرَةِ بِصَاحِبَتِهَا. أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا تَمُدُّ رَأْسَهَا، وَتَضَعُهُ مُتَلَطِّفَةً عَلَى كَتِفِ حَارِسَتِهَا، وَتُعْلِنُ — بِخَوَارِهَا الْعَالِي — شُكْرَهَا.

^{١٠} جنبًا.

^{١١} كثرة وجوده.

لَمْ يَكُنْ لِلْبَقَرَةِ وَسِيلَةً لِلتَّعْبِيرِ عَنِ ابْتِهَاجِهَا وَعِرْفَانِهَا بِجَمِيلِهَا — بَعْدَ أَنْ حُرِمَتْ
الْقُدْرَةَ عَلَى الْكَلَامِ — غَيْرِ الْحَوَارِ.

بَعْدَ قَلِيلٍ، التَّقَى «الْعُكْمُوسُ» وَ«الْحَوَارُ». سُرْعَانَ مَا تَبَادَلَا نَظَرَاتِ الرَّيْبِ وَالشَّكِّ. كَأَنَّمَا
تَبَيَّنَ كِلَاهُمَا أَنَّ صَاحِبَهُ رُبَّمَا كَانَ مِثْلَهُ إِنْسَانًا، انْتَقَلَ — بِسِحْرِ سَاحِرٍ — إِلَى غَيْرِ
صُورَتِهِ، وَتَبَدَّى عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ. لَكِنَّهُمَا عَاجِزَانِ عَنِ الْكَلَامِ. أَنَّى لَهُمَا أَنْ يَتَعَرَّفَ
كِلاهُمَا مَا يَدُورُ بِذَهْنِ صَاحِبِهِ.

عَلَى تَوَالِي الْأَيَّامِ جَمَعَتْ بَيْنَهُمَا الْأُلْفَةُ شَيْئًا فَشَيْئًا. حَلَّ الْإِيْنَسُ مَحَلَّ الْوَحْشَةِ.
أَصْبَحَا يَلْتَقِيَانِ فِي أَكْثَرِ الْأَحْيَانِ. تَزَايَلِ الْأَسْفُ مِنْهُمَا وَالْأَلَمُ. حَلَّ مَكَانَهُمَا الرِّضَى؛ بِمَا
قَضَى اللَّهُ بِهِ وَقَسَمَ. اسْتَسْلَمَا لِمَصِيرِيهِمَا. مَرْنَا عَلَى أُلْفَةٍ حَيَاتِيهِمَا.
كَثِيرًا مَا عَلَا — فِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ — نَهيقُ الرِّضَى، وَخَوَارُ الشُّكْرِ فِي وَقْتِ مَعَا! مَا
أَصْدَقَ الْمُتَنَبِّي، فِي قَوْلِهِ:

كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَنَدِ — فُفْسِ، سَهْلٌ فِيهَا؛ إِذَا هُوَ كَانَا!

(٩) بَعْدَ عَامٍ

عَاشَ «أَبُو الْغُصْنِ» بَعْدَ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ، هَادِيئَ النَّفْسِ نَاعِمَ الْبَالِ سَارَتِ أُمُورُهُ عَلَى مَا
يُرَامُ، قُرَابَةً عَامٍ.

حَالَفَهُ التَّوْفِيقُ، نَمَتْ ثَرَوَتُهُ. اتَّسَعَتْ تِجَارَتُهُ. أَصْبَحَ مِنْ كِبَارِ أَغْنِيَاءِ عَصْرِهِ. أَقْبَلَ
عَلَيْهِ الدَّهْرُ أَيَّمَا أَقْبَالٍ. ابْتَسَمَ لَهُ عَابِسُ الْأَمَالِ.

أَتَظَنُّهُ — بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ — كَانَ أَسْعَدَ حَالًا، وَأَقَرَّ عَيْنًا وَأَهْدَأَ بَالًا؟

سَتَقُولُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ: «لَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ وَلَا مَرَاءَ. مَاذَا يُرِيدُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ —
بِفَضْلِ السَّاحِرِ الْجَنِّيِّ الْكَرِيمِ — فَوْقَ مَا يَتَمَنَّاهُ مِنْ سَعَادَةٍ وَهُدُوءٍ بِالٍ؟ مَاذَا يُؤْمَلُ،
بَعْدَ أَنْ اجْتَمَعَتْ لَهُ أَسْبَابُ الرِّخَاءِ وَجَالِبَاتُ الْبَهْجَةِ وَالْهَنَاءِ؟»

(١٠) دَوَاعِي الْهُمُومِ

لَعَلَّكَ تَدَهَّشُ إِذَا قُلْتَ لَكَ: إِنَّ «أَبَا الْغُصَنِ» — بِرَغَمِ هَذَا كُلِّهِ — كَانَ كَاسِفَ الْبَالِ، مُنْغَصَّ الْقَلْبِ، شَارِدَ اللَّبِّ. ضَيَّقَ الصَّدْرَ، كَثَّرَ الْحَسْرَةَ، سَاهَمَ النُّظْرَةَ!
تُرى: مَا سَبَّبَ انْقِبَاضَهُ وَهُمُومَهُ، وَمَصْدَرُ انْزِعَاجِهِ وَمَبْعَثُ وُجُومِهِ؟! كَانَ مُتَأَلِّمًا لِمَا أَصَابَ غَرِيمِيهِ: «الْعُكْمُوسَ» وَ«الْخَوَارَ» عَلَى يَدَيْهِ. كَانَ مَحْزُونًا لِمَا حَلَّ بِهِمَا، بَعْدَ أَنْ نَقَلَهُمَا لُوْمُهُمَا وَشَرَّاسَتُهُمَا وَسُوءَ طَبْعِهِمَا إِلَى عِدَادِ الدَّوَابِّ. كَانَ مَالُومًا لِفَقْدِهِمَا، وَجَرْمَانِهِمَا تَفْكِيرُهُمَا، وَحُرِّيَّتَهُمَا وَنُطْقَهُمَا.
لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ — عَدَا «أَبَا الْغُصَنِ» عَارِفًا بِسِرِّهِمَا وَحَقِيقَةِ أَمْرِهِمَا. كَانَ «أَبُو الْغُصَنِ» — كَمَا عَلِمْتَ — وَاسِعَ الصَّدْرِ، رَاضِي النَّفْسِ، لَا تَنَالُ مِنْهُ الْخُطُوبُ وَالْمَصَائِبُ مَنَالًا. لَكِنَّهُ كَانَ — عَلَى ذَلِكَ — يَقِظَ الضَّمِيرِ، مُرْهَفَ الْحِسِّ، مُسْتَوْفِرَ الشُّعُورِ.

كَانَ يُحِبُّ الْخَيْرَ لِلنَّاسِ. كَانَ يَحْتَمِلُ الْأَذَى فِي سَبِيلِ إِسْعَادِهِمْ. كَانَ لَا يَجْزَعُ لِمَا يَحُلُّ بِهِ مِنْ كَوَارِثٍ وَمَحَنٍ، بِقَدْرِ مَا كَانَ يَشْتَدُّ بِهِ الْجَزَعُ إِذَا أَصَابَ غَيْرَهُ أَقْلٌ أَدَى.
طَالَمَا سَأَلَ نَفْسَهُ مُتَأَلِّمًا: «وَا عَجَبًا لَكَ، يَا «أَبَا الْغُصَنِ»! هَلَّا أَخَذْتَ بِالصَّفْحِ، وَاعْتَصَمْتَ بِالْحِلْمِ! كَيْفَ أَسْلَمْتَ قِيَادَكَ لِلْغَضَبِ. كَيْفَ انْدَفَعْتَ فِي مَيْدَانِ الْأَذْيَةِ وَالشَّرِّ؟ كَيْفَ آثَرْتَ^{١٢} الْإِنْتِقَامَ، وَتَنَكَّبْتَ طَرِيقَ الْخَيْرِ؟! كَيْفَ قَابَلْتَ السَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا، وَلَمْ تَجِرْ — عَلَى عَادَتِكَ — فِي دَفْعِهَا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؟ أَلَمْ يَكُنِ الْعَفْوُ أَوَّلَى بِكَ وَأَجْدَرُ؟
مَا كَانَ ضَرَرَكَ لَوْ مَنَنْتَ وَتَجَاوَزْتَ عَنْ مَكْرِهِمَا، وَتَغَاضَيْتَ عَنْ إِسَاءَتَيْهِمَا؟ مَا كَانَ أَجْدَرَكَ أَنْ تَجْرِيَ عَلَى مَالُوفِ عَادَتِكَ، فَتَأْخُذَهُمَا بِالْحُسْنَى، وَتُعَامِلَهُمَا بِالصَّفْحِ، وَتَدْفَعَ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ، وَتُقَابِلَ الْإِسَاءَةَ بِالتَّجَاوُزِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْمُقْدِرَةِ؟! هَلَّا قَابَلْتَ النُّعْمَةَ بِالصَّفْحِ وَالشُّكْرِ، وَالتَّرَفُّعَ عَنِ الْأَذَى وَالضَّرِّ؟»

كَانَ «أَبُو الْغُصَنِ» عَلَى حَقٍّ فِيمَا رَأَى. كَانَ الْعَامُ الَّذِي قَضَاهُ التَّاعِسَانِ — فِي حَظِيرَةِ الدَّوَابِّ — تَأْدِيبًا رَادِعًا، بِمَا أَسْلَفَاهُ مِنْ ذَنْبٍ.

^{١٢} اخترت وفضّلت.

لَوْ كَانَ صَلَاحُ أَمْرِهِمَا فِي مَقْدُورِ «أَبِي الْغُصْنِ» أَوْ «مُضْبَاحِ الْكَنْزِ» لَمَا قَصَرَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي إِعَادَةِ التَّعْيِيسِ إِلَى الصُّورَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، بَعْدَ انْقِضَاءِ سَاعَةٍ، أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ. لَكِنْ هَيْهَاتَ ذَلِكَ هَيْهَاتَ! مَا أَيْسَرَ الْحَاقَ الْأَذَى، وَمَا أَصْعَبَ تَدَارُكَ أَثَارِهِ! مَا أَيْسَرَ الْوُقُوعَ فِي الْخَطَا، وَمَا أَصْعَبَ تَلَاْفِيَهُ!

كَانَتْ عَوْدَةُ الْمَسْحُورَيْنِ إِلَى صُورَتَيْهِمَا الْأُولَى تَقْتَضِيهِ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى «أَبِي شَعْشَعٍ» فِي جَزِيرَةِ «عَبْقَرٍ». لَكِنْ: أَيْنَ مِنْهُ جَزِيرَةُ «عَبْقَرٍ»؟ دُونَ بُلُوغِهَا مَصَاعِبُ وَأَهْوَالٌ. كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» يَتَرَقَّبُ زِيَارَةَ «أَبِي شَعْشَعٍ» عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ. كَانَتْ كُلُّ سَاعَةٍ تَمُرُّ بِهِ تَزِيدُهُ إِيْلَامًا وَتَعْذِيبًا. كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بِلَادِ «الْوَقُوقِ»، لِيَلْتَمَسَ مِنْ صَاحِبِهِ «أَبِي شَعْشَعٍ» أَنْ يُعِيدَ الْمَسْحُورَيْنِ إِلَى صُورَتَيْهِمَا الْأُولَى، بِفَضْلِ مَا أُوتِيَ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى السَّحْرِ. عَزَمَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى السَّفَرِ.

أَعَدَّ لَهُ «مُضْبَاحُ الْكَنْزِ» حِصَانًا فَخْمًا مُطَهَّمًا، مُسَرَّجًا مُلْجَمًا، وَجَمَلًا كَبِيرًا قَوِيًّا، عَلَيْهِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُسَافِرُ — فِي رِحْلَتِهِ — مِنْ زَادٍ وَمَتَاعٍ. أَعَدَّ لَهُ — إِلَى ذَلِكَ — حَارِسًا صَاحِيحَ الْبُنْيَةِ، فَارَعَ الطُّولِ.

لَمْ يَنْسَ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنْ يُعْطِيَ «رَبَابَةَ» «مُضْبَاحِ الْكَنْزِ» لِيَحْمِيَهَا، بَعْدَ أَنْ اَلْتَمَسَ مِنْهُ أَنْ يَحْرُسَهُ فِي حَلِّهِ وَتَرْحَالِهِ، وَيَرْعَاهُ عَلَى الْبُعْدِ، كَمَا كَانَ يَرْعَاهُ عَلَى الْقُرْبِ.

(١١) «الْمِيدَانُ»

خَرَجَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنَ الْمَدِينَةِ، يَحْرُسُهُ تَابِعُهُ «أَبُو النَّجَاءِ»، الَّذِي أَرْسَلَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ». أَخَذَا يَجِدَّانِ فِي السَّيْرِ ...

مَضَتْ أَيَّامٌ دُونَ أَنْ يَفْعَ لَهُمَا حَدِيثٌ، أَوْ يَتَعَرَّضَا لِأَذَى. بَلَغَا أَوَّلَ مَرَاجِلِ الصَّحَرَاءِ. أَنَاخَا فِي بُقْعَةٍ خَطِرَةٍ، يُطْلَقُ عَلَيْهَا اسْمُ: «الْمِيدَانِ». أَقْبَلَ اللَّيْلُ. تَرَجَّلَ^{١٣} «أَبُو الْغُصْنِ»،

^{١٣} نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ وَمَشَى.

كَمَا تَرَجَّلَ «أَبُو النَّجَاءِ». مَا إِنْ اسْتَقَرَّ بِهِمَا الْمَقَامُ حَتَّى أَسْرَعَ «أَبُو النَّجَاءِ» إِلَى الْخِيْمَةِ فَأَقَامَهَا، وَإِلَى الْحِصَانِ وَالْجَمَلِ فَرَبَطَهُمَا فِي وَتَدَيْنِ، بَعْدَ أَنْ تَبَتَّهْمَا فِي الْأَرْضِ.
لَمْ يَتَوَانَ «أَبُو النَّجَاءِ» فِي إِحْضَارِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَفُرْشٍ.
جَلَسَ «أَبُو الْغُصْنِ» يَتَعَشَّى. انْتَهَى مِنْ زَادِهِ. رَأَى سَرِيرًا مِنَ الْقَشِّ الْجَافِّ أَعَدَّهُ لَهُ «أَبُو النَّجَاءِ». اسْتَسْلَمَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِنَوْمٍ هَادِيٍّ عَمِيقٍ. كَانَتْ عَيْنُ اللَّهِ تَكْلُوهُ^{١٤} وَتَرَعَاهُ.

نَعُودُ إِلَى «رَبَابَةِ» ... شَعَرْتُ — بَعْدَ سَفَرِ زَوْجِهَا — بِوَحْشَةٍ شَدِيدَةٍ. قَضَتْ يَوْمَهَا — عَلَى غَيْرِ عَادَتِهَا — مُتَأَلِّمَةً مَحْزُونَةً.
بَعْدَ قَلِيلٍ خِيَمَ الظَّلَامُ عَلَى الْمَدِينَةِ وَسَاكِنِيهَا. أُطْفِئَتِ الْأَنْوَارُ. سَكَنَتِ الْجَلْبَةُ وَالضُّوْضَاءُ. سَادَ الصَّمْتُ. تَلَالَتْ النُّجُومُ فِي السَّمَاءِ. كَانَتْ الْكِلَابُ تُرْدُدُ نُبَاحَهَا، كُلَّمَا طَرَقَ أَذَانُهَا صَوْتُ، أَوْ أَحَسَّتْ نَافِثَةً،^{١٥} أَوْ شَعَرَتْ بِقَادِمٍ.
أَوْحَشَ^{١٦} بَيْتُ «أَبِي الْغُصْنِ». جَلَسَتْ «رَبَابَةُ» أَمَامَ مِغْرَلِهَا؛ بَعْدَ أَنْ نَامَ وَلَدَاهَا وَجَارَتُهَا. ظَلَّتْ تُفَكِّرُ فِي الْغَائِبِ الَّذِي كَانَ يَمْلَأُ بَيْتَهَا بِهَجَّةٍ وَسَعَادَةٍ. كَانَتْ تَغْزِلُ، وَتُسَلِّي نَفْسَهَا بِالْأَنْشُودَةِ التَّالِيَةِ:

يَا طَيْرُ، يَا أَشْجَارُ، يَا رَوْضَةَ	فِيهَا — مِنَ الْفِرْدَوْسِ — أَزْهَارُ
يَا حَيْطُ، يَا إِبْرَةَ، يَا مِغْرَلِي،	يَا نَجْمُ، يَا كَوْكَبُ، يَا دَارُ
يَا نَحْلُ: طَنِّي، وَأَمْلِئِي مِسْمَعِي	وَحَدِّثِي قَلْبِي: مَتَى سَارُوا؟
سَافَرَ رَبُّ الْبَيْتِ عَنْ دَارِهِ	وَقَدْ حَلَّتْ — مِنْ أُنْسِهِ — الدَّارُ!

* * *

عِنَايَةُ اللَّهِ وَتَوْفِيقُهُ وَلُطْفُهُ، صَحْبُ وَسَمَارُ

^{١٤} تحرسه.

^{١٥} صوتًا ضعیفًا.

^{١٦} خلا من ساكنيه.

وَالشَّمْسُ، وَالْبَذَرُ، وَنَجْمُ السَّمَاءِ
يَا نَحْلُ: طِنِّي، وَامْلِئِي مِسْمَعِي
تَحُوطُهُ مِنْهُنَّ أَنْوَارُ
وَحَدِّثِي قَلْبِي: مَتَى سَارُوا؟
وَأَوْحَشْتُ - مِنْ بَعْدِهِ - الدَّارُ!

* * *

يَا وَرْدُ، يَا رِيحَانُ، يَا نَرْجِسًا
يَا نُورَ دَارِي وَفُؤَادِي مَعًا،
يَا نَحْلُ: طِنِّي، وَامْلِئِي مِسْمَعِي
سَافَرَ رَبُّ الدَّارِ عَنْ دَارِهِ
يَحْفُهُ نُورٌ وَأَنْوَارُ
قَدْ فَرَّقْتَنَا عَنْكَ أَقْدَارُ
وَحَدِّثِي قَلْبِي: مَتَى سَارُوا؟
وَأَظْلَمْتُ - مِنْ بَعْدِهِ - الدَّارُ!

* * *

عَادَ فَرَاغًا كُلُّ شَيْءٍ هُنَا
مَتَى يَرَى الدَّارَ وَسُكَّانَهَا؟
يَا نَحْلُ: طِنِّي، وَامْلِئِي مِسْمَعِي
سَافَرَ رَبُّ الدَّارِ عَنْ دَارِهِ
مُنْذُ تَرَامَتْ بِكَ أَسْفَارُ
مَتَى تَرَاهُ هَذِهِ الدَّارُ؟
وَحَدِّثِي قَلْبِي: مَتَى سَارُوا؟
فَهَلْ تَسْلَى عَنْهُ دِيَارُ؟

(١٢) حَدِيثُ النَّبَغَاءِ

نَعُودُ إِلَى «أَبِي الْغُصَنِ». اسْتَسْلَمَ لِنَوْمٍ هَنِيءٍ. لَمْ يُكْدِرْهُ إِلَّا فَرَطُ شَوْقِهِ وَحَنِينِهِ إِلَى زَوْجَتِهِ وَوَلَدَيْهِ، طَلَعَ النَّهَارَ، اسْتَأْنَفَ سَيْرَهُ إِلَى غَايَتِهِ، أَقْبَلَ اللَّيْلُ. أَعَدَّ «أَبُو النَّجَاءِ» لِصَاحِبِهِ وَدَابَّتَيْهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ. ظَلَّ «أَبُو الْغُصَنِ» عَلَى ذَلِكَ أَيَّامًا خَمْسَةً. جَاءَ الْيَوْمُ السَّادِسُ. اشْتَدَّ الْحَرُّ. أَقْعَدَهُ عَنْ مُوَاصَلَةِ السَّيْرِ. أَقْبَلَ اللَّيْلُ. أَضْجَرَهُ الْقَيْظُ.^{١٧} أَعْجَزَهُ عَنِ النَّوْمِ. انْتَابَهُ الْأَرْقُ.^{١٨} زَادَتْهُ الذِّكْرِيَّاتُ أَلَمًا عَلَى أَلَمٍ. اشْتَدَّ بِهِ الْقَلْقُ

^{١٧} شدة الحر.

^{١٨} أصابه السهر مرة بعد أخرى.

عَلَى زَوْجَتِهِ وَوَلَدَيْهِ. اشْتَغَلَ بِأَلِهِ. ١٩ ابْتَهَلَ ٢٠ إِلَى اللَّهِ — سُبْحَانَهُ — أَنْ يَتَوَلَّاهُمْ بِرِعَايَتِهِ، وَيَحْفَظَهُمْ بِعِنَايَتِهِ. رَدَّدَ أَسْمَاءَهُمْ — فِي أَحْلَامِهِ — بِصَوْتِ عَالٍ.

كَانَ يَهْفُفُ ٢١ بِهِمْ مَرَّاتٍ، قَائِلًا: «رَبَابَةٌ! جَحْوَانُ! جُحِيَّةُ!» رَنَّ صَوْتُ مُنْقَطِعٍ فِي أَجْوَارِ الْفُضَاءِ. قَطَعَ عَلَيْهِ أَحْلَامَهُ. صَوْتُ يُرَدَّدُ — فِي لَهَجَةٍ لَطِيفَةٍ — كَلَامَ «أَبِي الْغُصْنِ»: «رَبَابَةٌ! جَحْوَانُ! جُحِيَّةُ!»

الصَّوْتُ يَقُولُ: «أَيَّ نَبَأٍ تُرِيدُ أَنْ أَحْمِلَهُ عَنْكَ إِلَى أَسْرَتِكَ؟ أَتَحِيَّةَ الصَّبَاحِ تُرِيدُ؟ أَمْ تَحِيَّةَ الْمَسَاءِ؟ خَبَّرْنِي: أَيَّ التَّحِيَّاتَيْنِ أُبْلِغُهُمْ؟ لَعَلَّكَ تُرِيدُ أَنْ أَحْمِلَ إِلَيْهِمْ كِلْتَابَهُمَا؟ قُلْ، فَأَنَا أَسْمَعُ. كُنْ عَلَى ثِقَةٍ أَنِّي مُؤَدِّيَةُ رِسَالَتِكَ إِلَيْهِمْ، وَسَلَامَكَ عَلَيْهِمْ. أَنَا مُسَافِرَةٌ إِلَى «الْكُوفَةِ» — بَعْدَ قَلِيلٍ — فَنَاقِلَةٌ إِلَيْهِمْ مَا تَسْتَوْدِعُونِيهِ مِنْ تَحِيَّةٍ، وَمَا تَحْمِلُونِيهِ مِنْ هَدِيَّةٍ.»

فَتَحَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَيْنَيْهِ لِيَرَى مَصْدَرَ الصَّوْتِ الْحَبِيبِ وَالْمُفَاجَأَةِ السَّارَةِ: رَأَى بَبْغَاءَ بَدِيعَةَ الشَّكْلِ، خَضْرَاءَ الرِّيشِ. رَأَاهَا جَائِمَةً ٢٢ تُرَدَّدُ حَدِيثُهَا فَوْقَ عَمُودِ خَيْمَتِهِ.

غَيْرُ «أَبِي الْغُصْنِ»، لَوْ شَهِدَ تِلْكَ الْمُفَاجَأَةَ لَأَمْتَلَأَتْ نَفْسُهُ عَجَبًا. لَكِنَّ مَا مَرَّ بِهِ مِنْ غَرَائِبٍ وَمُدْهَشَاتٍ، كَانَ كَافِيًا لِتَرْوِضِهِ عَلَى تَوَقُّعِ الْكَثِيرِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمُفَاجَأَاتِ. لَمْ يَسْتَسْلِمِ «أَبُو الْغُصْنِ» لِلدَّهْشِ وَالْحَيْرَةِ. لَمْ يَضَعْ وَقْتَهُ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ. أَسْرَعَ إِلَى الْبَبْغَاءِ. قَالَ: «شُكْرًا لَكَ، أَيُّنْهَا الْبَبْغَاءُ الرَّاحِلَةُ. أَقْرَبِيهِمْ ٢٣ سَلَامِي وَتَحِيَّتِي. أَقْبِلِي ثَنَائِي وَشُكْرِي بَعْدَ ذَلِكَ، طَائِرًا كُنْتَ أَمْ جَنِيَّةً.»

قَالَتْ الْبَبْغَاءُ: «لَكَ مَا تُرِيدُ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». سَأُنْجِزُ طَلِبَتَكَ. لَنْ أَخَالَفَ لَكَ أَمْرًا، وَحَقُّ زُمْرَدَةٍ!»

لَمْ يَدِرِ «أَبُو الْغُصْنِ» مَاذَا تَعْنِيهِ الْبَبْغَاءُ بِهَذَا الْإِسْمِ الْجَدِيدِ.

١٩ تشوشت أفكاره واضطربت.

٢٠ أخلص في الدعاء متضرعًا.

٢١ يصيح.

٢٢ مستقرّة في مكانها لا ترحله.

٢٣ بلّغهم.

سَمِعَ الْبُبْغَاءُ تَسْتَأْنِفُ قَائِلَةً: «مَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ، فَأَنَا أَحَذَّرُكَ مِنْ «الرَّكَّاكِ» وَ«الْوُكُوكِ»! كِلَاهُمَا شَرِيرٌ فَتَّاكٌ، يَتَوَخَّى صَرْكَ وَيَسْعَى إِلَى أَذَاكَ، وَيَتَرَبَّصُ بِكَ الْهَلَاكَ.» هَمَّ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنْ يَسْأَلَهَا عَنْ «الرَّكَّاكِ» وَ«الْوُكُوكِ»: مَنْ هُمَا؟ مَا شَأْنُهُ بِهِمَا؟ سَمِعَ الْبُبْغَاءُ تَقُولُ: «يَا «أَبَا الْغُصْنِ»: كُنْ عَلَى حَذَرٍ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا فِي هَذَا الْمَكَانِ. أَنْتَ فِي أخطرِ بُقْعَةٍ مِنَ الصَّحْرَاءِ. «الْمِيدَانُ»: اسْمُ هَذَا الْمَكَانِ.»

انْطَلَقَتِ الْبُبْغَاءُ إِلَى غَايَتِهَا مُحَلِّقَةً فِي الْجَوِّ، هَائِمَةً فِي الْفَضَاءِ. قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي نَفْسِهِ: «الرَّكَّاكُ، الْوُكُوكُ: مَنْ هُمَا؟ مَتَى أَرَاهُمَا؟ مَا بَالُ الْبُبْغَاءِ تُحَذِّرُنِي كَيْدُهُمَا، وَتُخَوِّفُنِي شَرَّهُمَا وَأَذَاهُمَا؟ لِمَذَا كَانَ «الْمِيدَانُ» — فِي الصَّحْرَاءِ — أخطرَ مَكَانٍ؟ أَتَرَاهُ مَاوَى عَصَابَةٍ مِنْ أَشْرَارِ اللَّصُوصِ وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ؟» ثَقُلَ التَّعَبُ عَلَيْهِ. أَسْلَمَ لِلنَّوْمِ عَيْنَيْهِ. كَانَ قَدْ انْقَضَى — عَلَى رِحْلَةِ «أَبِي الْغُصْنِ» — خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا كَامِلَةً ...

(١٣) فَرَزُعُ «رَبَابَةِ»

نَعُودُ إِلَى بَيْتِهِ: نَرَى «رَبَابَةَ» مُتَأَلِّمَةً مَحْزُونَةً، لَا يَشْغُلُهَا عَنْ زَوْجِهَا شَيْءٌ مِمَّا يُحِيطُ بِهَا مِنْ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَجَالِبَاتِ الْهَنَاءِ. فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، جَلَسَتْ «رَبَابَةُ» شَارِدَةً الْفِكْرِ، مُسْتَسْلِمَةً إِلَى هُمُومِهَا. رَأَتْ مَا أَرْعَجَهَا فِي مَنَامِهَا: شَهِدَتْ فِي أَضْغَاثِ أَحْلَامِهَا^{٢٤} الْمُتَقَطِّعَةَ شَرِيرًا حَبْنَطِي،^{٢٥} يَعْتَرِضُ زَوْجَهَا فِي طَرِيقِهِ. انْتَبَهَتْ «رَبَابَةُ» مِنْ نَوْمِهَا خَائِفَةً، حَانَتْ مِنْهَا التَّفَاتَةُ عَابِرَةً إِلَى «مُصْبَاحِ الْكَنْزِ» الَّذِي تَرَكَهُ زَوْجُهَا عِنْدَهَا. دَهَشَتْ «رَبَابَةُ» مِمَّا يَنْبَعِثُ مِنْ أَضْوَائِهِ الْقَوِيَّةِ. تَعَاظَمَتْهَا الْحَيْرَةُ حِينَ سَمِعَتْ الْمُصْبَاحَ يَقُولُ، فِي أَسْلُوبٍ فَصِيحٍ، عَذْبِ النَّبْرَاتِ، وَاضِحِ الْكَلِمَاتِ: «أَنَا مَحْزُونٌ. أَنَا مَهْمُومٌ.»

^{٢٤} أخلطها.

^{٢٥} منتفخ البطن.

تَفَزَّعَتْ «رَبَابَةٌ» مِمَّا سَمِعَتْ. لَمْ يَكُنْ لَهَا عَهْدٌ بِحَدِيثِ الْمَصْبَاحِ مِنْ قَبْلُ. نَسِيَ «أَبُو الْغُصْنِ» أَنْ يُخْبِرَ «رَبَابَةً» — قُبِيلَ سَفَرِهِ — بِمَا يَتَمَيَّزُ بِهِ «مَصْبَاحُ الْكُنَنِ» مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى الْكَلَامِ.

لَمْ تَعْتَمِ «رَبَابَةٌ» أَنْ اسْتَرَدَّتْ شَجَاعَتَهَا. سَأَلَتْ الْمَصْبَاحَ عَمَّا يَعْرِفُهُ مِنْ أَخْبَارِ زَوْجِهَا. قَالَ الْمَصْبَاحُ: «حَسْبُكَ — يَا «رَبَابَةٌ» — أَنْ تَنْظُرِي إِلَى صَفْحَةِ الْحَائِطِ لِتَرِي فِيهَا كُلَّ مَا تَفَكِّرِينَ فِيهِ».

مَا إِنَّ أَتَمَّ الْمَصْبَاحُ قَوْلَهُ، حَتَّى رَأَتْ «رَبَابَةٌ» ... وَيَا مَا أَعْجَبَ مَا رَأَتْ: كَأَنَّمَا انْشَقَّتِ الْحَائِطُ. ارْتَسَمَ أَمَامَهَا مَشْهُدٌ عَجِيبٌ أَشْبَهُ مَا يَكُونُ بِمَا نَشْهَدُهُ عَلَى أَلْوَابِ «السَّيْمَى» فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ! تَمَثَّلَ لَهَا مَا لَمْ يَدُرْ فِي خَاطِرِهَا: رَأَتْ زَوْجَهَا رَاقِدًا — كَمَا حَدَّثَتْكَ مِنْ قَبْلُ — عَلَى سَرِيرٍ مِنَ الْقَشِّ، خَارِجَ حَيْمَتِهِ فِي الْعَرَاءِ. رَأَتْ حَوْلَهُ عِصَابَةً مِنْ لُصُوصِ الصَّخَرَاءِ.

كُلُّ مَا حَوْلَهُ كَانَ هَادِتًا مُسْتَسْلِمًا لِلنَّوْمِ سَاكِتًا، مَا عَدَا «أَبَا النَّجَاءِ»: حَارِسُهُ الْيَقِظُ الْأَمِينِ. شَدَّ «أَبُو النَّجَاءِ» جَمَلَ «أَبِي الْغُصْنِ» وَحِصَانَهُ إِلَى الْوَتِدِ الَّذِي أَحْكَمَ دَقَّهُ فِي الْأَرْضِ. شَدَّ نَفْسَهُ إِلَى جَوَارِهِمَا.

جَلَسَ «أَبُو النَّجَاءِ» مُسْتَيْقِظًا بِاسْمًا. كَانَتْ شَفَتَاهُ الضَّخْمَتَانِ تَفْتَرَّانِ عَنْ أَسْنَانِهِ الْبَيْضِ. كَانَ يُنْصِتُ إِلَى حَدِيثِ نَعَامَتَيْنِ تَتَحَدَّثَانِ بِالْقُرْبِ مِنْ شَجَرَةِ نَارَجِيلٍ.^{٢٦} كَانَتَا تَتَهَامَسَانِ. أَسْرَتْ أُولَاهُمَا — إِلَى صَاحِبَتَيْهَا — قَائِلَةً: «رَأَيْتِ، يَا «أُمُّ الْهَيْقِ»: أَيْ مُحَنَّةٌ يَتَعَرَّضُ لَهَا «أَبُو الْغُصْنِ» فِي هَذَا الْمَكَانِ؟ لَا شَكَّ فِي أَنَّ لُصُوصَ «الْمِيدَانِ» هُوَ لَا، أَشَدُّ فِتْنًا مِنَ الصُّوَارِي الشَّرِيسَةِ، وَأَعَنَفُ قَسْوَةً مِنَ الْوُحُوشِ الْمُفْتَرِسَةِ.

أَخْشَى مَا أَخْشَاهُ أَنْ يَعُودَ الرُّسُولَانِ اللَّذَانِ أَوْقَدُوهُمَا لِأَخْذِ الْفِدْيَةِ — مِنْ بَيْتِ «أَبِي الْغُصْنِ» — وَأَيَّدِيهِمَا خَالِيَةً مِنَ الْمَالِ. ذَلِكَ يُغْضِبُ اللَّصُوصَ عَلَى «أَبِي الْغُصْنِ»، وَيَدْفَعُهُمْ إِلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ».

أَجَابَتْهَا النَّعَامَةُ الْآخَرَى: «صَدَقْتَ، يَا «أُمُّ رَأْلٍ»! لَا شَكَّ فِي أَنَّ «الرَّكَّكَ» وَ«الْوُكَّوَكَّ» يَقْتَرِبَانِ الْآنَ مِنْ مَدِينَةِ «الْكُوفَةِ»، حَيْثُ تُقِيمُ أُسْرَةَ «أَبِي الْغُصْنِ».

قَالَتْ الْأُولَى: «لَعَلَّهُمَا يَجِدَانِ الْفِدْيَةَ الَّتِي يَطْلُبَانِهَا، يَا «أُمُّ الْهَيْقِ»! لَعَلَّهُمَا — إِذَا ظَفِرَا بِهَا — لَا يُلْحِقَانِ الْأَذَى بِضَيْفِنَا الْكَرِيمِ».

قَالَتْ الثَّانِيَةُ: «تُرَى هَلْ يَلْحَقُ الْأَذَى أَبَا النَّجَاءِ؟»

قَالَتْ الْأُولَى: «أُخْتِي حَدَّثَتْنِي أَنَّ «أَبَا النَّجَاءِ» لَنْ يَلْحَقَهُ أَذَى كَبِيرٌ».

سَأَلَتْهَا صَاحِبَتُهَا: «عَنْ أَيِّ أُخْتَيْكَ تَتَحَدَّثِينَ؟ «أُمُّ التَّرِيكَةِ» تَعْنِينِ، أَمْ «ذَاتَ الظَّلِيمِ»

تَقْصِدِينَ؟»

أَجَابَتْهَا الْأُولَى: «أُمُّ التَّرِيكَةِ أَغْنِي».

سَأَلَتْهَا: «بِمَاذَا أَخْبَرْتِكَ أُمُّ التَّرِيكَةِ؟»

قَالَتْ: «أَخْبَرْتَنِي أَنَّ لُصُوصَ «الْمِيدَانِ» رُبَّمَا اكْتَفَوْا بِقَتْلِ «أَبِي النَّجَاءِ» أَوْ صَلْبِهِ

عَلَى هَذَا الْعُمُودِ. رُبَّمَا طَمَحَتْ نَفُوسُهُمْ إِلَى طَبْخِ لَحْمِهِ، أَوْ شَيْءٍ عَلَى هَذَا السَّفُودِ».^{٢٧}

سَرَتْ فِي جِسْمِ «أَبِي النَّجَاءِ» رِعْدَةٌ أَرْعَشَتْ كُلَّ جَارِحَةٍ فِيهِ. لَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ. مَا أَظُنُّ أَحَدًا يَزْتَاحُ إِلَى هَذَا الْمَصِيرِ الْمُزْعِجِ، عَلَى أَيِّ حَالٍ.

أَعَادَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي نَوْمِهِ الْمُضْطَرِبِ وَأَحْلَامِهِ الْمُتَقَطِّعَةِ، مَا كَانَ يَهْدِي بِهِ مَنْ

أَسْمَاءَ: «رَبَابَةً» وَ«جَحْوَانَ» وَ«جُحْيَةً».

قَالَتْ النَّعَامَةُ الْأُولَى: «أَلَا تَرَيْنَ — يَا «أُمُّ الْهَيْقِ» — مَا يَعَانِيهِ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ

تَبَارِيحِ الْأَلَمِ؟^{٢٨} الْحَرُّ يَكَادُ يَخْنُقُ الْمُسْكِينَ وَيَزْهُقُ رُوحَهُ».

قَالَتْ الثَّانِيَةُ: «صَدَقْتَ، يَا «أُمُّ رَأْلٍ». حَدَّثَتْنِي أُخْتِي «أُمُّ التَّرِيكَةِ» أَنَّ رِيحَ السَّمُومِ

تَهْبُ بَعْدَ قَلِيلٍ. لَسْتُ أَدْرِي: كَيْفَ يُطَبِّقُهَا؟! مَا أَحْسَبُهُ قَادِرًا عَلَى احْتِمَالِهَا. لَا بُدَّ أَنَّهُ

هَالِكٌ إِذَا بَقِيَ فِي هَذَا الْمَكَانِ».

قَالَتْ الْأُولَى: «مَاذَا عَلَيْنَا إِذَا جَلَبْنَا لَهُ الْهَوَاءَ بِأَجْنِحَتِنَا؟»

^{٢٧} الحديدة يشوى بها اللحم.

^{٢٨} شدته.

أَجَابَتْهَا الثَّانِيَةُ: «الصَّوَابُ مَا رَأَيْتَ.»
 ظَلَّتْ «أُمُّ رَأْلٍ» وَ«أُمُّ الْهَيْقِ» تَرْوِحَانِ بِالْقُرْبِ مِنْ «أَبِي الْغُصَنِ»، وَتُفْرِفَانِ
 بِأَجْنِحَتَيْهِمَا ذَوَاتِ الرَّيشِ النَّاعِمِ الْبَدِيعِ. لَمْ يَلْبَثِ الْجَوُّ أَنْ تَحَسَّنَ. خَفَّتْ وَطْأَةُ الْحَرِّ. ٢٩
 نَجَا «أَبُو الْغُصَنِ» — بِفَضْلِ هَاتَيْنِ النَّعَامَتَيْنِ — مِمَّا كَادَ يَتَعَرَّضُ لَهُ مِنَ الْإِخْتِنَاقِ ...
 هَكَذَا شَهِدَتْ «رَبَابَةُ» بِعَيْنَيْهَا وَسَمِعَتْ بِأُذُنَيْهَا كُلَّ مَا حَدَثَ. أَلْجَمَهَا الْخَرَسُ! كَادَتْ
 «رَبَابَةُ» تَصْعَقُ مِنْ هَوْلِ مَا رَأَتْ. لَكِنَّ جَرِصَهَا عَلَى سَلَامَةِ زَوْجِهَا سُرْعَانَ مَا أَعَادَ إِلَيْهَا
 مَا احْتَبَسَ مِنْ صَوْتِهَا، وَرَجَعَ لَهَا مَا فَقَدَتْهُ مِنْ وَعْيِهَا.
 انْبَعَثَتْ صَرَخَاتُ الْأَلَمِ مِنْ فِيهَا مُدَوِّيَّةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ: «الْغَوْثُ الْغَوْثُ. النَّجْدَةُ النَّجْدَةُ.
 إِلَيَّ — يَا «زُبَيْدَةُ» — إِلَيَّ!»
 مَا إِنَّ رَفَعَتْ صَوْتَهَا بِالِاسْتِعَاثَةِ حَتَّى اسْتَخْفَى الْمَشْهُدُ عَنْ عَيْنَيْهَا، كَمَا تَسْتَخْفِي
 رُؤْيَا النَّائِمِ عَنْ عَيْنِ الْحَالِمِ.
 أَسْرَعَتْ «زُبَيْدَةُ» إِلَى «رَبَابَةَ». رَأَتْ جَارَتَهَا يَكَادُ الدُّهُولُ وَالْخَبَالُ يَسْنُوْلِيَانِ عَلَيْهَا.
 سَأَلَتْهَا عَنْ مَصْدَرِ فَرْعِهَا وَسِرِّ انْزِعَاجِهَا.
 قَصَّتْ «رَبَابَةُ» عَلَيْهَا مَا شَهِدَتْهُ — مُنْذُ لَحْظَةٍ — فِي جُمْلٍ مُتَقَطَّعَةٍ. رَوَتْ لَهَا مَا
 يَتَعَرَّضُ لَهُ زَوْجُهَا مِنْ مَصَائِبٍ وَمَهَالِكٍ وَأَخْطَارٍ، فِي أَرْضِ «الْمِيدَانِ»: أْخْطَرُ مَكَانٍ فِي
 الصَّحْرَاءِ. لَمْ تَكُنْ مَا سَمِعَتْهُ مِنْ حَدِيثِ النَّعَامَتَيْنِ: «أُمُّ رَأْلٍ» وَ«أُمُّ الْهَيْقِ».
 حَزِنَتْ «زُبَيْدَةُ» لِمَا سَمِعَتْ. حَسِبَتْ صَدِيقَتَهَا أَصَابَهَا مَسٌّ مِنَ الْخَبَالِ أَوْ
 اخْتَلَطَتْ. ٣٠ جَمَجَمَتْ «زُبَيْدَةُ» قَائِلَةً — فِي صَوْتِ خَافِتٍ — كَأَنَّمَا تُتَاجِي نَفْسَهَا: «رَحْمَةُ
 اللَّهِ لَهَا، وَلَطْفُهُ بِهَا! أَظْنُهَا فَقَدَتْ رُشْدَهَا، وَأَسْلَمَهَا حُزْنُهَا عَلَى زَوْجِهَا إِلَى الْهَتْرِ ٣١
 وَالْخَرْفِ.»
 عَلَى أَثَرِ هَذِهِ الضَّجَّةِ، اسْتَيْقَظَ الصَّغِيرَانِ: «جَحْوَانُ» وَ«جُحْيَةُ». شَارَكَا أُمَّهُمَا
 وَجَارَتَهُمَا فِي بُكَائِهِمَا، عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ بِمَا يَحْزُنُهُمَا وَيُبْكِيهِمَا.

٢٩ قَلَّتْ شِدَّتُهُ.

٣٠ جُنَّتْ.

٣١ ذَهَابَ الْعَقْلُ.

اسْتَأْنَفْتُ «رَبَابَةَ» حَدِيثَهَا بَاكِئَةً. قَالَتْ: «لَكَ اللَّهُ، يَا «أَبَا الْعُصْنِ». أَيُّ حَطْبٍ دَهَاكَ؟
أَيُّ مُصَابٍ أَلَمَ بِكَ؟ هَلْ نَسِيكَ «أَبُو شَعْشَعٍ» أَمْ شَغَلَتْهُ الشَّوَاغِلُ عَنْ حِمَايَتِكَ؟»

(١٤) الْمُتَصَافِعُونَ

أَقْبَلَتِ الْبَيْعَاءُ «زُمُرْدَةً» الْخَضِرَاءُ. اسْتَقَرَّتْ عَلَى طَرَفِ النَّافِذَةِ. كَانَتْ النَّافِذَةُ مَفْتُوحَةً.
قَالَتْ الْبَيْعَاءُ: «كَلَّا، كَلَّا، لَا تَجْزَعِي، لَا تَيَأْسِي، يَا «أُمَّ جَحْوَانَ». عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ. لَا فَايِدَةَ
مَنْ الشَّكْوَى.



أَعِيرِنِي سَمْعُكَ، يَا «رَبَابَةُ». انْتَبِهِي لِمَا أَقُولُ: سَيَطْرُقُ بَابَ دَارِكَ الْآنَ، فَاتَّكِنِ
جَرِيئًا — مِنْ لُصُوصِ الصَّخَرَاءِ — هُمَا: «الرَّكَّاكُ» وَ«الْوَكَّوَاكُ». سَيَطْلُبَانِ مِنْكَ فِدْيَةً.
لَا تَخَافِي وَلَا تَجْزَعِي. الْتَفْتِي إِلَى اللَّصِينِ قَائِلَةً: ارْقُصْ، يَا «رَكَّاكُ»! ارْقُصْ، يَا «وَكَّوَاكُ»!
ارْقُصَا وَتَدَافَعَا، اشْتَبِكَا مَعَا وَتَوَاقَعَا. ارْقُصَا، أَيُّهَا الشَّقِيَّانِ. تَصَافَعَا أَيُّهَا الشَّرِيرَانِ. لَا
تَكُفَّا عَنِ الْمُرَاقَصَةِ وَالْمُصَافَعَةِ لَحْظَةً وَاحِدَةً!

لَا تَسْلُ عَنْ دَهْشَةِ «رَبَابَةِ» وَوَلَدِيهَا وَجَارَتِهَا حِينَ شَهِدُوا مِنْ «زُمُرْدَةِ» مَا شَهِدُوا.

بَعْدَ قَلِيلٍ لَمَحَتْ «رَبَابَةُ» رَجُلَيْنِ يَتَجَهَّانِ نَحْوَ بَابِ الْبَيْتِ؛ كَأَنَّ وَجْهَيْهِمَا وَجْهًا مَصْلُوبَيْنِ. رَأَتْ اللَّصَّيْنِ — اللَّذَيْنِ تَحَدَّثَتْ عَنْهُمَا الْبَيْغَاءُ «زُمُرْدَةُ» — يَقِفَانِ أَمَامَ بَابِ الدَّارِ. تَحَقَّقَ لَهَا صِدْقُ مَا سَمِعَتْهُ مِنَ الْبَيْغَاءِ.

جَاءَ الشَّقِيَّانِ يَتَوَكَّانِ عَلَى هِرَاوَتَيْنِ.^{٣٢} دَنَوْا مِنْ «رَبَابَةِ». حَنِيَا ظَهْرَيْهِمَا. عَرَفَتْ «رَبَابَةُ» مِنَ الْقَادِمَانِ. لَمْ تَدْعُ لَهُمَا مَجَالًا لِلْكَلَامِ.

فَاجَأَتْهُمَا قَائِلَةٌ: «لَا مَرْحَبًا بِكُمَا وَلَا أَهْلًا. جِئْتُمَا دَارِي تَسْأَلَانِ أَنْ أُدْفَعَ فِدْيَةً لَكُمَا أَفْتَدِي بِهَا زَوْجِي «أَبَا الْغُصَنِ»! أَلَيْسَ لِهَذَا جِئْتُمَا؟» دَهَشَ اللَّصَّانِ مِنْ هَوْلِ الْمُفَاجَأَةِ.

اسْتَأْنَفَتْ «رَبَابَةُ» قَائِلَةً: «أَلَا تُحِبَّانِ الرَّقْصَ، أَيُّهَا الشَّقِيَّانِ؟» زَمَجَرَ اللَّصَّانِ، جَرَحَتْ كِبْرِيَاءُهُمَا سُخْرِيَةَ «رَبَابَةِ» وَاسْتَهْزَأُوهُمَا بِهِمَا.

أَرَادَا أَنْ يَنَالَاهَا بِالْأَذَى. لَمْ تَدْعُ لَهُمَا الْفُرْصَةَ لِتَحْقِيقِ مَا يُرِيدَانِ. أَمْسَكَتْ «مُصْبَاحُ الْكَنْزِ» بِيَدَيْهَا قَائِلَةً: «ارْقُصْ يَا «رُكَّاكُ» ارْقُصْ يَا «وَكَّوَّاكُ». ارْقُصَا مَعًا، أَيُّهَا الشَّقِيَّانِ. تَصَافَعَا سَاعَةً مِنَ الزَّمَانِ. وَقَعَا — بَعْدَ ذَلِكَ — عَلَى أَكْتَافِكُمَا سَاعَةً أُخْرَى بِعَصَوَيْكُمَا، وَفَقَا لِحَرَكَاتِ رَقْصَتَيْكُمَا!»

قَالَتْ الْبَيْغَاءُ «زُمُرْدَةُ» الْخَضْرَاءُ: «مَا بِأَلِكِ تَنْسِينَ بَقِيَّةَ الْعِصَابَةِ؟ لِمَاذَا حَرَمْتَهُمْ أَنْ يَرْقُصُوا كَمَا يَرْقُصُ الزَّمِيلَانِ، ثُمَّ يَتَصَافَعُوا كَمَا يَتَصَافَعَانِ؟»

قَالَتْ «رَبَابَةُ»: «نَعَمْ مَا تَقْتَرِحِينَ! مَا أَعْدَلُ مَا تَطْلُبِينَ! نَعَمْ فَلْيَرْقُصْ جَمِيعُ لُصُوصِ الصَّخْرَاءِ مَعَ هَذَيْنِ الضَّيْفَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ. لِيَتَصَافَعُوا سَاعَةً مِنَ الزَّمَانِ. لِيُوقِعُوا سَاعَةً أُخْرَى بِعَصِيَّهِمَا عَلَى أَكْتَافِهِمَا.»

مَا إِنْ أَتَمَّتْ «رَبَابَةٌ» كَلَامَهَا حَتَّى هَبَّتْ رِيحٌ عَاتِيَةٌ عَاصِفَةٌ — مِنَ الصَّحْرَاءِ — عَلَى الْمَدِينَةِ، حَامِلَةً مَعَهَا لُصُوصَ «الْمِيدَانِ»، كَمَا تَحْمِلُ الرِّيحُ أَوْرَاقَ الشَّجَرِ. انْتَهَمَكُوا جَمِيعًا فِي الرَّقْصِ، بَعْدَ أَنْ أَلْقَتْ بِهِمُ الْعَاصِفَةُ الْهُوجَاءُ أَمَامَ الدَّارِ.

(١٥) عَوْدَةُ «أَبِي الْغُصْنِ»

حَمَلَتِ الرِّيحُ «أَبَا الْغُصْنِ» فِيمَنْ حَمَلَتْهُ. وَضَعَتْهُ مُتَرْفِقَةً إِلَى جِوَارِ «رَبَابَةٍ». ابْتَهَجَتْ «رَبَابَةٌ» لِمَقْدَمِ زَوْجِهَا. سَرَى ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهَا مَا كَانَتْ تَحْمِلُهُ مِنْ هُمُومٍ وَأَحْزَانٍ. رَحَبَتْ بِزَوْجِهَا أَكْرَمَ تَرْحِيبٍ.

قَالَتْ لِلْصُوصِ، وَهِيَ مُمَسِّكَةٌ بِالْمُصْبَاحِ: «ارْقُصُوا ... ارْقُصُوا ... ارْقُصُوا أَيُّهَا الضُّيُوفُ الْأَعَزَّاءُ. وَاصِلُوا الرَّقْصَ — عَلَى رِمَالِ الصَّحْرَاءِ — إِلَى أَنْ تَمُوتُوا!»
حَذَا اللُّصُوصُ حَدَوْ زَعِيمِيهِمْ: «الرَّكَّكُ» وَ«الْوَكَّوَكُ». ظَلُّوا يَرْقُصُونَ عَلَى نَعْمَاتٍ مَزْمَارٍ وَعُودٍ وَآلَاتٍ أُخْرَى، تَسْمَعُ الْأَذَانُ نَغْمَتَهَا، وَلَا تَسْتَطِيعُ الْعُيُونُ رُؤْيَتَهَا.
تَوَلَّى لُصُوصُ «الْمِيدَانِ» عَنْ بَيْتِ «أَبِي الْغُصْنِ». سَارُوا — فِي طَرِيقِهِمْ — إِلَى الصَّحْرَاءِ رَاقِصِينَ، مُتَدَافِعِينَ مُتَصَافِعِينَ.
قَالَتْ الْبُبْغَاءُ «زُمُرْدَةٌ»: «بَلَغْتَ الْمَدَى، يَا «رَبَابَةٌ»، وَفُزْتَ بِكُلِّ مَا تَرُومِينَ!»
«رَبَابَةٌ» صَحَتْ مِنْ تَفَكِيرِهَا. حَلَّ بُكَاءُ الْفَرَحِ — بِنَجَاةِ زَوْجِهَا — مَحَلَّ بُكَاءِ الْحُزَنِ عَلَى تَعَرُّضِهِ لِلْهَلَاكِ.

لَمْ يَكُنْ تَأْتُرُ «أَبِي الْغُصْنِ» وَاخْتِلَاطُ الدَّهْشَةِ وَالْفَرَحِ فِي نَفْسِهِ، بِأَقْلٍ مِنْ دَهْشَةِ «رَبَابَةٍ» وَفَرَجِهَا.

انْدَفَعَ الْوُلَدَانِ إِلَى أَبِيهِمَا. أَلْقَيَا بِنَفْسَيْهِمَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ. كَانَ الْخَوْفُ لَا يَزَالُ يَسْرِي فِي أَوْصَالِهِمَا وَعُرُوقِهِمَا، مِنْ هَوْلٍ مَا رَأَيَاهُ، وَغَرَابَةِ مَا سَمِعَاهُ.
حَمَلَتِ الْعَاصِفَةُ إِلَى الْبَيْتِ كُلِّ مَا اضْطَحَبَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي رِحْلَتِهِ: عَادَتِ بِالْفَرَسِ وَالْجَمَلِ وَالْخَيْمَةِ جَمِيعًا.

حَمَلَتِ الْعَاصِفَةُ — فِيمَا حَمَلَتْهُ — حَارِسَهُ الْأَمِينِ «أَبَا النَّجَاءِ». قَذَفَتْ بِهِ مِنْ النَّافِذَةِ. اضْطَدَمَ بِهَا رَأْسُهُ صَدْمَةً يَسِيرَةً.

اسْتَقَرَّ «أَبُو الْغُصَنِ» عَلَى أَرْضِ بَيْتِهِ ... أَمَرَ يَدَهُ عَلَى جَبِينِهِ يَفْرُكُهُ، كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَنْ
يَسْتَيْقِظَ مِنْ سُبَاتٍ ٣٣ عَمِيقٍ. ضَمِنَ نَجَاتَهُ مِنْ لُصُوصِ «الْمَيْدَانِ».
افْتَرَّ ثَغْرُهُ ٣٤ عَنْ بَسْمَةِ خَفِيفَةٍ، تَدُلُّ عَلَى مَا سَعَرَ بِهِ مِنْ ارْتِيَاكِ.

٣٣ نوم.

٣٤ تبسّم فمه.

الفصل الثامن

استِثْنافُ السَّفَرِ

(١) خُطَّةٌ جَدِيدَةٌ

مَا كَانَ أَهْدَاهَا لَيْلَةً، وَالْأَطْفَهَ نَسِيمًا! اطمأنَّ بِأُلِ الْأُسْرَةِ بَعْدَ مَا لَقُوهُ مِنْ عَنَاءٍ.
أَمَّا «أَبُو الْغُصْنِ» فَكَانَ لَهُ شَأْنٌ آخَرُ، بَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ رِحْلَتُهُ بِخَيِّبَةٍ وَإِخْفَاقٍ لَا عَهْدَ
لَهُ بِمِثْلِهِمَا.
أَعَدَّ «أَبُو الْغُصْنِ» خُطَّةً جَدِيدَةً لِرِحْلَتِهِ، تُجَنِّبُهُ مَا لَقِيَهُ مِنْ مُزْعَجَاتٍ. لَمْ يَزِدْهُ
الْإِخْفَاقُ إِلَّا إِصْرَارًا عَلَى إِنْجَازِ مَا قَصَدَ إِلَيْهِ مِنْ غَرَضٍ نَبِيلٍ، وَتَحْقِيقِ وَاجِبٍ إِنْسَانِيٍّ
جَلِيلٍ، عَلَى يَدِ الْجَنِيِّ: «أَبِي شَعْشَعٍ».

(٢) فِي صُحْبَةِ الْمِصْبَاحِ

أَدْرَكَ أَنَّ حِرْصَهُ عَلَى تَرْكِ «مِصْبَاحِ الْكُنْزِ» فِي الدَّارِ لِحِمَايَةِ أُسْرَتِهِ، كَانَ سَبَبًا فِيمَا
اسْتَهْدَفَ لَهُ مِنْ أَخْطَارٍ. لَمْ يَجِدْ بُدًّا — فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِالْمِصْبَاحِ، عَلَى
بُلُوغِ طَلِبَتِهِ.

(٣) حَدِيثُ «أَبِي النَّجَاءِ»

قَرَّرَ أَنْ يَصْحَبَ أُسْرَتَهُ مَعَهُ فِي رِحْلَتِهِ إِلَى بِلَادِ «الْوُقُوقِ»، بَعْدَ أَنْ ضَمِنَ قُدْرَةَ الْمِصْبَاحِ
عَلَى تَيْسِيرِ كُلِّ عَقَبَةٍ تَعْتَرِضُهُمْ.

طَلَعَ الصَّبَاحُ، ذَهَبَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِيَسْتَشِيرَ «أَبَا النَّجَاءِ» فِيمَا اعْتَرَمَهُ: وَجَدَهُ جَالِسًا فِي فِنَاءِ الدَّارِ يَقْشُرُ الْجَوْزَ لِلْبَبْغَاءِ الَّتِي كَانَتْ جَائِمَةً عَلَى كَتِفِهِ.
ابْتَدَرَهُ «أَبُو النَّجَاءِ» قَائِلًا: «مَا كَانَ أَشَقَّهَا سَفَرَةً، وَأَطْوَلَهَا رَحَلَةً!»
قَالَتِ الْبَبْغَاءُ «زُمُرْدَةً»: «كَانَتْ قِطْعَةً مِنَ الْعَذَابِ. لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ وَلَا ارْتِيَابَ.»
قَالَ «أَبُو النَّجَاءِ»: «مَا أَبْعَدَ الشُّقَّةَ! مَا أَعْجَزَ الْجَمَالَ عَنْ قَطْعِ الْمَسَافَةِ الشَّاسِعَةِ!»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَتَعْنِي أَنْ جَزِيرَةَ «أَبِي شَعْشَعٍ» بَعِيدَةٌ عَنَّا إِلَى هَذَا الْحَدِّ؟»
قَالَ «أَبُو النَّجَاءِ»: «لَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ.»
قَالَتِ الْبَبْغَاءُ: «إِنَّهَا فِي أَقْصَى مَكَانٍ مِنَ الْمَعْمُورَةِ.»
سَكَتَ «أَبُو الْغُصْنِ» لَحْظَةً. أَطَالَ التَّفَكِيرَ فِيمَا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ مَعَ أَفْرَادِ أُسْرَتِهِ مِنْ مَتَاعِبَ وَأَهْوَالِ.

(٤) عِتَابُ الْمِصْبَاحِ

كَانَ الْمِصْبَاحُ فِي جَيْبِ «أَبِي الْغُصْنِ». هَمَسَ الْمِصْبَاحُ فِي أُذُنِهِ فَجَاءَهُ. أَنْصَتَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى حَدِيثِ الْمِصْبَاحِ الْخَافِتِ. سَمِعَهُ يَقُولُ: «أَيْنَ مِنِّي أَنْتَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ»؟ مَا بَالُكَ تُغْفِلُنِي، وَتُهْمِلُ مَشُورَتِي وَلَا تَسْتَعِينِنِي؟»
أَفَاقَ «أَبُو الْغُصْنِ» مِنْ تَفَكِيرِهِ الْعَمِيقِ. سَأَلَ الْمِصْبَاحَ: «كَيْفَ تَقُولُ؟ مَاذَا تَعْنِي؟»
أَجَابَهُ الْمِصْبَاحُ: «أَنْسَيْتَ أَنَّ أَيَّ مَكَانٍ — فِي الْعَالَمِ — قَرِيبٌ مِنِّي، مَهْمَا بَعُدَتْ شُقَّتُهُ؟ أَنْسَيْتَ قُدْرَتِي عَلَى اجْتِيَاذِ أَبْعَدِ الْمَسَافَاتِ فِي أَقْصَرِ اللَّحْظَاتِ؟ أَنْسَيْتَ أَنَّي قَادِرٌ عَلَى الإِضْطِلَاعِ بِحَمْلِ فَادِحِ الْأَثْقَالِ، فِي غَيْرِ كَلَالٍ وَلَا مَلَالٍ؟»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «شُكْرًا لَكَ، يَا عَزِيزِي، شُكْرًا. مَا أَقْدَرُكَ عَلَى إِنْجَازِ مَا تَقُولُ!»

(٥) حَدِيثُ «رَبَابَةِ»

أَسْرَعَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى «رَبَابَةِ» يُبْلِغُهَا حَدِيثَ الْبَبْغَاءِ وَالْمِصْبَاحِ، وَيَسْتَشِيرُهَا فِي الْأَمْرِ.
قَالَتْ «رَبَابَةُ»: «الرَّأْيُ مَا تَرَى. هَيْهَاتَ أَنْ أَحَالَفَ لَكَ نَصْحًا.

لَكِنْ حَبْرَنِي، يَا «أَبَا الْغُصَنِ»: هَلْ فَكَّرْتَ فِيمَا يَتَعَرَّضُ لَهُ وَلَدَاكَ مِنْ أَخْطَارِ الطَّرِيقِ؟ أَلَا تَخْشَى أَنْ يَلْقَوْا مِثْلَ مَا لَقِيتَ فِي رِحْلَتِكَ الْمَاضِيَةِ مِنْ أَهْوَالٍ، وَمَتَاعِبٍ ثِقَالٍ؟ أَلَمْ تَشْهَدْ: كَيْفَ صُدِمَ رَأْسُ تَابِعِكَ فِي نَهَايَةِ الرِّحْلَةِ؛ فَكَادَ يَتَحَطَّمُ لَوْلَا عِنَايَةُ اللَّهِ؟!»

قَالَ الْمُصْبَاحُ: «أَتَأْذِنُ لِي فِي أَنْ ...»

لَمْ تَصْبِرْ عَلَيْهِ «رَبَابَةٌ» حَتَّى يُتِمَّ جُمْلَتَهُ. قَاطَعْتُهُ — عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهَا — قَائِلَةً: «مِثْلُكَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِثْنَاءٍ. إِنَّ الْبَيَانَ لِيَعْجِزُ عَنْ وَصْفِ مَا غَمَزْنَا بِهِ مِنْ صَنِيعٍ. هَيْهَاتَ أَنْ نَنْسَى فَضْلَكَ وَمُعَاوَنَتَكَ مَدَى الْحَيَاةِ! لَكِنَّ طَرِيقَ السَّفَرِ — كَمَا تَعْلَمُ — وَمَشَقَّاتِهِ أَكْبَرُ مِمَّا نَطِيقُ، وَاجْتِيَازَ الْمَفَازَاتِ وَالصَّحَارَى الشَّاسِعَةِ مَطْلَبٌ بَعِيدُ التَّحْقِيقِ.»

سَكَتَ الْمُصْبَاحُ ...

النَّفَتَ «أَبُو الْغُصَنِ» إِلَى «رَبَابَةٍ» قَائِلًا: «كَانَ يُسْعِدُنِي أَلَّا أُرْجِكَ بِهَذَا السَّفَرِ. لَوْلَا أَنَّ الْوَاجِبَ يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَيَحْمِلُنِي عَلَيْهِ، لَمَا نَقَلْتُ قَدَمًا عَنْ قَدَمٍ.»

سَأَلَتْهُ «رَبَابَةٌ»: «أَلَيْسَ إِذَنْ مِنَ الرَّحِيلِ بَدْ؟»^١

قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «بَلَى. إِنَّهُ وَاجِبٌ حَتْمٌ أَذَاؤُهُ. لَا سَبِيلَ إِلَى الْعُدُولِ عَنْهُ، عَلَى أَيِّ حَالٍ. عَلَيْنَا أَنْ نَهَيَّئَ مُعَدَّاتِ السَّفَرِ.»

(٦) حَدِيثُ الصَّغِيرَيْنِ

دَخَلَ «جَحْوَانُ» وَ«جُحَيَّةُ».

قَالَ أَوَّلُهُمَا مُسَائِلًا: «أَيَّ مُعَدَّاتٍ تَعْنِي، يَا أَبَتَاهُ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «مُعَدَّاتِ السَّفَرِ أَعْنِي، يَا جَحْوَانُ.»

قَالَتْ «جُحَيَّةُ»: «أَيَّ سَفَرٍ تَعْنِي، يَا أَبِي؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «أَعْنِي السَّفَرُ إِلَى بِلَادِ «الْوَقَوَاقِ»، لِزِيَارَةِ صَدِيقِنَا الْكَرِيمِ: أَبِي

شَعْشَعٍ.»

صَاحَ «جَحْوَانُ»: «مَا أَشَوْقَنِي إِلَى السَّفَرِ، يَا أَبْتَاهُ! بِرَبِّكَ إِلَّا مَا صَحِبْتَنِي مَعَكَ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ.»

قَالَتْ «جُحَيَّةُ»: «جَزِيرَةُ «الْوُقُوقِ»؟ مَا أَظْرَفَ هَذَا الْإِسْمَ! مَا أَجْمَلَ وَقَعَهُ، وَأَعَذَبَ جَرَسَهُ! مَا أَشَوْقَنِي إِلَى رُؤْيَةِ هَذِهِ الْبِلَادِ الَّتِي طَالَمَا حَدَّثْتُنَا عَنْهَا الْأَسَاطِيرُ!»
قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لَيْكُنْ لَكُمَا مَا تُرِيدَانِ، يَا وَلَدَيَّ. سَتَصْحَبَانِنِي عَدَا — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — إِلَى بِلَادِ الْوُقُوقِ.»

قَالَ وَلَدَاهُ فَرَحَانَيْنِ: «يَا لَهَا مِنْ سَفَرَةٍ مُمْتَعَةٍ شَائِقَةٍ! شُكْرًا لَكَ، يَا أَبْتَاهُ.»

(٧) أَحْلَامُ الْبَهْجَةِ

«جُحَيَّةُ» وَ«جَحْوَانُ» يَحْلُمَانِ بِبِلَادِ «الْوُقُوقِ». يَتَمَنَّيَانِ لَوْ بَلَغَاهَا بَعْدَ لَحَظَاتٍ يَسِيرَةٍ. شَدَّ مَا أَمْتَلَا قُلُوبَاهُمَا بِجَالِبَاتِ السُّرُورِ وَالْبَهْجَةِ.
رَأَى «جَحْوَانُ» فِي مَنَامِهِ قُبْرَةً تَطِيرُ مُحَلَّقَةً فِي الْجَوِّ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ. سَمِعَ الْقُبْرَةَ تُحَيِّيه أَجْمَلَ تَحِيَّةٍ، وَتُخْبِرُهُ أَنَّهَا قَادِمَةٌ عَلَيْهِ مِنْ بِلَادِ «الْوُقُوقِ» لِتَسْتَعِجِلَ سَفَرَهُ إِلَيْهَا، حَيْثُ يَنْعَمُ بِرُؤْيَا مَا تَحْوِيهِ مِنْ طَرَائِفَ لَا تَخْطُرُ عَلَى بَالٍ.
رَأَتْ «جُحَيَّةُ» فِي مَنَامِهَا شُحُرًا ظَرِيفًا يُغَرِّدُ — عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهَا — لَطَائِفَ مِنَ الْأَغَارِيدِ الرَّقَاقِ، تَشَوْقُهَا إِلَى رُؤْيَا بِلَادِ «الْوُقُوقِ».

(٨) عُصْفُورَانِ

فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، انْتَبَهَ الصَّغِيرَانِ مِنْ نَوْمِهِمَا. أَقْبَلَ كِلَاهُمَا يُحَدِّثُ صَاحِبَهُ بِمَا رَأَاهُ فِي الْمَنَامِ، مِنْ بَهِيَجِ الْأَحْلَامِ.
انْتَهَى الصَّغِيرَانِ مِنْ حَدِيثِهِمَا ... لَاحَ لَهُمَا خُطَافَانِ رَشِيقَانِ، يُحَلِّقَانِ فِي الْفَضَاءِ. حُيِّلَ إِلَيْهِمَا أَنَّهُمَا قَدِمَا لِتَحِيَّتِهِمَا مِنْ بِلَادِ «الْوُقُوقِ».
لَمْ يَتِمَّاكَ الصَّغِيرَانِ أَنْ صَاحَا مَذْهُوشَيْنِ: «هَا هُمَا ذَانِ عُصْفُورَانِ. مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ قَادِمَانِ. لَعَلَّهُمَا مِنْ بِلَادِ «الْوُقُوقِ» آتِيَانِ.»

سُرْعَانَ مَا دَبَّتِ الْحَيَاةُ وَالْحَرَكَةُ فِي كُلِّ أُنْحَاءِ الدَّارِ. اسْتَغْلَلَ الْجَمِيعُ بِتَخَيَّرِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ — فِي رِحْلَتِهِمُ الْوَشِيكَةَ — مِنْ مُعَدَّاتِ السَّفْرِ.

(٩) قُبَيْلَ السَّفْرِ

أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ: لَوْ أُتِيحَ لَكَ أَنْ تَرَى هَذَا الْمَشْهَدَ لَرَأَيْتَ عَجَبًا: «رَبَابَةٌ» غَادِيَةٌ رَائِحَةٌ، تُرْتَّبُ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَثَاثِ الدَّارِ. تُغَطِّيهِ فِي عِنَايَةٍ وَاهْتِمَامٍ. تَحْزِمُ الْأَشْيَاءَ الثَّمِينَةَ تَتَفَقَّدُ الْمَخَارِنَ. تُعْطِي جَارَتَهَا مَفَاتِيحَ بَيْتِهَا، تَجْمَعُ خَدَمَ الدَّارِ. تَأْمُرُهُمْ بِإِطَاعَتِهَا وَتَنْفِيذِ إِسَارَتِهَا.

دَمَعَتْ عَيْنَا جَارَتِهَا «رُبَيْدَةً».

تَجَلَّى نَشَاطُ «جَحْوَانَ» وَابْتِهَاجُهُ فِيمَا بَدَأَ مِنْ سُرْعَتِهِ وَمَهَارَتِهِ وَتَتَابُعِ حَرَكَتِهِ، وَمَا ارْتَسَمَ عَلَى أَسَارِيرِهِ^٢ مِنْ دَلَائِلِ فَرَحَتِهِ.

كَانَ «أَبُو النَّجَاءِ» — كَمَا عَلِمَتْ — آيَةً فِي الطَّاعَةِ وَالصَّفَاءِ. لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي إِنْجَارِ مَا يُؤْمَرُ بِهِ فِي غَيْرِ تَلَكُّؤٍ وَلَا إِبْطَاءٍ، وَلَا اعْتِرَاضٍ وَلَا وَنَاءٍ. كَانَ يُطِيعُ طَاعَةً عَمِيَاءَ.

كَانَتْ «جُحْيَةُ» تُقْبَلُ عَلَى دُمَيْتِهَا فَرَحَانَةً بِهَا، تُهَيِّئُ لَهَا مَتَاعَهَا وَسَرِيرَهَا.

(١٠) صِيَاخُ وَضُوضَاءُ

اسْتَتَارَتِ الْجَلْبَةُ وَالضُّوضَاءُ فُضُولَ «الْعُكْمُوسِ» وَ«الْخَوَارِ». بَعَثَتْ فِي قَلْبَيْهِمَا شَيْئًا مِنَ الْقَلْقِ. نَعَرَتِ الْبَقَرَةُ. نَهَقَ الْجَمَارُ.

صَاحَتِ الْبَيْغَاءُ «زُمْرَدَةً» تَزْجُرُهُمَا قَائِلَةً: «أَخْلَدَا إِلَى السُّكُونِ، آيَتْهَا الدَّابَّتَانِ. مَاذَا أَرْعَجَكُمَا وَأَقْلَقَ بَالَكُمَا؟ كُفَّا عَنِ الضُّوضَاءِ وَالْجَلْبَةِ. صَهْ أَيُّهَا الْأَبْلَهَانِ الْأُخْرَقَانِ! مَهْ أَيُّهَا الطَّائِشَانِ الْحَمِقَانِ!»

^٢ خطوط جبينه.

(١١) الرَّحِيلُ

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» — حِينِيذٍ — خَارِجَ الْبَيْتِ. كَانَ مَشْغُولًا بِإِعْدَادِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي رِحْلَتِهِ. عَادَ إِلَى الْبَيْتِ، وَعَلَى ثَغْرِهِ ابْتِسَامَةُ الرِّضَا وَالِابْتِهَاجِ بِمَا رَأَى مِنْ حَيَاةٍ شَامِلَةٍ، تَدِبُ فِي أَنْحَاءِ الدَّارِ.

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِزَوْجَتِهِ وَوَلَدَيْهِ: «لَا تَجْهَدُوا فِيمَا لَا جَدْوَى مِنْهُ وَلَا نَفْعَ فِيهِ. أَرَفْتُ^٣ سَاعَةَ السَّفَرِ. دَنَا وَقْتُ الرَّحِيلِ. لَنْ يَعُوزَنَا شَيْءٌ — فِي أَثْنَاءِ رِحْلَتِنَا — إِنْ شَاءَ اللَّهُ.»

ذَهَبَ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى الْبَقَرَةِ الشَّقْرَاءِ وَالْحِمَارِ. فَكَّهُمَا مِنْ مَرْبِطِهِمَا. عَجِبَتْ «رَبَابَةُ» مِمَّا رَأَتْ. سَأَلَتْهُ فِي دَهْشَةٍ: «مَاذَا أَنْتَ صَانِعٌ بِهِمَا يَا «أَبَا الْغُصْنِ»؟ مَا أَظْنُكَ تَنْوِي أَنْ تَأْخُذَهُمَا مَعَكَ لِيَصْحَبَاكَ فِي رِحْلَتِكَ الْبَعِيدَةِ!» أَجَابَهَا «أَبُو الْغُصْنِ» بِاسْمًا: «لَا تَنْزَعِجِي، يَا عَزِيزَتِي. لَا بُدَّ مِنْ اضْطِحَابِهِمَا — فِي رِحْلَتِنَا — طَالَتْ الرِّحْلَةُ أَمْ قَصُرَتْ. إِنْ مَا يَحْتِمُهُ عَلَيْنَا الْوَاجِبُ لَا سَبِيلَ إِلَى التَّخَلِّي عَنْهُ وَالتَّهَاقُوتِ فِيهِ.»

اشْتَدَّ عَجَبُ «رَبَابَةَ» مِمَّا سَمِعَتْ. لَكِنَّهَا أَثَرَتِ الصَّمْتُ؛ فَلَمْ تَنْطِقْ بِحَرْفٍ.

(١٢) قَافِلَةُ السَّفَرِ

هَمَسَ «جَحْوَانُ» فِي أُذُنِ أُخْتِهِ قَائِلًا: «شَدَّ مَا أَحْسَنَ الْوَالِدُ الْكَرِيمُ بِمَا صَنَعَ: هَيَّا لَنَا الْحِمَارَ لِنَرْكَبَهُ فِي رِحْلَتِنَا. لَمْ يَشَأْ أَنْ يُرْهَقَنَا بِالسَّيْرِ عَلَى أَقْدَامِنَا.» هَكَذَا ظَنَّ «جَحْوَانُ». لَهُ مَوْفُورُ الْعُدْرِ فِيمَا ظَنَّهُ!

^٣ قُرِبت.

^٤ فَضَّلَتِ السَّكُوتَ.

^٥ يَكْلَفُنَا مَا لَا نَطِيقُ.

لَكِنَّهُمْ لَنْ يَسِيرُوا عَلَى الْأَقْدَامِ، كَمَا كَانَ يَظُنُّ. أَعَدَّ لَهُمُ الْمَصْبَاحُ الْعَجِيبُ كُلَّ مَا طَلَبَهُ مِنْهُ «أَبُو الْغُصْنِ». أَسْرَ^٦ «أَبُو الْغُصْنِ» إِلَى الْمَصْبَاحِ — مِنْ قَبْلُ — بِكُلِّ مَا أَرَادَ. لَمْ تَسْمَعْ زَوْجَتَهُ وَلَا أَوْلَادَهُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ.

أَيُّ مَنْظَرٍ وَقَعَتْ عَلَيْهِ أَنْظَارُهُمْ عِنْدَمَا فُتِحَ بَابُ الْبَيْتِ؟! جَمَهَرَةٌ مِنَ الْخَيْلِ مُعَدَّةٌ لِلرُّكُوبِ. جَمَهَرَةٌ ثَانِيَّةٌ مِنَ الْبِغَالِ وَالنِّبَاقِ وَالْجِمَالِ تَحْمِلُ الْخِيَامَ وَالْهُوَادِجَ. جَمَهَرَةٌ ثَالِثَةٌ مِنَ الْخَدَمِ تَتْبَعُهَا، يُزْعَمُ عَلَيْهِمْ شَيْخٌ رَائِعُ السَّمْتِ، أَبْيَضُ اللَّحْيَةِ. هَكَذَا اجْتَمَعَ لِلْقَافِلَةِ كُلُّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مُعَدَّاتٍ لِسَفَرِهَا الطَّوِيلِ الشَّاقِّ، إِلَى بِلَادِ «الْوُقُوقِ».

كَانَتْ صَيْحَاتُ «جَحْوَان» وَ«جُحَيَّة» تَنُمُّ عَلَى فَرْطِ سُورِهِمَا وَإِعْجَابِهِمَا بِذَلِكَ السَّفَرِ الْمُفَاجِئِ، ضَاعَفَ مِنْ سُورِهِمَا أَنَّهَمَا يُسَافِرَانِ فِي قَافِلَةٍ كَامِلَةٍ الْمُعَدَّاتِ، لَا يَطْفَرُ بِمِثْلِهَا إِلَّا الْأُمَرَاءُ، وَكِبَارُ الْأَثَرِيَاءِ.

اخْتَارَ «جَحْوَانُ» أَنْ يَرْكَبَ صَاحِبَهُ الْحِمَارَ. سَارَتِ الشَّقَرَاءُ بِجَوَارِ الْحِمَارِ. رَكِبَتْ «جُحَيَّةُ» أَحَدَ الْهُوَادِجِ. رَكِبَتْ «رَبَابَةُ» نَاقَةً بَيْضَاءَ. مَشَتْ إِلَى جَانِبِ ابْنَتِهَا. اخْتَارَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِرُكُوبِهِ حِصَانًا أَسْوَدَ مُطَهَّمًا،^٧ مِنْ كِرَامِ الْخَيْلِ، وَأَصَائِلِ الْجِيَادِ.

(١٣) الْوَدَاعُ الْأَخِيرُ

كَانَتْ «رُبَيْدَةُ» وَاقِفَةً عَلَى سُدَّةِ^٨ الْبَابِ. وَدَّعَتْهَا الْأُسْرَةُ الْوَدَاعَ الْأَخِيرَ. سَارَتِ الْقَافِلَةُ فِي طَرِيقِهَا، يَتَقَدَّمُهَا الرَّائِدُ: يُنِيرُ لَهَا الطَّرِيقَ. يَهْدِيهَا سَوَاءَ السَّبِيلِ. التَّنَفَّتِ «جَحْوَانُ» الْمَاكِرُ إِلَى حِمَارِهِ بِاسِمًا. قَالَ: «قَدْ يُسَعِدُ الْإِنْسَانُ بِرَفَاقَةِ الْحِمَارِ أَحْيَانًا.»

^٦ همس.

^٧ تَامَ الْحَسَنَ.

^٨ عَتَبَةً.

(١٤) بَيْنَ «زُمُرْدَةٍ» وَ«جَحْوَانَ»

قَالَتْ «زُمُرْدَةُ» لِـ «جَحْوَانَ»: «صَدَقْتَ، يَا عَزِيزِي. وَقَدْ يُسَعِدُ الْحِمَارُ بِرِفَاقَةِ الْإِنْسَانِ، فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ!»
طَارَتْ «زُمُرْدَةُ» هَبَطَتْ عَلَى الْهُودَجِ حَيْثُ حَلَّتْ «جُحَيَّةٌ».

(١٥) فِي الطَّرِيقِ

خَرَجَتِ الْقَافِلَةُ مِنَ الْمَدِينَةِ. صَهَلَ الْجَوَادُ الَّذِي يَمْتَطِيهِ^٩ حَابِي الْقَافِلَةِ.
الصَّهِيلُ — كَمَا تَعْلَمُ — أَسْلُوبُ الْجَوَادِ الَّذِي أَلْفَهُ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ حَاجَتِهِ إِلَى سَمَاعِ الْغِنَاءِ، كُلَّمَا اشْتَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى الطَّرَبِ. لَعَلَّ الْجَوَادَ الذَّكِيَّ أَرَادَ أَنْ يَتَمَتَّعَ رِفَاقَهُ مِنَ الْجِمَالِ بِمَا وَهَبَ اللَّهُ رَائِدَ قَافِلَتِهِمْ مِنْ حَلَاوَةِ الصَّوْتِ وَبِدِيعِ الْإِنْشَادِ، وَرَائِعِ الْغِنَاءِ؛ لِيَسْهَلَ عَلَيْهِمْ عَنَاءُ السَّفَرِ، وَيُنَسِّيَهُمْ مَتَاعِبَ الطَّرِيقِ. فَهَمَّ الرَّائِدُ مَا يَعْنِيهِ الْجَوَادُ الصَّاهِلُ. أَسْرَعَ الرَّائِدُ إِلَى تَلْبِيَةِ رَجَائِهِ. أَصْلَحَ أَوْتَارَ الْعُودِ: عَزَفَ عَلَيْهَا بَدَائِعَ مِنْ أَنْغَامِهِ وَأَغَارِيدِهِ، وَفَنُونًا مِنْ أَرَاجِيهِهِ وَأَنَاشِيدِهِ. خَتَمَهَا بِالْأَرْجُوزَةِ التَّالِيَةِ:

أَكْرَمَ بِهِ مِنْ فَارِسٍ شُجَاعٍ أَضْرَى مِنَ النُّمُورِ وَالسَّبَاعِ
لَكِنَّهُ مُهَذَّبُ الطَّبَاعِ قَدْ شَغَلَتْهُ أَكْرَمُ الْمَسَاعِي
وَفَتَنَتْهُ أَنْبَلُ الدَّوَاعِي!

(١٦) رَحْلَةُ بَهِيَجَةٍ

سَارَتِ الْقَافِلَةُ عَلَى تَوْقِيعِ أَنْغَامِ الرَّائِدِ الْعَذْبَةِ. سُرَعَانَ مَا أَنْسَاهَا رَائِعُ الْغِنَاءِ، مَا تُكَادِي فِي سَفَرِهَا مِنْ عَنَاءٍ. كَانَتْ الرَّحْلَةُ — لِحُسْنِ الْحِظِّ — حَافِلَةً بِفُنُونٍ مِنَ الْبَهْجَةِ وَالطَّرَافَةِ، زَاخِرَةً بِاللَّوَانِ مِنَ الْعِلْمِ وَالتَّقَافَةِ.

^٩ يركبه.

أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ: مَا أَظُنُّكَ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ فِي وَصْفِ هَذِهِ الرَّحَلَةِ الْمُمْتِعَةِ. أَنْتَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ تَتَّبَعَ الرَّاحِلِينَ بِفِكَرِكَ، وَتُسَافِرَهُمْ بِخَيَالِكَ؛ فِي عَالَمِهِمُ الْفَسِيحِ، الْحَافِلِ بِأَشْأَاتِ الْبَدَائِعِ الْمُتَجَدِّدَةِ، وَرَوَائِعِ الْمُنَاطِرِ الْمُتَفَرِّدَةِ.

(١٧) حُبُّ الْمَعْرِفَةِ

غَمَرَتِ الْبَهْجَةُ قَلْبِي «جَحْوَانَ» وَ«جُحَيَّةً». حَبَبْتُ إِلَيْهِمَا أَنْ يَتَابِعَا كُلُّ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ أَعْيُنُهُمَا مِنْ مَنَاطِرٍ قَاتِيَةٍ مُعْجِبَةٍ. لَمْ يَكُفَّا عَنْ سُؤَالِ أَبِيهِمَا عَنْ كُلِّ مَا اسْتَنَارَ إِعْجَابُهُمَا. مِمَّا غَمَضَ عَنْهُمَا، وَدَقَّ عَلَى فَهْمِهِمَا.

كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» يُرَحِّبُ بِأَسْئَلَتِهِمَا، وَلَا يَدَّخِرُ وُسْعًا فِي تَحْقِيقِ رَغَبَاتِهِمَا، تَشْجِيْعًا لَهُمَا عَلَى الْإِسْتِرَادَةِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ فِي تِلْكَ السَّنِّ الْبَاكِرَةِ، الَّتِي تَخْتَرِنُ الذَّاكِرَةَ فِيهَا كُلُّ مَا يَمُرُّ بِهَا مِنْ دُرُوسِ الْحَيَاةِ وَتَجَارِبِهَا، وَمَبَاهِجِهَا وَمَتَاعِهَا، لِتَنْتَفِعَ — فِي قَابِلِ أَعْوَامِهَا — بِمَا حَصَلَتْهُ فِي مَاضِي أَيَّامِهَا.

كَانَتْ «رَبَابَةٌ» مَسْرُورَةٌ بِمَا يَغْمُرُ قَلْبِي صَغِيرِيهَا مِنْ بَهْجَةٍ وَإِينَاسٍ. كَانَتْ تَهْتَرُ عَلَى نَاقَتِهَا، غَارِقَةً فِي أَحْلَامِهَا السَّعِيدَةِ، قَرِيرَةً الْعَيْنِ بِمَا تَرَاهُ عَلَى مَلَامِحٍ وَلَدِيهَا مِنْ دَلَائِلِ السُّرُورِ، وَأَمَارَاتِ الْمَرَحِ وَالْحُبُورِ.

كَانَتْ رِحْلَتُهُمْ غَايَةً فِي الْحُسْنِ وَالْإِمْتَاعِ، يَكْلُوهُمْ ١٠ اللَّهُ بِرِعَايَتِهِ، وَيُظِلُّهُمْ بِحِمَايَتِهِ. اجْتَازَتِ الْقَافِلَةُ مَسَافَاتٍ بَعِيدَةً شَاسِعَةً. كَانَتْ الْقَافِلَةُ تَقِفُ — بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ — لِتَتَقَيَّأَ الظَّلَالَ، وَتَلْتَمِسَ الرَّاحَةَ مِنَ الْكَلَالِ.

كَانَ أَوَّلُ مَا يَشْغُلُ «جَحْوَانَ» وَ«جُحَيَّةً» أَنْ يُعْنَى كِلَاهُمَا بِدَابَّتَيْهِمَا. كَانَتْ «جُحَيَّةٌ» تُسْرِعُ — فِي نِهَايَةِ كُلِّ مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاكِ السَّفَرِ إِلَى بَقَرَتِهَا الشَّقْرَاءِ، وَمَعَهَا كَوْمَةٌ مِنَ الْحَشَائِشِ الْخَضِرِ. كَانَ أَخُوهَا جَحْوَانُ لَا يَقْصُرُ فِي إِحْضَارِ الْعَلْفِ لِلْجِمَارِ.

(١٨) بَرَاغَةُ الْبَبْغَاءِ

كَانَتْ «زُمْرَدَةٌ» لَا تَكَادُ تُفَارِقُ الْقَافِلَةَ. كَانَتْ تَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَتَطِيرُ مِنْ هَوْدَجٍ إِلَى هَوْدَجٍ.
كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» شَدِيدَ الْإِعْجَابِ بِالْبَبْغَاءِ الذِّكِّيَّةِ الْبَارِعَةِ. كَانَتْ لَا تَكْفُ عَنْ مُدَاعَبَتِهِمْ وَتَسْلِيَتِهِمْ طُولَ رِحْلَتِهِمْ.
طَالَمَا قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِنَفْسِهِ: «لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْبَبْغَاءُ إِنْسَانًا، لَكَانَتْ مُحَدِّثَةً مَاهِرَةً، خَبِيرَةً بِطَبَائِعِ النُّفُوسِ».

(١٩) مَفَازَةُ قَاحِلَةٌ

ظَلَّتِ الْقَافِلَةُ تُوَاصِلُ سَيْرَهَا. بَلَغَتِ الْقَافِلَةُ مَفَازَةً كَبِيرَةً. رَأَوْا فَضَاءً فَسِيحًا، وَأُفُقًا رَحِيْبًا. شَهِدُوا أَرْضًا — عَلَى سَعَتِهَا — قَاحِلَةً، لَا مَاءَ فِيهَا وَلَا زَرْعَ، لَا سَاكِنَ فِيهَا وَلَا دَيَّارَ،^{١١} لَا تَحْتَوِي إِلَّا صُخُورًا جَاسِيَةً،^{١٢} وَرِمَالًا تَكَادُ تَلْتَهَبُ مِنَ الْقَيْظِ.^{١٣} عَوَاصِفَ وَزَوَابِعَ لَا تَكَادُ تَهْدَأُ. رِيَاحًا هُوجًا تُثِيرُ — بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ — تِلَالًا مِنَ الرَّمَالِ، تُحِيلُ لِمَنْ يَرَاهَا أَنَّهَا أَمْوَاجٌ تَتَسَامَى إِلَى السَّحَابِ، يَجِيئُ بِهَا بَحْرٌ ثَائِرٌ صَخَّابٌ.
كَانَتْ — فِي الْحَقِّ — مَفَازَةً هَائِلَةً. كُلُّ مَا فِيهَا مِنْ حَيَوَانٍ يَلْهَثُ^{١٤} مِنْ فَرْطِ الْقَيْظِ!
كَانَ الْأَمَلُ وَالشُّعُورُ بِالْوَاجِبِ يَعْمُرَانِ قَلْبَ «أَبِي الْغُصْنِ». كَانَا يُجَدِّدَانِ مِنْ قُوَّتِهِ، وَيَقْوِيَانِ مِنْ عَزَمَتِهِ. كَانَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَأَنَّ الثَّوَابَ عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ.

^{١١} لا أحد.

^{١٢} صلبة.

^{١٣} شدة الحر.

^{١٤} يُخرج لسانه تعبًا وعطشًا.

مَضَتْ عَلَى الْقَافِلَةِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ. فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ، سَأَلَ «أَبُو الْغُصْنِ» دَلِيلَ الْقَافِلَةِ «أَبَا النَّجَاءِ»: «أَتَرَانَا دَنَوْنَا^{١٥} مِنْ غَايَتِنَا فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ؟»
تَنَاوَلَ الدَّلِيلُ قُبْضَةً مِنَ الرَّمْلِ أَمَرَ عَلَيْهَا أَصَابِعُهُ. تَحَسَّسَهَا بِأَنَامِلِهِ. أَدْنَاهَا إِلَى أَنْفِهِ يَسُوفُهَا. ١٦ ابْتَسَمَ لـ «أَبِي الْغُصْنِ» قَائِلًا: «أَصْبَحْنَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ مِنَ الْوَاخَةِ الْمَسْحُورَةِ؛ حَيْثُ يَنْقُلُنَا «أَبُو السَّمْعَمَعِ»، إِلَى بِلَادِ «الْوُقُوقِ» فِي لَحَظَاتٍ قَلِيلَةٍ.»
بَعْدَ يَوْمَيْنِ ظَهَرَ لَهُمْ فِي الْأَفَقِ خَطٌّ أَخْضَرُ، بَيْنَ الرَّمْلِ الْأَصْفَرِ وَالسَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ. دَلَّ الْقَافِلَةَ عَلَى مَكَانِ الْفُنْدُقِ الْمُعَدِّ لِإِقَامَتِهَا.

(٢٠) الْوَاخَةُ الْمَسْحُورَةُ

كَانَتِ الْوَاخَةُ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَيْهَا رِحْلَةُ «أَبِي الْغُصْنِ» مِنْ أَجْمَلِ مَا رَأَهُ مِنَ الْوَاخَاتِ فِي حَيَاتِهِ، عَلَى كَثْرَةِ أَسْفَارِهِ وَرِحْلَاتِهِ.
لَا تَنْسُ أَنَّ الْوَاخَاتِ فِي الصَّحَرَاءِ كَالْجَزَائِرِ فِي الْبَحَارِ، تَخْتَلِفُ مَسَاحَاتُهَا وَمَوَاقِعُهَا سَعَةً وَجَمَالًا.
ابْتَهَجَتِ الْقَافِلَةُ الْجُحُويَّةُ بِالْوَاخَةِ الْخُصْبَةِ الْجَدِيدَةِ، حَيْثُ ضَرَبُوا خِيَامَهُمْ، وَأَرَاخُوا بُعْرَانَهُمْ،^{١٧} وَجَلَسُوا يَسْتَرِيحُونَ مِنْ عَنَاءِ السَّفَرِ، وَيَتَفَقَّيُونَ ظِلَالَهَا الْوَرِيْقَةَ.^{١٨}

(٢١) طُيُورُ الْبُحَيْرَةِ

كَانَ «جَحْوَانُ» وَ«جُحَيَّةُ» أَكْثَرُ أَفْرَادِ الْقَافِلَةِ فَرَحًا، وَأَشَدَّهُمْ مَرَحًا. اخْتَارَ «أَبُو الْغُصْنِ» لِقَافِلَتِهِ مَكَانًا بَدِيدًا عَلَى ضِفَّةِ بُحَيْرَةٍ صَغِيرَةٍ عَذْبَةٍ، فَضِيَّةِ الْأَمْوَاهِ،^{١٩} عَامِرَةٍ بِآلَافٍ مِنْ

^{١٥} قربنا.

^{١٦} يشمها.

^{١٧} جمالهم.

^{١٨} الواسعة الممتدة.

^{١٩} المياه.

أَسْرَابِ ٢٠ الطُّيُورِ الَّتِي تَوُمُّهَا ٢١ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، لِنَتَغَتَسَلَ فِي مِيَاهِهَا. مِنْهَا مَا يَرُوقُ الْعَيْنَ بِمَا مَيَّرَهُ اللَّهُ مِنْ جَمِيلِ الرِّيشِ وَبَدِيعِ الشَّكْلِ؛ وَمِنْهَا مَا يُمْتَعُ السَّمْعُ بِمَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ حُلُوِّ التَّغْرِيدِ، بِعَذْبِ الْأَلْحَانِ وَرَائِعِ الْأَنَاشِيدِ؛ وَمِنْهَا مَا يَصْلُحُ طَعَامًا سَائِغًا شَهِيًّا، بَعْدَ أَنْ يُشَوَى عَلَى السَّفُودِ. ٢٢

الْقَى الْمِصْبَاحُ شَبَكَةً فِي الْبَحِيرَةِ. عَادَ بِهَا زَاخِرَةٌ بِجَمْهَرَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ أَسْرَابِ الْبَطِّ وَطُيُورِ الْمَاءِ وَالْبَرِّ، وَدَوَابِّ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا وَقَدَ عَلَيْهَا — مِنَ الْأَدْغَالِ وَالْأَحْرَاجِ — مِنْ صِغَارِ الدَّوَاجِنِ وَكِبَارِهَا، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الطُّيُورِ.
كَانَ — فِي الْحَقِّ — صَيْدًا عَظِيمًا! كَانَتْ مُفَاجَأَةً مُسْتَمْلَحَةً!

(٢٢) جِسْمُ الْجَرَادَةِ

عَجِبَ «جَحْوَانُ» حِينَ رَأَى الْجَرَادَةَ أَوَّلَ مَا رَآهَا.
قَالَ لِأُخْتِهِ «جُحَيَّةَ»: «تَأَمَّلِي هَذِهِ الْجَرَادَةَ الْعَجِيبَةَ، يَا أُخْتَاهُ.»
قَالَتْ «جُحَيَّةَ»: «مَا أَعْجَبَ تَرْكِيبَ جِسْمِهَا، يَا أَخِي! تَرَى أَيَّ طَائِرٍ هِيَ، يَا «جَحْوَانُ»؟ تَبَارَكَ اللَّهُ. مَا أَعْجَبَ خَلْقَهَا، وَأَدَقَّ تَرْكِيبَهَا: رَأْسُ جَوَادٍ. ٢٣ عَيْنَا فِيلٍ. رَقَبَةُ عَجَلٍ!»

قَالَ «جَحْوَانُ»: «قَدَمَا نَعَامَةً. بَطْنُ عَقْرَبٍ. ظَهْرُ نُعْبَانٍ. تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ!»
اشْتَدَّ بِهِمَا الْعَجَبُ حِينَ رَأَيَا «أَبَا النَّجَاءِ» يَسْتَنْطِيبُ لَحْمَ الْجَرَادِ وَيَسْتَمْرِئُهُ.
انْدَفَعَا يَتَسَاءَلَانِ: «كَيْفَ يَسْتَسِيغُهُ طَعَامًا وَيَلْتَهُمُهُ الَّتَاهُمَا؟»

٢٠ جماعات.

٢١ تقصدها.

٢٢ حديدية يُشوى بها اللحم.

٢٣ حصان.

ذَهَبَ الصَّغِيرَانِ إِلَى الْمَاءِ النَّمِيرِ^{٢٤} الصَّافِي. شَرِبَا مِنْهُ حَتَّى ارْتَوَيَا. انْدَفَعَا بَيْنَ الْأَشْجَارِ الْوَارِفَةِ الظَّلَالِ، يَلْهُوَانِ بِقُطْفِ أَثْمَارِهَا الشَّهِيَّةِ، وَأَزْهَارِهَا الْبَهِيَّةِ، وَعُطُورِهَا الشَّدِيَّةِ.

(٢٣) قَلَقٌ وَندَمٌ

ابْتَهَجَ كُلُّ مَنْ فِي الْقَافِلَةِ، مَا عَدَا «أَبَا الْغُصْنِ». كَانَ يَشْغَلُهُ التَّفَكِيرُ فِي إِنْقَازِ الدَّابَّتَيْنِ التَّاعِسَتَيْنِ مِمَّا حَلَّ بِهِمَا مِنْ بَلَاءٍ. كَانَ شُعُورُهُ بِمَا يَقْتَضِيهِ وَاجِبُهُ الْإِنْسَانِي النَّبِيلُ يَمْلَأُ قَلْبَهُ الرَّحِيمِ.

كَانَ يُنْسِيهِ مَا عَدَاهُ. كَانَ يَتَمَنَّى لَوْ بَلَغَ بِلَادَ «الْوُقُوقِ» بَعْدَ لَحْظَاتٍ، حَيْثُ يَلْقَى «أَبَا شَعْشَعٍ» — فِي عَاصِمَتِهَا: «عَبْقَرٍ» — فَيُعِيدُ لِلدَّابَّتَيْنِ سِيرَتَهُمَا الْأُولَى.

(٢٤) رِسَالَةٌ كَرِيمَةٌ

كَانَتْ الْبَيْغَاءُ مُسْتَخْفِيَةً مُنْذُ وَصَلَتِ الْقَافِلَةُ إِلَى تِلْكَ الْأَنْحَاءِ. الْآنَ عَادَتِ الْبَيْغَاءُ إِلَيْهِمْ، وَسَلَّمَتْ عَلَيْهِمْ. اسْتَقَرَّتِ الْبَيْغَاءُ عَلَى كَتِفِ «أَبِي الْغُصْنِ». قَدَّمَتْ لَهُ بِطَرَفٍ مِنْقَارِهَا رِسَالَةً مِنْ أَوْزَاقِ الذَّهَبِ، مُحَلَّاةٌ بِالْيَاقُوتِ وَالْمَاسِ.

فَصَّ «أَبُو الْغُصْنِ» غِلَافَ الرِّسَالَةِ. قَرَأَ فِيهَا الْكَلِمَاتِ الْآتِيَةَ:

شَاءَ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — أَنْ أَذْهَبَ مَعَ نَفَرٍ^{٢٥} مِنْ إِخْوَانِي زُعَمَاءِ «عَبْقَرٍ» إِلَى بَلَدٍ نَاءٍ^{٢٦} فِي مَكَانٍ قَصِيٍّ مِنَ الْعَالَمِ؛ لِنُخْلَصَ أَحَدَ الْبُرَّاءِ، مِنْ تُهْمَةٍ هُوَ مِنْهَا بَرَاءٌ.

أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ الْجَنِّيَّ «أَبَا السَّمْعَمَعَ» الَّذِي لَقِيْتَهُ فِي الْكَهْفِ: كَانَ يَحْمِلُ — عَلَى كَتِفِهِ — الْحَيَّةَ الَّتِي أَلْقَتْ إِلَيْكَ بِ «مُصْبَاحِ الْكُنْزِ».

هَآ أَنَا ذَا أَرْسَلُهُ إِلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى؛ لِيَنْقُذَكَ إِلَى قَصْرِ «الْوُقُوقِ»؛ حَيْثُ تَجِدُ مَثَاتٍ مِنْ أَتْبَاعِي يَتَفَانُونَ فِي طَاعَتِكَ، وَلَا يَتَوَانُونَ عَنْ تَلْبِيَةِ إِشَارَتِكَ.

^{٢٤} الناجع السائغ الهني.

^{٢٥} جماعة.

^{٢٦} بعيد.

أَعْفَيْتُكَ — مُنْذُ الْيَوْمِ — مِنْ كِتْمَانِ السِّرِّ الَّذِي عَاهَدْتَنِي عَلَى كِتْمَانِهِ مِنْ قَبْلُ. يَسْرُنِي أَنَّكَ وَفَيْتَ بِوَعْدِكَ، وَبَرَرْتَ بِعَهْدِكَ؛ فَلَمْ تُطْلِعْ أَحَدًا عَلَى السِّرِّ. أَنْ لَكَ أَنْ تُفْضِيَ بِهِ إِلَى مَنْ تَشَاءُ مِنْ أَهْلِكَ؛ لِيَتَعَرَّفُوا مَا مَيَّرَكَ اللَّهُ بِهِ مِنْ صَفَاءٍ وَمَحَبَّةٍ لِلْخَيْرِ، وَيُطَالِعُوا — فِي قِصَّتِكَ — مِثَالًا كَرِيمًا لِلْمَرْوَةِ وَالصَّفْحِ، وَمُقَابَلَةً لِلْإِسَاءَةِ بِالْإِحْسَانِ. سَأَلَقَاكَ بَعْدَ أَيَّامٍ. حَفِظَكَ اللَّهُ وَرَعَاكَ، وَأَدَامَكَ وَأَبْقَاكَ، لِصَدِيقِكَ الَّذِي لَا يُنْسَاكَ.»

لَعَلَّعَ بَنَ دَعْدَعٍ

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «شُكْرًا لِلْوَفِيِّ الْكَرِيمِ: أَمِيرِ الْجِنِّ «أَبِي شَعْشَعٍ». فَلْيَكُنْ لَهُ مَا يُرِيدُ.»

(٢٥) فِي قَصْرِ «عَبْقَرٍ»

سُرْعَانَ مَا نَقَلَهُمْ «أَبُو السَّمْعَمَعِ» إِلَى جَزِيرَةِ الْغَرَائِبِ، وَمَوْطِنِ الْعَجَائِبِ: جَزِيرَةِ «عَبْقَرٍ»: عَاصِمَةِ بِلَادِ «الْوَقَوَاقِ».

حَانَتْ مِنْ «أَبِي الْغُصْنِ» التِّفَاتَةُ. رَأَى «رَبَابَةً» عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنْهُ. كِلَاهُمَا مَدْهُوَشٌ مِنَ النُّقْلَةِ الْمُفَاجِئَةِ الَّتِي لَمْ تَسْتَغْرِقْ سِوَى لَحْظَاتٍ.

مَا أَعْجَبَ مَا يَرِيَانِ: أَنْقَاضًا مُتْرَاكِمَةً مِنْ حِجَارَةٍ مُبْعَثَرَةٍ، تَتَجَمَّعُ فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ، فَيَاذَا هِيَ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ،^{٢٧} مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ بِمَدَادٍ مِنْ ذَوْبِ النُّصَارِ: ^{٢٨} قَصْرُ «الْوَقَوَاقِ». اسْتَقَرَّتْ «زُمُرْدَةٌ» عَلَى كَتِفِ «أَبِي الْغُصْنِ». قَالَتْ: «مَرْحَبًا بِكُمْ، يَا رِفَاقُ. طَائِفَةٌ تَنْتَظِرُكُمْ مِنْ عَجَائِبِ «عَبْقَرٍ»: عَاصِمَةِ «الْوَقَوَاقِ»: غَدِيرٌ سَيَّارٌ، يَنْسَابُ بَيْنَ الْوُرُودِ وَالْأَزْهَارِ، وَيَتَخَلَّلُ الْحَمَائِلَ وَالْأَشْجَارَ. عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنَ الْغَدِيرِ زَرِيبَةٌ فَاجِرَةٌ أُعِدَّتْ لِلْبَقَرَةِ وَالْحِمَارِ.»

^{٢٧} أَمْلَسَ.

^{٢٨} ماء الذهب.

جَلَسَ «أَبُو الْغُصْنِ» وَزَوْجَتُهُ وَوَلَدَاهُ فِي رُؤَايَ فَآخِرٍ، عَلَى أَرَاكَ ذَهَبِيَّةٍ، مُحَلَّلَةٍ بِأَنْفَسِ اللَّالِي وَالْيَوَاقِيتِ.

(٢٦) عَلَى الْمَائِدَةِ

حَانَ مَوْعِدُ الطَّعَامِ. شَعَرُوا بِالْجُوعِ. أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ خَادِمٌ يَرْتَدِي ثِيَابًا حَرِيرِيَّةً مُفَضَّضَةً، يَدْعُوهُمْ إِلَى مَائِدَةٍ حَافِلَةٍ بِأَشْهَى أَلْوَانِ الطَّعَامِ.

جَلَسُوا يَأْكُلُونَ وَيَسْتَمِعُونَ إِلَى رَوَائِعَ مِنْ مُوسِيقَى «عَبَقَرٍ»، وَيُنْصَنُونَ إِلَى أَغَارِيدِ بَارِعَةِ الْأَلْحَانِ، وَأَنَاشِيدِ رَائِعَةِ الْأَنْعَامِ، تَسْمَعُهَا آذَانُهُمْ، وَلَا تَرَاهَا أَعْيُنُهُمْ. رَأَوْا سَقْفَ الْحُجْرَةِ يُضِيءُ جَنَابَاتِهَا وَأَرْجَاءُهَا، بِمَا يُرْسِلُهُ عَلَيْهَا مِنْ أَشْعَةٍ رَقِيقَةٍ، أَبْهَى مِنْ أَشْعَةِ الشَّمْسِ، وَأَسْنَى مِنْ أَضْوَاءِ الْقَمَرِ.

(٢٧) أَلْوَا حِ السَّيِّمَى

رَأَوْا عَلَى الْحَائِطِ لَوْحَيْنِ بَلُورَيْنِ شَفَافَيْنِ، يَرْتَسِمُ فِي أَحَدِهِمَا صُورَةُ الْأَكْلَيْنِ، وَمَا تَحْوِيهِ الْمَائِدَةُ، وَيَرْتَسِمُ فِي الْآخَرِ وَجَازَاتٌ مَكْتُوبَةٌ بِأَحْرَفٍ مُنَوَّرَةٍ، تُعَرِّفُ الطَّاعِمِينَ^{٢٩} خَصَائِصَ مَا يَأْكُلُونَ، وَمَا يَحْتَوِيهِ كُلُّ لَوْنٍ مِنَ أَلْوَانِ طَعَامِهِمْ مِنْ عَنَاصِرِ التَّغْذِيَةِ، وَمِقْدَارَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْجِسْمُ مِنْهَا، وَمَا يَجْرُهُ النَّهْمُ وَالْإِفْرَاطُ فِي تَنَاوُلِهِ، مِنْ عُسْرِ الْهَضْمِ، وَاخْتِلَالِ الصَّحَّةِ.

سَمِعُوا صَوْتًا مُوسِيقِيًّا عَذْبَ النَّبَرَاتِ، بَارِعَ النَّغَمَاتِ، يَتَلَوُّ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الْوَجَازَاتِ الْمَكْتُوبَةِ. تَمَّ لَهُمْ بِذَلِكَ: بَهْجَةُ الْفَمِ بِلَذَائِدِ مَا يَأْكُلُ. نِعْمَةُ الْعَيْنِ بِبَدَائِعِ مَا تَقْرَأُ. سُورُ الْأُذُنِ بِلَطَائِفِ مَا تَسْمَعُ، حِمَايَةُ الْمَعِدَةِ مِنَ الْإِنْدِفَاعِ فِي التَّهَامِ الطَّعَامِ.

تَعَلَّمَ الصَّغِيرَانِ — مِمَّا قَرَأَهُ وَسَمِعَاهُ — أَضْرَارَ التَّخَمَةِ. عَرَفُوا كَيْفَ يَجْنِي الْإِفْرَاطُ فِي الطَّعَامِ عَلَى ذَوِي النَّهْمِ وَالشَّرِّهِ، فَيَمْرِضُهُمْ وَيُسْلِمُهُمْ إِلَى الضَّعْفِ وَالْهَزَالِ.

^{٢٩} الْأَكْلَيْنِ.

انْتَهَوْا مِنَ الطَّعَامِ. جَلَسُوا يَشْهَدُونَ بِدَائِعِ مِنَ الْقِصَصِ، مُصَوَّرَةً وَقَائِعُهَا أَمَامَهُمْ فِي مِثْلِ اللَّوْحِ «السِّيَمَى» الَّتِي نَشَّهَدُهَا — فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ — بَيْنَ فَاجِعَةٍ وَمَأْسَاءٍ. وَضَاحِكَةٍ وَمَلْهَاهٍ، وَهَارِجَةٍ وَمَسْلَاةٍ.

تَعَاقَبَتِ اللَّوْحُ أُخْرُ، تُرِيهِمْ فُنُونًا مِمَّا تَفِيضُ بِهِ بِلَادُ «الْوَقَوَاقِ»، وَحَاضِرَتُهَا «عَبْقَرُ» مِنْ آيَاتِ بَاهِرَاتٍ، وَمَشَاهِدِ فَاتِنَاتٍ.

كَانَتْ «زُمُرْدَةُ» دَائِبَةً عَلَى تَرْجَمَةٍ مَا يَسْتَدِقُّ مِنْ غَامِضِ مَعَانِيهَا، وَشَرَحَ مَا يَسْتَسِرُّ^{٣٠} مِنْ بَارِعِ مَضَامِينِهَا وَمَغَازِيهَا.

(٢٨) الْمِخْدَعُ الْمَاسِيُّ

انْتَقَلَتِ الْأُسْرَةُ — بَعْدَ قَلِيلٍ — إِلَى مِخْدَعٍ^{٣١} صَغِيرٍ مَنْحُوتٍ مِنْ حَجَرٍ كَبِيرٍ مَاسِيٍّ، عَرْضُهُ عَشْرُ أَقْدَامٍ، وَطُولُهُ سِتُّ عَشْرَةَ قَدَمًا، تَنْبَعُثُ الْأَضْوَاءُ فِيهِ مِنْ أَعْمَاقِهِ وَأَعَالِيهِ عَلَى جُذْرَانِهِ وَحَيْطَانِهِ!

قُدِّمَتْ لَهُمُ الْقِرْفَةُ وَالزَّنَجَبِيلُ فِي أَكْوَابٍ مِنَ اللَّالِئِ الثَّمِينَةِ، لَا عَهْدَ لِأَحَدٍ بِرُؤْيَا أَمْثَالِهَا!

قُدِّمَتْ الْأَكْوَابُ اللَّوْلُؤِيَّةُ عَلَى أَطْبَاقٍ مَصُوغَةٍ مِنْ نَفَائِسِ الْأَحْبَارِ الْكَرِيمَةِ!

(٢٩) عَاقِبَةُ الْكَذِبِ

أَمْسَكَ «جَحْوَانُ» بِأَحَدِ الْأَكْوَابِ يَتَأَمَّلُ بَدِيعَ صُنْعِهِ. سَقَطَ الْكُوبُ مِنْ يَدِهِ وَتَحَطَّمَ. انْتَهَرَهُ أَبُوهُ لِإِهْمَالِهِ.

قَالَ «جَحْوَانُ»: «أَنَا لَمْ أَكْسِرِ الْكُوبَ، يَا أَبِي. مَا إِنَّ أَتَمَّ «جَحْوَانُ» كِذْبَتَهُ، حَتَّى ظَهَرَ — أَمَامَهُمْ، عَلَى لَوْحِ «السِّيَمَى» — فِي صُورَةٍ قَرْدٍ صَغِيرٍ! كَانَ وَجْهُهُ فِي مِثْلِ لَوْحِ الْأَبْنُسِ.

^{٣٠} يستخفي.

^{٣١} حجرة صغيرة.

ابْتَدَرْتَهُ «زُمُرْدَةً» قَائِلَةً: «أَرَأَيْتَ — يَا «جَحْوَانُ» — عَاقِبَةَ الْكُذِبِ؟ مَا أَجْدَرَ الْكُذَابَ أَنْ يُمَسَّحَ قَرْدًا!»

تَفَرَّعَ «جَحْوَانُ» مِمَّا رَأَى. صَرَخَ قَائِلًا: «قُبِّحَ الْكُذِبُ وَالْكَذَابُ! لَمْ يَكْسِرِ الْكُوبَ إِلَّا أَنَا. لَمْ يَكْسِرْهُ أَحَدٌ سِوَايَ.»

مَا إِنَّ أَتَمَّ «جَحْوَانُ» قَوْلَتَهُ، حَتَّى عَادَتْ صُورَتُهُ عَلَى لَوْحِ «السَّيْمَى» إِلَى أَبْهَى مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ.

خَافَتْ «جُحْيَةُ» مِمَّا رَأَتْ. طَمَأْنَنْتَهَا «رَبَابَةُ» قَائِلَةً: «لَا تُرَاعِي^{٣٢} يَا عَزِيزَتِي. لَا خَطَرَ عَلَيْكَ مِنَ الْبَقَاءِ فِي هَذِهِ الدِّيَارِ. أَنْتِ لَا تَكْذِبِينَ أَبَدًا.»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «حَانَ الْوَقْتُ الَّذِي أَكْاشَفُكُمْ فِيهِ بِمَا حَفَرَنِي إِلَى الْقِيَامِ بِهِذِهِ الرَّحْلَةِ. اأَلْقُوا إِلَيَّ بِأَسْمَاعِكُمْ.»

أَقْبَلَتْ «رَبَابَةُ» وَوَلَدَاهَا يُنْصِتُونَ إِلَيْهِ. قَرَأَ عَلَيْهِمْ «أَبُو الْغُصْنِ» كِتَابَ أَمِيرِ الْجِنِّ، شَفَعَهُ بِقِصَّةِ الدَّابَّتَيْنِ. كَانَتْ أَعْجَبَ قِصَّةٍ سَمِعُوهَا، فِي أَغْرَبِ بِلَادٍ شَهِدُوهَا. مَا إِنَّ أَتَمَّ قِصَّتَهُ حَتَّى صَاحَتِ الْبُبْعَاءُ قَائِلَةً: «صَدَقْتَ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — فِي كُلِّ مَا حَكَيْتَ.»

تَحَيَّرَ الْجَمِيعُ مِمَّا رَأَوْا وَسَمِعُوا.

(٣٠) أَسَفٌ وَاعْتِذَارٌ

صَاحَ «جَحْوَانُ» قَائِلًا: «مَا أَشَوْقَنِي إِلَى لِقَاءِ الْحِمَارِ!»

سَأَلَهُ «أَبُو الْغُصْنِ»: «لِمَاذَا، يَا جَحْوَانُ!»

قَالَ: «أُرِيدُ أَنْ أَلْتَمِسَ مِنْهُ الصَّفْحَ عَمَّا بَدَرَ مِنِّي. أَنَا قَصَرْتُ فِي آدَاءٍ وَاجِبِي نَحْوَهُ مَرَّتَيْنِ. فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى: تَأَخَّرْتُ فِي تَقْدِيمِ الْعَلْفِ فِي مَوْعِدِهِ. فِي الثَّانِيَةِ: لَمْ أَقْدِمُ لَهُ مَاءً صَافِيًا نَقِيًّا. شَدَّ مَا يَحْزُنُنِي مَا أَسْلَفْتُ إِلَيْهِ مِنْ إِسَاءَةٍ.»

^{٣٢} لا تخافي.

سَأَلَهُ «أَبُو الْغُصَنِ»: «أَيُّ إِسَاءَةٍ أَسْلَفْتَهَا. يَا جَحْوَانُ؟»
 قَالَ: «كَانَ يَحْلُو لِي — بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ — أَنْ أَدَاعِبُهُ بِطَرْفِ الْعَصَا. كُنْتُ أُوهِمُهُ
 أَنْنِي سَأُضْرِبُهُ بِهَا.
 شَدَّ مَا يُؤَسِّفُنِي أَنْ أَسَأْتُ إِلَى صَدِيقِي الْحِمَارِ. لَنْ يَهْدَأَ لِي بَالٌ وَلَنْ يَقَرَّ لِي قَرَارٌ،
 قَبْلَ أَنْ أَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِصَادِقِ النَّدَمِ وَالْإِعْتِذَارِ!»
 قَالَتْ «جُحَيَّةُ» مُتَأَلِّمَةً: «مَا أَجْدَرَنِي أَنْ أَعْتَذِرَ إِلَى صَدِيقَتِي الْبَقَرَةِ. كُنْتُ أَسْحَرُ
 مِنْهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ. كُنْتُ أَلْقِبُهَا بِالْبَقَرَةِ الْعَجُوزِ.»
 قَالَ «أَبُو الْغُصَنِ»: «الآنَ تَأْسَفَانِ عَلَى مَا أَسْلَفْتُمَا مِنْ إِسَاءَةٍ إِلَى الْحَيَوَانِ، بَعْدَ أَنْ
 عَرَفْتُمَا أَنَّهُ إِنْسَانٌ؟! كَانَ أَكْرَمَ لَكُمَا وَأَخْلَقَ بِكُمَا أَلَّا تَقْصُرَا عَطْفَكُمَا عَلَى الْإِنْسَانِ دُونَ
 الْحَيَوَانِ.»

تَحَيَّرَ الصَّغِيرَانِ. لَمْ يَدْرِيا: كَيْفَ يُجِيبَانِ، وَبِأَيِّ حُجَّةٍ يَعْذِرَانِ!
 رَأَتْ «رَبَابَةُ» حَيْرَتَهُمَا وَاضْطِرَابَهُمَا. قَالَتْ «رَبَابَةُ» لَهُمَا: «لَا رَيْبَ — يَا عَزِيزَيَّ —
 أَنَّ عَلَيْنَا لِلْحَيَوَانِ دَيْنًا عَظِيمًا. لَا تَنْسِيَا أَنَّهُ يَخْدُمُنَا وَيَنْفَعُنَا، وَأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنِ الشُّكْوَى،
 عَجَزَهُ عَنِ الدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ!»

(٣١) عَهْدٌ وَمِثَاقٌ

قَالَ «جَحْوَانُ»: «عَلَيَّ عَهْدٌ — مُنْذُ هَذِهِ السَّاعَةِ — وَمِثَاقٌ: أَلَّا أُسَيِّءَ إِلَى حِمَارٍ أَوْ صَادِقِهِ
 — بَعْدَ الْيَوْمِ — وَأَلَّا أَهْمَّ بِضَرْبِهِ إِذَا رَكِبْتُهُ.»
 كَانَ «جَحْوَانُ» — وَهُوَ يَنْطِقُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ — يَقْتَرِبُ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنَ الْبَابِ،
 وَخَلْفَهُ «جُحَيَّةُ».
 انْدَفَعَ كِلَاهُمَا إِلَى الْخَارِجِ، تَحْدُوهُمَا رَغْبَةٌ وَاحِدَةٌ، وَيَحْفِزُهُمَا هَدَفٌ وَاحِدٌ، هُوَ
 الْإِعْتِذَارُ إِلَى صَاحِبَيْهِمَا.

أَقْبَلَ «جَحْوَانُ» عَلَى حِمَارِهِ يُقَبِّلُ رَأْسَهُ.
 انْدَفَعَتْ «جُحَيَّةُ» تُحَيِّي بِقَرَّتِهَا، وَتُقَبِّلُ رَقَبَتَهَا.

قَالَ «جَحْوَانُ» لِجِمَارِهِ، وَهُوَ يُعَانِقُهُ: «عُذْرًا وَصَفْحًا، أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ. هَا أَنَا ذَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ بُشْرَى خَلَاصِكَ مِنْ مِحْنَتِكَ، وَقُرْبَ عَوْدَتِكَ إِلَى أَدَمِيَّتِكَ.»
أَقْبَلَتْ «جُحْيَّةُ» عَلَى الْبَقَرَةِ تَلْطِيفُهَا قَائِلَةً: «هَا أَنَا ذَا جِئْتُ أَحْمِلُ إِلَى بَقَرَتِي الْعَزِيزَةِ بُشْرَى سَعَادَتِهَا، وَقُرْبَ اسْتِرْدَادِ أَدَمِيَّتِهَا.»

(٣٢) دُمُوعُ الْفَرَحِ

نَظَرَتِ الدَّابَّتَانِ إِلَى الصَّغِيرَيْنِ مَدْهُوشَتَيْنِ، تَرَفَّرَقَ الدَّمْعُ فِي أَغْنِيهِمَا حِينَ رَأَتَا «جَحْوَانُ» وَ«جُحْيَّةُ» يَبْدُلَانِ جُهْدَيْهِمَا فِي مُلَاطَفَتِهِمَا وَالتَّوَدُّدِ إِلَيْهِمَا.
كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» وَ«رَبَابَةُ» يُتَابِعَانِ وَلَدَيْهِمَا مُعْجَبَيْنِ بِمَا يَفِيضُ بِهِ قُلُوبُهُمَا مِنْ عَطْفٍ وَمَحَبَّةٍ.

(٣٣) فُنُونُ مِنَ الْعَرَائِبِ

لَبِثَتِ الْأُسْرَةُ أَيَّامًا تَتَنَقَّلُ بَيْنَ بِلَادِ «الْوَقَوَاقِ» وَحَاضِرَتِهَا: «عَبْقَرٍ». كَانَتْ تَرَى فِي كُلِّ يَوْمٍ طَرَائِفَ لَا تُحْصَى، وَغَرَائِبَ لَا تُسْتَقْصَى.
عُنِيَتِ النَّبِغَاءُ، وَصَاحِبُهَا «أَبُو النَّجَاءِ»، بِشَرْحِ عَجَائِبِ مَا يَشْهَدُونَ: فَوَارَاتُ يَقْذِفُ مَاؤُهَا — فِي كُلِّ فَوْهَةٍ مِنْهَا — بِاللَّهَبِ وَالتَّلَجِّ مَعًا. نَارُهَا لَا تُحْرِقُ مَنْ يَمَسُّهَا. جَلِيدُهَا لَا يُؤْذِي مَنْ يَلْمُسُهُ.
كَوَاكِبُ صَغِيرَةٌ تَدُورُ فِي سُقُوفِ الْحُجَرَاتِ، كَمَا تَدُورُ السَّيَّارَاتُ^{٣٣} فِي السَّمَوَاتِ. يَرْكَبُهَا الصَّغِيرَانِ — مَتَى شَاءَا — كَمَا يَرْكَبَانِ الْأَرَاكِحَ، وَيَسْتَمِعَانِ إِلَى أَغَانِي الطُّيُورِ وَأَنَاشِيدِ الرِّيحِ.

لَا تَسَلُ عَنْ دَهْشَتِهِمَا حِينَ رَأَيَا كُلَّ شَيْءٍ يَتَكَلَّمُ فِي جَزِيرَةِ «عَبْقَرٍ» مِنْ جَمَادٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ. لَا تَسَلُ عَنْ إِعْجَابِهِمَا بِمَا سَمِعَاهُ مِنْ أَحَادِيثِ الْفَوَاكِهِ وَالتَّمَارِ، وَقِصَصِ الْوُرُودِ وَالْأَزْهَارِ، وَغِنَاءِ الْجَدَاوِلِ وَالْأَنْهَارِ!

^{٣٣} النجوم.

كَانَ مِنْ أَعْجَبَ مَا رَأَاهُ: عَنَبُ «الْوَقَوَاقِ»، حَيَّاهُمَا بِأَغَارِيدِهِ الرَّفَاقِ. رَدَّدَ النَّسِيمُ
أَنَاشِيدَهُ، وَشَدَّوهُ وَتَغَرَّيْدَهُ.

(٣٤) فُنُونُ مِنَ الرِّيَاضَةِ

حُبِّبَ إِلَيْهِمَا مِنْ فُنُونِ الرِّيَاضَةِ وَالتَّسْلِيَةِ: رُكُوبُ الْبَجَعِ. مُسَابَقَةُ الْحَزُونِ. مُتَابَعَةُ الطَّيْرِ
فِي طَيْرَانِهِ. الْإِسْتِمَاعُ إِلَى أَنْغَامِ الرُّوضِ وَالْحَانَةِ. كَانَ مِنْ أَحَبِّ الْأَمَانِيِّ إِلَى قَلْبَيْهِمَا أَنْ
تَمْتَدَّ إِقَامَتُهُمَا، وَيَطُولَ بَقَاؤُهُمَا فِي جَزِيرَةِ «عَبْقَرٍ»: عَاصِمَةِ «الْوَقَوَاقِ»، لِمَا تَحْوِيهِ مِنْ
مَبَاهِجٍ وَمَسَرَّاتٍ.

كَانَ «أَبُو الْغُصَنِ» وَ«رَبَابَةُ» عَلَى الْعَكْسِ مِنْ وَلَدَيْهِمَا. لَمْ تَشْغَلْهُمَا لِذَائِدُ مَا
يُحِيطُ بِهِمَا عَنِ التَّفَكُّيرِ فِي إِنْجَازِ مُهِمَّيْهِمَا، وَأَدَاءِ وَاجِبَيْهِمَا. كَانَا يَتَعَجَّلَانِ الْأَيَّامَ؛ لِيُخَلَّصَا
«الْعُكْمُوسَ» وَ«الْخَوَارَ» مِنْ مَحْنَتَيْهِمَا، وَيُعِيدَاهُمَا إِلَى صُورَتَيْهِمَا.

مَرَّ — عَلَى بَقَائِهِمَا فِي الْجَزِيرَةِ — أُسْبُوعٌ. فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ، جَلَسَ «أَبُو الْغُصَنِ»
مُفَكِّرًا فِي مَصِيرِ الشَّقِيَّيْنِ. لَمَسَتْ أَنَامِلُهُ «مِصْبَاحَ الْكَنْزِ» بِغَيْرِ اكْتِرَاثٍ.
لَمْ يَنْتَظِرِ الْمِصْبَاحُ سُؤَالَهُ. ابْتَدَرَهُ الْمِصْبَاحُ قَائِلًا: «قَرَّ عَيْنًا، يَا «أَبَا الْغُصَنِ»..
اطْمَئِنَّ بِالْأَمْنِ. حَانَ الْوَقْتُ لِإِنْجَازِ رَغْبَتِكَ، وَتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِكَ. هَا هُوَ ذَا: رَئِيسُنَا — «أَمِيرُ
الْجَنِّ» — قَادِمًا عَلَيْكَ.»

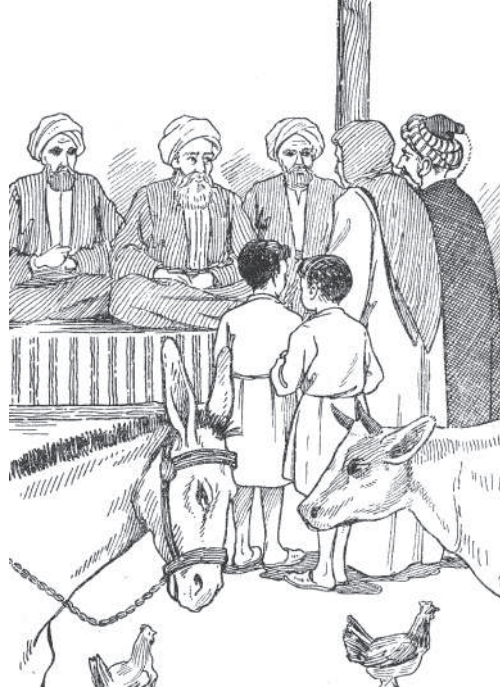
طَرَفَةً قَوِيَّةً: «تَمْ ... تَمْ ...!»

تَنَبَّهَ مَنْ فِي الْقَصْرِ إِلَى حُضُورِ أَمِيرِ الْجَنِّ.

(٣٥) قُضَاةُ «عَبْقَرٍ»

حَانَتْ سَاعَةُ اللِّقَاءِ. أَقْبَلَ الْحَاجِبُ، فِي يَدِهِ عَصَا مِنَ الْعَاجِ. دَعَا «أَبَا الْغُصَنِ» وَأَصْحَابَهُ
لِلْمُنُولِ بَيْنَ يَدَيْ قُضَاةِ «عَبْقَرٍ». لَبَّى الْجَمِيعُ دَعْوَةَ الْحَاجِبِ. تَبِعَهُ «أَبُو الْغُصَنِ»
وَ«رَبَابَةُ» وَوَلَدَاهُمَا، وَحِمَارُهُمْ وَبَقَرَتُهُمْ.

مَشَى خَدَمُ الْقَصْرِ فِي أَثَرِهِمْ يَرْتَدُّونَ أَنْفُسَ الْحُلَلِ، بَيْنَ صُفْرِ وَخُضْرِ.



مَثَلُوا جَمِيعًا فِي دَارِ الْقَضَاءِ. كَانَ الرَّئِيسُ «أَبُو شَعَشَعٍ» — صَاحِبُ النَّظَرَةِ الثَّاقِبَةِ
وَالْوَجْهِ الْبَهِيِّ — يَتَوَسَّطُ قُضَاةَ «عَبْقَرٍ». كَانَتِ الرَّهْبَةُ تَسُودُ الْمَكَانَ.
كَانَ «أَبُو الْغُصْنِ» وَ«رَبَابَةُ» يَتَقَدَّمَانِ الْجَمِيعَ. ابْتَدَرَهُمَا الرَّئِيسُ بِالترَّحِيبِ وَالتَّحِيَّةِ
جِئْنَ رَأَهُمَا. عَرَفَهُ «أَبُو الْغُصْنِ». لَمْ تَغِبْ عَنْهُ صُورَتُهُ. كَانَ قَرِيبَ الشَّبهِ بِمَنْ رَأَهُ فِي
الْكَهْفِ الْمَسْحُورِ.
لَمْ تَعْرِفْهُ «رَبَابَةُ» وَوَلَدَاهَا. رَأَيَاهُ — مِنْ قَبْلُ — فِي هَيْئَةِ شَيْخٍ فَقِيرٍ. الْآنَ يَبْدُو
أَمَامَهُمْ فِي صُورَةٍ أُخْرَى: صُورَةَ قَاضٍ مَهِيبِ الطَّلَعَةِ، رَاحِعِ السَّمْتِ، مَوْفُورِ الشَّبَابِ.
عَقَدَتِ الدَّهْشَةُ أَلْسِنَتَهُمْ جِئْنَ رَأَوْهُ. أَذْرَكَ أَمِيرُ الْجِنِّ حَيْرَتَهُمْ.

(٣٦) حِوَارُ «أَبِي شَعْشَعٍ»

غَمَرَهُمْ أَمِيرُ الْجِنِّ بِبِشَاشَتِهِ وَلُطْفِهِ. ابْتَدَرَهُمْ قَائِلًا: «مَا أَسْرَعَ مَا نَسِيتُمْ الشَّيْخَ الْهَرِمَ: أَبَا شَعْشَعٍ!»

«جَحْوَانُ» لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ مَا تَسْمَعُهُ أُذُنَاهُ. «جَحْوَانُ» يَقُولُ: «يَا لِلْعَجَبِ. أَأَنْتَ أَبُو شَعْشَعٍ؟!»

سَكَتَ أَمِيرُ الْجِنِّ لَحْظَةً.

ابْتَسَمَ «جَحْوَانُ» قَائِلًا: «كَانَ «أَبُو شَعْشَعٍ» — حِينَ رَأَيْتُهُ — شَيْخًا هَرِمًا طَاعِنًا

فِي السِّنِّ، دَمِيمَ الْخُلُقَةِ! أَمَّا أَنْتَ...!»

قَالَتْ «رَبَابَةُ»: «هَيْهَاتَ أَنْ تَخْفَى مَلَامِحُ السَّيِّدِ الْجَلِيلِ عَلَى مَنْ رَأَى ضَيْفَ الْأَمْسِ، وَقَاضِيَ الْيَوْمِ: عَيْنَاكَ عَيْنَاهُ. سِيَمَاكَ سِيَمَاهُ. لَكَ بِشَاشَتُهُ وَإِشْرَاقُ مُحْيَاهُ! هَيْهَاتَ أَنْ نَنْسَى فَضْلَكَ عَلَيْنَا، وَمَا أَسْلَفْتَهُ مِنْ إِحْسَانٍ إِلَيْنَا.»

جَمَجَمَ «أَبُو شَعْشَعٍ». قَالَ دُونَ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ: «يَا لَكَ مِنْ سَيِّدَةٍ وَفِيَّةٍ، كَرِيمَةٍ

ذَكِيَّةٍ!»

النَّتَفَتَ إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ» قَائِلًا: «تَكَلَّمْ، يَا صَدِيقِي، مَاذَا تُرِيدُ مِنِّي؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ: «أُرِيدُ مَعُونَتَكَ لِتُخَفِّفَ مِنَ الْحِمَاقَةِ الَّتِي ارْتَكَبْتُهَا.

يُؤَسِّفُنِي أَنْ لَيْسَ لِي حِيلَةٌ فِي رَدِّ مَا فَعَلْتُ إِذَا خَذَلْتَنِي مَعُونَتُكَ.»

شَخَصَ «أَبُو شَعْشَعٍ» بِنَظَرَتِهِ النَّفَازَةَ إِلَى الدَّابَّتَيْنِ. قَالَ: «كَلَّا، لَا تَنْدُمُ —

يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — عَلَى مَا فَعَلْتُ. مَا أَرَاكَ أَسْرَفْتَ فِي قَسْوَتِكَ، وَلَا غَلَوْتَ فِي عِقَابِكَ. أَنَا

أَعْرِفُ مَا تُرِيدُ. لَا حَاجَةَ إِلَى مَزِيدٍ.»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ» مُتَشَفِّعًا: «حَسْبُ التَّاعِسَيْنِ مَا أَصَابَهُمَا مِنْ عِقَابٍ. مَا أَجْدَرَهُمَا

بِصَفْحِكَ!»

(٣٧) نِهَايَةُ الشَّقَاءِ

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «أَتَظُنُّهُمَا تَابَا عَنِ الشَّرِّ، وَكَفَّا عَنِ الْأَذْيَةِ؟»

قَالَ «أَبُو الْغُصْنِ»: «أَغْلَبَ الظَّنُّ أَنَّهُمَا تَابَا وَأَنَابَا.»

قَالَ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَا دُمْتَ تَرَى ذَلِكَ؛ فَلْيَكُنْ لَكَ مَا تُرِيدُ»
 أَشَارَ «أَبُو شَعْشَعٍ» إِلَى الدَّابَّتَيْنِ: جَمَعَ الْفَاطَا غَرِيبَةً مِنَ السَّحْرِ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ.
 عَادَ الْمَسْحُورَانِ إِلَى صُورَتَيْهِمَا الْأُولَى. تَبَدَّلَتْ فَرَوَاتُهُمَا. تَحَوَّلَتْ هَيْئَتَاهُمَا. زَايَلَتْهُمَا
 الْحِمَارِيَّةُ وَالْبَقْرِيَّةُ. عَادَا إِلَى صُورَتَيْهِمَا الْأَدَمِيَّةِ.
 مَا إِنْ رَأَى الشَّقِيَّانِ هَذِهِ الْحَاتِمَةَ السَّعِيدَةَ حَتَّى فَاضَ قَلْبَاهُمَا بِشُكْرِ «أَبِي
 شَعْشَعٍ». اسْتَشْعَرَا الْحَيْرَةَ وَالنَّدَمَ، ذَرَفَتْ أَعْيُنُهُمَا الدُّمُوعُ، وَهِيَ دَلِيلُ التَّوْبَةِ كَمَا تَعْلَمُ.
 نَظَرَ إِلَيْهِمَا «أَبُو الْغُصْنِ» فِي دَهْشَةٍ. لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُمَا. خِيلَ إِلَيْهِ أَنَّهُمَا شَخْصَانِ
 آخَرَانِ.

سَأَلَهُ «أَبُو شَعْشَعٍ»: «مَاذَا بِكَ، يَا أَبَا الْغُصْنِ؟»
 سَكَتَ «أَبُو الْغُصْنِ». عَقَدَتِ الدَّهْشَةُ لِسَانَهُ. لَمْ يَنْطِقْ بِحَرْفٍ.
 سَأَلَهُ أَمِيرُ «عَبْقَرٍ» بِاسْمًا: «أَيْدِهْشُكَ مَا تَرَاهُ عَلَى أَسَارِيرِ صَاحِبِيكَ مِنَ الْوَدَاعَةِ
 وَالطَّمَأْنِينَةِ؟ سَلُّهُمَا يُنْبِئَاكَ عَنْ سِرِّ تَحَوُّلِهِمَا مِنَ السُّخْطِ إِلَى الرِّضَى!»

(٣٨) شُكْرُ «الْعُكْمُوسِ»

لَمْ يَنْتَظِرِ «الْعُكْمُوسُ» سُؤَالَ «أَبِي الْغُصْنِ». لَمْ يُطِقْ صَبْرًا عَلَى السُّكُوتِ بَعْدَ أَنْ اسْتَرَدَّ
 أَدَمِيَّتَهُ، ابْتَدَرَهُ قَائِلًا: «شُكْرًا لَكَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». أَصْبَحْتُ الْيَوْمَ خَلْقًا آخَرَ. لَمْ أَعُدْ ذَلِكَ
 الْمَاكِزَ الْخَبِيثَ الَّذِي أَفْسَدَهُ النَّهْمُ وَالْجَشَعُ وَالتَّفَانِي فِي جَمْعِ الْمَالِ. لَقِيتُ جَزَائِي الْعَادِلَ
 حِينَ لَبِسْتُ جِلْدَ الْحِمَارِ: ذَلِكَ الْحَيَوَانِ الْوَدِيعِ الصَّابِرِ. كَانَ لِهَذَا الْقِصَاصِ أَحْمَدُ الْأَثَرِ
 فِي نَفْسِي. عَزَفْتُ قِيمَةَ الْأَمَانَةِ وَالشَّرَفِ. ظَلَلْتُ طَوَالَ الْعَامِ حِمَارًا شَرِيفًا. مَا أَجْدَرَنِي أَنْ
 أَنْتَفِعَ بِهَذَا الدَّرْسِ! مَا أَجْدَرَنِي أَنْ أَقْضِيَ مَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِي رَجُلًا شَرِيفًا!
 شُكْرًا لَكَ — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — إِذْ أَعْطَيْتَنِي دَرْسًا قَاسِيًا لَا أَنْسَاهُ. إِلَيْكَ يَرْجِعُ
 الْفَضْلُ فِي أَنْ أَكُونَ الْيَوْمَ غَيْرِي بِالْأَمْسِ. انْقَلَبَ حِقْدِي حُبًّا، وَمَضَّرْتِي نَفْعًا، وَطَمَعِي

قَنَاعَةً وَرُحْدًا. شَدَّ مَا تَبَدَّلَتْ نَفْسِي! مَا أَشَوْقَنِي إِلَى التَّعْجِيلِ بِرَدِّ مَا اغْتَصَبْتُهُ مِنْ مَالِكَ إِلَيْكَ. سَتَرَانِي — مُنْذُ الْيَوْمِ — مِنْ أَوْفَى أَصْدِقَائِكَ قَلْبًا، وَأَشَدَّهُمْ حُبًّا، وَأَكْثَرَهُمْ إِخْلَاصًا، وَأَعْظَمِهِمْ نَفْعًا.»

(٣٩) شُكْرُ «الْحَوَارِ»

قَالَ «الْحَوَارُ»: «شُكْرًا لَكَ، يَا «أَبَا الْغُصْنِ». مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ مَا أَسْدَيْتَهُ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ عَظِيمٍ. كَانَ لِمَا أَلَحَقْتَ بِي مِنْ قِصَاصِ أَحْمَدُ الْأَثَرِ فِي تَبْدِيلِ طَبِيعِي الشَّرْسِ الْجَامِحِ، وَتَوَجِيهِهِ إِلَى الرَّحْمَةِ وَحُبِّ الْحَيْرِ. أَنَا — مُنْذُ الْيَوْمِ — طَوْعُ أَمْرِكَ وَرَهْنُ إِشَارَتِكَ. أَنْتَ قَيَّدْتَنِي بِإِحْسَانِكَ، وَطَوَّقْتَنِي بِكَرَمِكَ. سَأُظَلُّ أُسِيرَ فَضْلِكَ مَا دُمْتُ حَيًّا.»

(٤٠) دُعَابَاتُ مُسْتَمْلَحَةٍ

قَالَ «جَحْوَانُ» وَ«جُحَيَّةُ»، وَهُمَا يَنْظُرَانِ إِلَى «الْعُكْمُوسِ» مُتَخَابِتَيْنِ: «لَا بَأْسَ إِذَا فَقَدْنَا حِمَارًا نَافِعًا!»
أَجَابَهُمَا «الْعُكْمُوسُ» ضَاحِكًا: «يَا هُ! لَنْ تَخْسِرَا بِهِذَا شَيْئًا. لَكُمَا أَنْ تَرْكَبَا فَوْقَ ظَهْرِي، مَتَى شِئْتُمَا!»
ابْتَدَرَاهُ ضَاحِكَيْنِ: «عَلَى أَيِّ حَالٍ، أَحَبِّبْنَا «الْعُكْمُوسَ» حِمَارًا، أَكْثَرَ مِمَّا أَحَبِّبْنَاهُ إِنْسَانًا!»

ضَحِكَ قُضَاةُ «عَبْقَرٍ» مِنْ دُعَابَةِ الصَّغِيرَيْنِ. قَالَ لَهُمَا أَمِيرُ الْجِنِّ: «هُونَا عَلَيْكُمَا. سَاعَوْضُكُمَا حَيْرًا مِمَّا فَقَدْتُمَا.»
النَّفَتُ «أَمِيرُ الْجِنِّ» إِلَى «أَبِي النَّجَاءِ» قَائِلًا: «أَلَا تَزْعُبُ فِي الْعُودَةِ إِلَى عَرْشِكَ الَّذِي فَقَدْتَهُ، جَزَاءَ ظُلْمِكَ وَجَبْرُوتِكَ؟ الْآنَ أَصْفَحُ عَنْكَ، جَزَاءَ خِدْمَتِكَ وَطَاعَتِكَ، بَعْدَ أَنْ صَحَّتْ تَوْبَتُكَ وَخَلَصَتْ نِيَّتُكَ. الْآنَ أُعِيدُ إِلَيْكَ الْقُوَّةَ وَالْمُلْكَ. عُدْ إِلَى بَلَدِكَ أَمِنًا، يَا «أَبَا النَّجَاءِ». حَذَارِ أَنْ تَتَنَكَّبَ سَبِيلَ الرِّفْقِ وَالْعَدَالَةِ مَرَّةً أُخْرَى.»
شَكَرَ لَهُ «أَبُو النَّجَاءِ» صَفْحَهُ وَكَرَمَهُ.

(٤١) رَجَاءُ «زُمُرْدَة»

أَسْرَعَتْ «زُمُرْدَة» إِلَى أَمِيرِ الْجَنِّ قَائِلَةً: «لَا أُرِيدُ أَنْ أَعُودَ أَدِمِيَّةً كَمَا كُنْتُ. بِرَبِّكَ إِلَّا مَا أَبْقَيْتَنِي طَائِرَةً، كَمَا أَنَا. لَا أَكُنُّمُ أَنْنِي شَعَرْتُ بِالسَّعَادَةِ مُنْذُ انْتَقَلْتُ — مِنْ عَالَمِ الْأَنَاسِيِّ — إِلَى عَالَمِ الطَّيْرِ الرَّحْبِ، مُحَلَّقَةً فِي الْجَوِّ، طَائِرَةً بَيْنَ الْأَشْجَارِ، مُتَنَقِّلَةً مِنْ فَنَنِ إِلَى فَنَنِ، فِي ابْتِهَاجٍ وَإِبْنَاسٍ. مَا أَزْهَدَنِي الْآنَ فِي الْعُودَةِ إِلَى عَالَمِ النَّاسِ.

لَا ... لَا ... هَا! لَا تَسْلُبْنِي — يَا أَمِيرَ الْجَنِّ — جَنَاحِي وَمِنْقَارِي، وَمَخَالِبِي وَأَظْفَارِي. لَا تَحْرِمْنِي تَاجِي الْأَحْمَرِ الْبَاهِي، وَرِيشِي الْأَخْضَرَ الزَّاهِي. لَا تَنْزِعْ خَيْرَ حُلَّةٍ أُرْدِيهَا، وَأُخْتَالَ فِيهَا. مَا أَسْعَدَنِي أَنْ أَطِيرَ فِي الْفَضَاءِ، أُغْنِي وَأُثْرَثُ كَمَا أَشَاءُ!»
قَالَ أَمِيرُ الْجَنِّ: «لَكَ مَا تَشَائِنِ يَا «زُمُرْدَة». ابْقِي بِنِعَاءٍ كَمَا تُرِيدِينَ.»

(٤٢) حَوْضُ «عَبْقَرٍ»

أَشَارَ أَمِيرُ الْجَنِّ إِلَى نَافُورَةٍ كَبِيرَةٍ، يَتَحَدَّرُ مَآوُهَا صَافِيًا نَفِيًّا، فِي حَوْضٍ كَبِيرٍ، شَبِيهِ بِالْحَوْضِ الَّذِي رَأَاهُ «أَبُو الْغُصْنِ» فِي الْكَهْفِ الْمُسْحُورِ.
النَّفَتْ أَمِيرُ الْجَنِّ إِلَى «أَبِي الْغُصْنِ» وَمَنْ مَعَهُ قَائِلًا: «اَعْمِسُوا أَنَا مِلْكُكُمْ^{٣٤} فِي هَذَا الْحَوْضِ. إِنَّهُ حَوْضُ «عَبْقَرٍ». مَتَى عَمَسْتُمْ فِيهِ أَنَا مِلْكُكُمْ طَهَّرْتُ نَفُوسَكُمْ، وَطَالَتْ أَعْمَارُكُمْ، وَأَمِنْتُمْ الضَّعْفَ وَالْمَرَضَ طَوْلَ حَيَاتِكُمْ. لَكِنَّهُ لَنْ يَدْفَعَ عَنْكُمْ غَائِلَةَ الْمَوْتِ! اللَّهُ — وَحْدَهُ — يَهْبُ الْخُلُودَ لِمَنْ يَشَاءُ.»

انْدَفَعَ الْجَمِيعُ إِلَى حَوْضِ «عَبْقَرٍ»، يَغْمِسُونَ فِيهِ أَنَا مِلْكُهُمْ فَرَحَانِينَ.
مَا كَانَ أَسْعَدَ «أَبَا الْغُصْنِ» وَ«رَبَابَةَ» إِذْ ضَمِنَا وَقَايَةَ وَلَدَيْهِمَا مِنَ الْآلَامِ وَالْمَرَضِ، وَحَفِظَهُمَا مِنَ الضَّنَى وَالسَّقَمِ، وَتَبَارِيحِ الْأَلَمِ! أَنْسَتْهُمْ الْخَاتِمَةُ السَّعِيدَةُ مَا لَقَوْهُ طَوَالَ حَيَاتِهِمْ مِنْ أَشْجَانٍ، وَمَتَاعِبٍ وَأَحْزَانٍ.

(٤٣) الْعَفْوُ عَنِ الْمُتَصَافِعِينَ

لَمْ تَنْسَ «رَبَابَةُ» أَنْ تَطْلُبَ مِنْ أَمِيرِ «عَبْقَرٍ» أَنْ يَشْمَلَ بِرِعَايَتِهِ أُولَئِكَ الْمُتَصَافِعِينَ مِنْ لُصُوصِ الصَّخْرَاءِ.
لَمْ يَرَدِّدْ أَمِيرُ الْجِنِّ فِي إِجَابَتِهَا إِلَى طَلِبَتِهَا، وَتَحْقِيقِ رَغْبَتِهَا.
أَعْفَى لُصُوصَ الصَّخْرَاءِ مِنَ التَّصَافُعِ وَالرَّقْصِ. لَمْ يَقِفْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ. أَضْفَى عَلَيْهِمْ بَرَّهُ وَعَطْفَهُ، وَصَفَحَهُ وَلُطْفَهُ. كَفَلَ لَهُمْ حَيَاةً كَرِيمَةً وَأَرْضَاهُمْ، وَأَسْعَدَهُمْ وَأَغْنَاهُمْ. مَنَحَهُمْ دَسَكْرَةً كَبِيرَةً، بِمَا تَحْوِيهِ مِنْ مُعَدَّاتِ الْحَرْثِ وَالزَّرْعِ وَقُطْعَانِ الْمَاشِيَةِ. كَانَ هَذَا آخِرَ عَهْدِ الْأَشْقِيَاءِ بِالسَّلْبِ وَالنَّهْبِ.

(٤٤) هَذَايَا أَمِيرَ الْجِنِّ

أَغْدَقَ أَمِيرُ الْجِنِّ عَلَى ضِيُوفِهِ — مِنْ هَذَايَا «عَبْقَرٍ» — نَفَائِسَ لَا تَحْصُرُ. أَوْدَعَ هَذَايَاهُ فِي صِنَادِيقٍ كَبِيرَةٍ مِنْ خَشَبِ الصَّنَدِلِ وَاللَّيْمُونِ وَالسَّاجِ، مُحَلَّاةٍ بِالْيَاقُوتِ، مُطَعَّمَةٍ بِالْعَاجِ. انْتَفَتَ أَمِيرُ الْجِنِّ إِلَى «جَحْوَانَ» قَائِلًا: «أَفِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَحْمِلَ كُلَّ هَذِهِ النِّفَائِسِ إِلَى بَيْتِكَ؟»

أَجَابَهُ «جَحْوَانَ»: «لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ — يَا أَمِيرَ الْجِنِّ — إِلَّا إِذَا دَقَّتْ ٣٥ أَحْجَامُهَا، وَصَغُرَتِ الصِّنَادِيقُ الَّتِي تَحْوِيهَا؛ بِحَيْثُ تَسَعُّهَا جُبُوبِي!»
قَالَتْ «جَحِيَّةُ»: «مَا أَحْسَنَ أَنْ يَأْذَنَ أَمِيرُ الْجِنِّ بِنَقْلِهَا إِلَى بَيْتِنَا عَلَى جَمَهَرَةٍ مِنَ الْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ!»

قَالَ «جَحْوَانَ»: «ذَلِكَ رَأْيُ سَيِّدِي، يَا أُخْتِي. إِذَا تَفَضَّلَ أَمِيرُ الْجِنِّ بِتَحْقِيقِهِ، كَسَبْنَا الْهَذَايَا وَالذَّوَابَ الَّتِي تَحْمِلُهَا.»

ابْتَدَرَهُمَا أَمِيرُ الْجِنِّ قَائِلًا: «لَكُمَا مَا تُرِيدَانِ!»

مَا أَسْرَعَ مَا رَأَوْا قَافِلَةً كَبِيرَةً، تَخْرُجُ مِنْ قَصْرِ «عَبْقَرٍ»؛ مُعَدَّةً لِحَمْلِ الْأَسْرِ الْجَحْوِيَّةِ وَضَيْفَيْهَا وَهَذَايَاهُمْ.

(٤٥) مُفَارَقَةُ الْمُصْبَاحِ

سَمِعَ «أَبُو الْغُصْنِ» صَوْتًا خَافِتًا يَهْمِسُ قَائِلًا: «مَا أَسْعَدَنِي بِإِنْجَازِ مَا تَكَلَّفْنِيهِ^{٣٦} — يَا «أَبَا الْغُصْنِ» — مِنْ مَهَامٍ»
كَانَ صَوْتُ «مُصْبَاحِ الْكَنْزِ»
ابْتَدَرَهُ «أَبُو الْغُصْنِ» شَاكِرًا لَهُ مَا أَسَدَاهُ إِلَيْهِ مِنْ مُسَاعَدَةِ كَرِيمَةٍ. عَنْ لِ «أَبِي الْغُصْنِ»
خَاطِرٌ نَبِيلٌ. قَالَ لِنَفْسِهِ: «مَا أَجْدَرَنِي بَرْدَ الْمُصْبَاحِ إِلَى أَمِيرِ الْجَنِّ! مَا أَجْدَرَنِي إِلَّا أُعَوَّلَ
عَلَى أَحَدٍ غَيْرِي.

مَا أَجْدَرَنِي بِالْإِعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِي، دُونَ أَنْ أَسْتَعِينَ بِقُوَّةِ سِوَى قُوَّتِي. لَوْ بَقِيَ
«مُصْبَاحُ الْكَنْزِ» مَعِي، لَمْ أَمْنُ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَيَّ الضَّعْفُ، كَمَا تَغَلَّبَ عَلَيَّ مِنْ قَبْلُ، فَتَغْرِينِي
قُوَّتُهُ بِأَنْ أَدْفَعَ الْإِسَاءَةَ بِمِثْلِهَا. كَلَّا! لَنْ أَلْتَمَسَ الْعَوْنَ — فِي حَيَاتِي — إِلَّا مِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ.
هُوَ حَسْبِي، وَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى، وَنِعْمَ النَّصِيرُ»
تَوَجَّهَ «أَبُو الْغُصْنِ» بِالرَّجَاءِ إِلَى أَمِيرِ الْجَنِّ أَنْ يَسْتَرِدَّ وَدِيعَتَهُ النَّفِيسَةَ بَعْدَ أَنْ
ضَاعَفَ لَهُ الثَّنَاءَ وَالشُّكْرَ. اشْتَدَّ إِعْجَابُ أَمِيرِ الْجَنِّ، بِمَا شَهِدَهُ مِنْ حِكْمَةِ «أَبِي الْغُصْنِ»،
وَرَجَاحَةِ عَقْلِهِ، وَبُعْدِ نَظَرِهِ.

(٤٦) أَلَمُ الْفِرَاقِ

حَانَتْ سَاعَةُ الرَّجِيلِ.
شَهِدَ أَمِيرُ الْجَنِّ دَمْعَةً تَتَرَقَّرُقُ فِي عَيْنِ «أَبِي الْغُصْنِ». أَدْرَكَ أَمِيرُ الْجَنِّ مَا يَدُورُ
بِنَفْسِ «أَبِي الْغُصْنِ» مِنْ أَلَمِ لِفِرَاقِهِ. قَالَ لَهُ يُطْمَئِنُّهُ: «لَا تَأْسُ وَلَا تَحْزَنْ، يَا صَدِيقِي
الْعَزِيزَ. عُدْ إِلَى بَيْتِكَ غَانِمًا مَسْرُورًا. لَنْ نَفْتَرِقَ بَعْدَ الْيَوْمِ. أَنْتَ أَخِي مَدَى الْحَيَاةِ!
سَتَجِدُنِي مَعَكَ كُلَّمَا أَرَدْتَ. ذَلِكَ وَعْدٌ أَخَذْتُ بِهِ نَفْسِي: سَتَرَى «أَبَا شَعْشَعَ» يَطْرُقُ بَابَكَ

^{٣٦} ما تأمرني به مما يشق عليك.

— بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ — وَيَحُلُّ فِي بَيْتِكَ ضَيْفًا. إِنَّ رُؤْيَاكَ تُسْعِدُنِي، وَتُرْفُهُ عَنِّي وَتَبْهَجُنِي. إِنَّ لِقَاءَكَ يَهْوُنُ عَلَيَّ مَا أَرَاهُ — فِي غَيْرِكَ — مِنْ جُحُودٍ وَعُقُوقٍ، وَإِهْدَارٍ لِلْحُقُوقِ.»

(٤٧) رَغْبَةُ «أَبِي النَّجَاءِ»

حَانَ مَوْعِدُ الْعُودَةِ، فَتَنَ «أَبُو النَّجَاءِ» بِمَا رَأَهُ مِنْ شَمَائِلِ «أَبِي الْغُصْنِ». أَثَرُ أَنْ يَقْضِيَ مَعَهُ مَا بَقِيَ مِنْ حَيَاتِهِ. زَهَدَ فِي الْعُودَةِ إِلَى عَرْشِهِ. اسْتَأْذَنَ أَمِيرُ الْجَنِّ فِي أَنْ يَكْفَلَ لَهُ تَحْقِيقَ رَغْبَتِهِ فِي الْبَقَاءِ إِلَى جِوَارِ «أَبِي الْغُصْنِ». كَبَّرَ عَلَى «أَبِي النَّجَاءِ» فِرَاقُ «جُحَيَّةَ» وَ«جَحْوَانَ». أَعْجَبَ أَمِيرُ الْجَنِّ بِوَفَائِهِ. لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَحْقِيقِ رَجَائِهِ. طَلَبَ أَمِيرُ الْجَنِّ إِلَى «أَبِي السَّمْعَمِ» أَنْ يَحْمِلَهُمْ إِلَى «الْوَاخَةِ الْمَسْحُورَةِ»، لِيُعُودُوا مِنْ حَيْثُ جَاءُوا. لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ فِي الْقَافِلَةِ. لَمْ يَنْقُصْ مِنْهَا غَيْرُ نَهْيِ الْجَمَارِ وَخَوَارِ الْبَقَرَةِ. تَوَثَّقَتْ أَوَاصِرُ الْمَوَدَّةِ بَيْنَهُمْ، بَعْدَ أَنْ بَلَّغُوا وَطَنَهُمْ. عَاشَ الْجَمِيعُ أَصْفِيَاءَ مُؤْتَلِفِينَ، خُلَصَاءَ مُتَحَابِّينَ!

(٤٨) عَرْضُ مَرْفُوضٍ

عَرَضَ «أَبُو الْغُصْنِ» عَلَى جَارَتِهِ «زُبَيْدَةَ» أَنْ تَخْتَارَ أَحَدَ صَاحِبَيْهِ زَوْجًا لَهَا، بَعْدَ أَنْ عَادَ إِلَى كُلِّهِمَا ثَرَاؤُهُ وَذِكَاؤُهُ. لَمْ تَسْتَجِبْ «زُبَيْدَةُ» إِلَى اقْتِرَاحِهِ. لَعَلَّهَا نَفَرَتْ مِنَ الزَّوْاجِ بِرَجُلٍ كَانَ حِمَارًا أَوْ بَقَرَةً! أَثَرَتْ «زُبَيْدَةُ» أَنْ تَبْقَى إِلَى جَانِبِ «جَحْوَانَ» وَ«جُحَيَّةَ». كَانَتْ لَهُمَا أُمًّا ثَانِيَةً، لَا تُقْصِرُ فِي الْعِنَايَةِ بِهِمَا، وَلَا تَدْخِرُ جُهْدًا فِي إِسْعَادِهِمَا.

(٤٩) خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

عَاشَ الْجَمِيعُ فِي دَعَةٍ وَسَكِينَةٍ، وَأَمْنٍ وَطُمَأْنِينَةٍ، تَغْمُرُهُمُ الْهَنَاءَةُ وَالرَّغَادَةُ، وَتُرْفَرُ عَلَيْهِمُ أَعْلَامُ السَّعَادَةِ، تَرَعَّرَ «جَحْوَانُ» وَ«جُحَيَّةُ» فِي ظِلَالِ الصَّحَّةِ وَالْقُوَّةِ، وَالْعَافِيَةِ وَالْفُتُورَةِ. حَقَّقَ لَهُمْ أَمِيرُ الْجَنِّ مَا وَعَدَ. كَانَ يَبْسُطُ حِمَايَتَهُ عَلَى الْجَمِيعِ.

كَانَ يَزُورُهُمْ — بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ — فِي صُورَةِ شَيْخٍ هَرِمٍ. كَانَتْ أَيَّامُ زِيَارَتِهِ لِلْأُسْرَةِ أَفْرَاحًا وَأَعْيَادًا، وَبَهْجَةً وَإِسْعَادًا.

اسْتَرَدَّ «الْعُكْمُوسُ» وَ«الْخَوَارُ» كُلُّ مَا فَقَدَا مِنْ مَالِهِمَا، اسْتَعَادَا ثَرَوَتَهُمَا مِنْ أَعْتَصَبَهَا. اسْتَرَدَّ «الْعُكْمُوسُ» مِنَ الْقَاضِي مَائَتِي الدِّينَارِ.

عَاشَ «أَبُو الْغُصْنِ» وَ«رَبَابَةُ» عِشْرِينَ وَمِائَةً مِنَ السِّنِينَ، مُمْتَعَيْنِ بِوَلَدَيْهِمَا، سَعِيدَيْنِ بِوَفَاءِ جَارَتِهِمَا.

كَانَ الزَّوْجَانِ لَا يَكْفُرَانِ عَنْ تَوْصِيَةِ وَلَدَيْهِمَا بِالْمُتَابَرَةِ وَالِدُّوْهِ.
كَانَ آخِرُ وَصِيَّةٍ فَاهَ بِهَا «أَبُو الْغُصْنِ»: «الْعَمَلُ. الْعَمَلُ. حَيٌّ عَلَى الْعَمَلِ!»
كَانَ آخِرُ وَصِيَّةٍ نَطَقَتْ بِهَا «رَبَابَةُ»: «الْوَاجِبُ. الْوَاجِبُ. حَيٌّ عَلَى الْوَاجِبِ!»